الجمعية الخيرية الإسلامية

تفسير القرآن الكريم

للأستاذ الإمام

الشيخ محمد عبده

(رحمه الله تعالى)

جزء عم

(الطبعة الثالثة)

سنة ١٣٤١ هـ

مطبعة مصر - شركة مساهمة مصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

ربنا عليك توكلنا . واليك أنبنا واليك المصير . ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا . واغفر لنا ربنا انك أنت العزيز الحكيم فتحت لى يارب أبواب فضلك وعرفتنى ماشئت من أسرار قولك فبأى لسان أحمدك وبأية جارحة اشكرك . أسألك المعونة على بيان الحق . لارشاد المستعدين لقبوله من الخلق . وأن تجعل الكلمة العليا لكتابك المبين . والسلطة اعظمى لهدى خاتم المرسلين . سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى جميع النبيين . ومن تبعهم على الصراط المستقيم . واقتفى أثرهم فى الصالحات والسير القويم . وارشد اللهم هذه الامة العانية . الى ما فيه لها السلامة والعافية . ولا تجعلها حرباً للهادين . ولا فتنة للضالين المضلين

(أما بعد) فقد نبهنى بعض اخوانى من أعضاء الجمعية الخيرية الاسلامية الى أن أكتب تفسيراً لجزءى عم يتساءلون وتبارك الذى بيده الملك ليكون مرجعاً للاساتذة لمدارس الجمعية فى تفهيم التلامذة معانى ما يحفظون من الجزءين لينشئوا متعودين على فهم ما يحفظون وتدبر مايقرؤن وليكون ما فى تلك السور من دلائل التوحيد والعظات والعبر مشرفاً للعقائد السليمة فى نفوسهم وعاملا للاصلاح فى أعمالهم وأخلاقهم فتوكلت على الله فى العمل وبدأت بجزء عم يتساءلون وكنت أطلب أوقات الفراغ من حين الى حين وقلما كنت أجدها حتى يسر لى الله السفر الى البلاد المغربية هذه السنة سنة احدى وعشرين وثلثمائة وألف من الهجرة فوجدت من الوقت فى السفر مالم أجده فى الحضر وقد وفقت الى تتميمه فى تلك البلاد وأسأل الله أن يسهل لى سبيل العمل فى تفسير جزء تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير انه نعم المولى ونعم النصير وقد بذلت جهدى فى أن تكون العبارة سهلة التناول خالية من الخلاف وكثرة الوجوه فى الاعراب بحيث لا يحتاج فى فهمها الا الى أن يعرف القارئ كيف يقرأ أو السامع كيف يسمع مع حسن النية وسلامة الوجدان والله الموفق لمن شاء الى خير الاشياء والله أعلم

سورة النبأ مكية وهي اربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا

كان غير المؤمنين يسأل بعضهم بعضاً عن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ويسألون غيرهم فيقولون هل هو رسول وما هذا الخبر الذى جاء به من دعوى انه مرسل من قبل الله يدعو الى توحيده والى الاعتقاد باليوم الآخر وهو يوم القيامة يوم يسئل كل عامل عما عمل فبكتهم الله بقوله عن أى شيء يتساءلون ثم قال عن الخبر العظيم الذى هم فيه مختلفون بعضهم ينكره وبعضهم يتردد فى صحته ثم رد عليهم الانكار والتردد بقوله كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون أى ستنكشف لهم الحقيقة ويرون صحة الخبر وتنقطع الريبة فيه يوم تقوم الساعة ويفصل بينهم ثم ذكرهم بدلائل قدرته وآيات رحمته فقال ألم نجعل الأرض مهاداً الخ أى أن من ينعم على الناس هذه النعم العظيمة لا يهملهم من ارسال داع الى توحيده بعد ما ضلوا عنه وهاد الى طريقه المستقيم ومذكر بيوم الحساب وليس بعظيم على صاحب هذا الاحسان أن يرسل ذلك الرسول ولا أن يحقق مايدعو الى الاعتقاد به من شؤن اليوم الآخر وهى ما ذكر فى قوله ان يوم الفصل الخ

(عم) أصله عما اى عن أى شيء والابهام للتعظيم (والنبأ) الخبر الذى يهتم له (وكلا) للردع ونفى الزعم الباطل (المهاد) الفراش وقد جعل الله الارض موطئاً للناس والدواب يقيمون عليها فهى فراش لهم — (والاوتاد) جمع وتد بسكون التاء وكسرها وهو معروف وانما كانت الجبال أوتاداً لان بروزها فى الارض كبروز الاوتاد المغروزة فيها ولانها فى تثبيت الارض ومنعها من الميدان والاضطراب كالاوتاد فى حفظ الخيمة من مثل ذلك كأن أقطار الارض قد شدت اليها ولولا الجبال لكانت الارض دائمة الاضطراب بما فى جوفها من المواد الدائمة الجيشان

وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا

(وأزواجاً) ذكراً وأنثى ليتم الائتناس والتعاون على سعادة المعيشة وحفظ النسل وتكميله بالتربية — (والسبات) بضم السين الموت والمسبوت الميت من السبت وهو القطع، والنوم أحد الموتين ونعمة الله فيه كبيرة فان موت بضع ساعات فى اليوم يريح القوى من تعبها وينشطها من كسلها ويعيد اليها ما فقد منها ولو لم يكن النوم موتاً واليقظة بعثاً لم يتم هذا التجديد للقوى — لباس الجسم ما يستره والليل شبيه باللباس لانه يستر الاشخاص بظلمته وللناس فى هذا الستر فوائد اللباس فكما أن اللباس يقى من الحر والبرد ويستر العورات عن النظر كذلك الليل يستتر فيه الفار من العدو أو الحيوان المفترس المطارد له ويختفى فيه الكامن للوثوب على ما يريد التخلص منه والنجاة من شر مساورته

وكم لظلام الليل عندك من يد * تخبر أن المانوية تكذب

(والمعاش) الحياة فكما جعل النوم موتاً جعل اليقظة حياة والنهار زمن هذه الحياة أى جعل النهار وقت معاش يستيقظون فيه ويتقلبون فى حوائجهم ومكاسبهم (والسبع الشداد) الطرائق السبع وهى ما فيه الكراكب السبعة السيارة المشهورة وخصها بالذكر لظهورها ومعرفة العامة لها والا فقد بنى ما هو أعظم منها وهو ما وراءها من عوالم السموات ووصفها بالشدة لانها محكمة متينة لا يؤثر فيها مرور الزمان (والوهاج) المتلألئ الوقاد — والسراج الوهاج هو الشمس (والمعصرات) السحائب والغيوم اذا أعصرت أى جاء وقت أن تعصر الماء فيسقط منها المطر (والثجاج) المنصب بكثرة (والحب) يعنى به ما يقتات به الناس من نحو الحنطة والشعير (والنبات) ما يقتات به الدواب من التبن والحشيش «كلوا وارعوا أنعامكم» «متاعاً لكم ولأنعامكم» (والجنات) جمع جنة وهى الحديقة والبستان فيه الشجر أو النخل (وألفافاً) أى ملتفة الشجر لتقارب أغصانه وطول أفنانه

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ۝ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ۝ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝

(ويوم الفصل) هو يوم القيامة يظهر فيه الحق وينكشف الستار عن القلوب والالتباس عن العيون فيفصل بين الحق والباطل و (كان ميقاتاً) أى ينتهى اليه الناس فيجتمعون فيه ليرى كل عاقبة عمله وكان كذلك أى قضاء الله وقدره[1]

(يوم ينفخ فى الصور) بدل من يوم الفصل أو عطف بيان له والنفخ فى الصور تمثيل لبعث الله للناس يوم القيامة بسرعة لا يمثلها الا نفخة فى بوق فاذا هم قيام ينظرون وعلينا أن نؤمن بما ورد من النفخ فى الصور وليس علينا ان نعلم ما هى حقيقة ذلك الصور والبحث وراء هذا عبث لا يسوغ للمسلم (والافواج) الامم والطوائف أى تأتون أمماً وطوائف مختلفة — (وفتحت السماء) أى أنه يتغير فى ذلك اليوم نظام الكون فلا تبقى أرض على أنها تقل ولا سماء على أنها تظل بل تكون السماء بالنسبة الى الارواح مفتحة الابواب بل تكون أبواباً فلا يبقى علو ولا سفل ولا يكون مانع يمنع الارواح من السير حيث تشاء والآخرة عالم آخر غير عالم الدنيا التى نحن فيها فنؤمن بما ورد به الخبر فى وصفه ولا نبحث عن حقائقه ما دام الوارد غير محال ولا شك أن امتناع السماء علينا انما هو لطبيعة أجسامنا فى هذه الحياة الدنيا اما النشأة الاخرى فقد تكون على غير ذلك فتكون السماء بالنسبة الينا أبواباً ندخل من أيها شئنا باذن الله وقد يكون معنى تفتح السماء ما عنى بقوله اذا السماء انشقت اذا السماء انفطرت يوم تشقق السماء بالغمام أى أنه يقع الاضطراب فى نظام الكواكب فيذهب التماسك بينها ولا يكون فيما يسمى سماء الا مسالك وأبواب لا يلتقى فيها شىء بشىء وذلك هو خراب الكون العلوى كما يخرب الكون السفلى

(وسيرت الجبال) تمثيل لمور الارض فى ذلك اليوم وان جبالها لا تكون على رسوخها المعروف اليوم بل يذهب ما كان لها من قرار وتعود كأنها سراب يرى من بعيد فاذا لمسته لم تجد شيئاً وذلك لتفرق أجزائها وانبثاث جواهرها

(١) كذا بالاصل والجملة غنية عنها ولعل صوابها وكان ذلك بقضاء الله وقدره

إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝ لِلطَّاغِينَ مَآبًا ۝ لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ۝ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝ جَزَاءً وِفَاقًا ۝ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ۝ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ۝ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا

بعد أن عدد وجوه احسانه ودلائل قدرته على ارسال رسوله وتأييده وذكر ان الفصل بين الرسول وبين معانديه سيكون يوم القيامة وذكر هوله وامتياز شؤونه عن شؤون أيام الدنيا جاء الى وعيد المكذبين وبيان مايلاقونه وأخبر أن جهنم وهى دار العذاب قد قدرها الله مرصاداً وحداً يرصدون فيه للعذاب وهى مرجعهم الذى ينتهون اليه وأنهم سيقيمون فيها مددا طوالا مجدبين معدمين لايجدون شيئاً من النعيم والراحة ولا يذوقون فيها روحاً ينفس عنهم حر النار ولا يذوقون من الشراب الا الماء الحار والصديد الذى يسيل من أبدانهم جزاء يوافق أعمالهم لأنهم كانوا لاينتظرون يوم الحساب ولذلك اقترفوا السيئات وأتوا قبائح الاعمال وكذبوا بالدلائل التى أقامها الله على صدق رسله تكذيباً أشد تكذيب وقد أحصى الله كل شىء فى كتاب علمه فلم يغب عنه شىء مما صدر منهم وسيوفيهم جزاء ماصنعوا وستكون كلمته العالية أن يقول لهم ذوقوا فلن نزيدكم الا عذاباً

(المآب) المرجع (لابثين) مقيمين (الاحقاب) جمع حقب بضمتين قيل هو ثمانون سنة وقيل أكثر من ذلك والمراد المدد المتطاولة ولايكاد يستعمل الحقب والحقبة لا حيث يراد تتابع الازمنة وتواليها أى يلبثون فيها مدداً الى غير النهاية (البرد) برد الهواء أو هو النوم ورد عن بعض العرب « منع البرد البرد» (الغساق) من غسق يغسق اذا انصب وسال وهو القيح والصديد الدائم السيلان من اجساد أهل النار (الوفاق) مصدر وافق وصف به الجزاء مبالغة (كذاباً) أى تكذيباً وهذه الصيغة فاشية فى كلام فصحاء العرب فى باب فعل فيقال فسر فساراً مثلا (كتاباً) مصدر كتب وهو فى موضع احصاء كأنه قيل أحصيناه احصاء أو أن أحصيناه فى معنى كتبناه لأن الاحصاء بالكتابة والكتابة هنا

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا وَكَأْسًا دِهَاقًا لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ

على النحو الذى يليق بتنزيه الله تعالى وهو أعلى من كتابتنا التى نعرفها وأشد منها ضبطاً لكنا لا نكلف بالبحث عنها فذلك مما نؤمن به ونكل علم حقيقته الى الله (ان للمتقين الخ)

بعد ما بين حال المكذبين جاء بما يناله المتقون وأنهم سيفوزون بالأجر العظيم فى الجنان التى وصفها ووصف ما فيها وان ذلك عطاء لهم من مالك السموات والارض عظيم الرحمة والانعام الذى لا يملك أحد من أهل السموات والارض أن يخاطبه فى شأن الثواب والعقاب بل هو المتصرف فيه وحده فى ذلك اليوم الذى يقوم فيه الروح والخلق المقدس من عالم الغيب والملائكة صفاً ولا يمكن لأحد أن يتكلم الا من اذن له الرحمن ونطق بالصواب

(المفاز) الفوز بالنعيم والثواب أو مكان ذلك (والحدائق) البساتين فيها انواع الشجر المثمر (والأعناب) معروفة جمع عنب خصها بالذكر لأهميتها (والكواعب) البنات اللاتى استدارت ثديهن (والأتراب) اللاتى من سن واحدة والتمتع بهذه البنات فى الجنة مما يتمثله الانسان فى هذه الدنيا على نحو من اللذة ولكن لا تعلم حقيقته فى الجنة وغاية مايجب أن نصدق به انه تمتع فائق اللذة على حسب ما يناسب ذلك العالم الاخروى (الكأس) اناء من بللور يشرب فيه (والدهاق) المملوءة المترعة وأدهق الحوض ملأه (واللغو) مالا يعتد به من الكلام (والكذاب) التكذيب كما سبق واللغو والتكذيب مما تألم له انفس الصادقين بل هو من اشد الاذى لقلوبهم فأراد الله ازاحة ذلك عنهم (والحساب) الكافى (والروح والملائكة) من مخلوقات الله المغيبة عنا التى لا نكلف بالبحث عن حقائقها وقيامها واصطفافها على النحو الذى يليق بها والذى تفيده هذه الآية الكريمة انهم مع قربهم

إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ۝ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا

من الله لا يستطيع احد منهم ان يشفع لاحد او يستمنح منحة الا اذا اذن الله له ولا يأذن الا لمن علم انه سيجاب وانما يكون الكلام ضرباً من التكريم لمن يأذن الله له به يختص به من يشاء ولا اثر له فيما اراد الله البتة

(ذلك اليوم الحق الخ)

بعد اذ ذكر الله فى قوله ان يوم الفصل كان ميقاتاً الخ ان يوم القيامة موعد يفصل فيه بين الحق والباطل وترفع فيه ستر الشبهة عن القلوب وبين كيف يتحول العالم فيه من حال الى حال وكيف ينشر الموتى ويحشرون ثم ذكر ان دار العذاب حد ينتهي اليه اهل الجهالة والجحود فى ذلك اليوم الموعود وان الفوز موعد لاهل الجنة وهم المتقون وانهى الكلام فى تعداد ما اعد لهم بأن ذلك سيكون لهم فى ذلك اليوم ووصفه بوصف آخر لم يسبق وهو ان يقوم فيه الروح والملائكة صفاً الخ عقب ذلك كله بتأكيد ان هذا اليوم حق لا ريبة فى انه يأتى لا محالة فاذا كان هـذا اليوم يوم الجزاء حقاً لاريب فيه ومرجعاً لامفر منه والناس فيه فريقان فريق بعيد عن الله مدحور مآبه النار ودار العذاب وفريق مآبه القرب من الله ومنازل الكرامة فمن كانت له مشيئة صادقة فليتخذ مآباً الى ربه فليعمل عملا صالحاً يقربه منه ويحله محال كرامته

ثم رجع الى تهديد المخاطبين من المعاندين وتحذيرهم عاقبة عنادهم فقال (انا انذرناكم عذاباً قريباً) وهو ما وصفه فيما سبق وقربه لأنهم يجدون منه عقب موتهم فان الروح متى فارقت البدن انكشف لها ماينتظرها ولا تزال فى الم منه الى ان تلاقيه يوم ينظر المرء اعماله حاضرة لديه معروضة عليه وعند ذلك يقول الكافر من شدة مايلقى وهول ما يرى ياليتنى كنت تراباً ويتمنى ان كان جماداً لم يصب حظاً من الحياة

(الانذار) الاخبار بالمكروه قبل وقوعه (والمرء) الانسان ذكراً كان او انثى

سورة النازعات مكية وهي ست واربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا

(والنازعات الخ)

جاء فى الكتاب العزيز ضروب من القسم بالازمنة والامكنة والاشياء والقسم انما يكون بشيء يخشى المقسم اذا حنث فى حلفه به ان يقع تحت المؤاخذة « نعوذ بالله ان يتوهم شيء من هذا فى جانب الله » وما كان الله جل شأنه ليحتاج فى تأكيد اخباره الى القسم بما هو صنع قدرته فليس لشيء فى الوجود قدر اذا نسب الى قدره الذى لا يقدره القادرون بل لا وجود لكائن اذا قيس الى وجوده الا لانه انبسط عليه شعاع من اشعة ظهوره جل شأنه ولهذا قد يسأل السائل عن هذا النوع من تأكيد الخبر الذى اختص به القرآن وكيف يوجد فى كلام الله فيجاب بأنك اذا رجعت الى جميع ما أقسم الله به وجدته اما شيئاً انكره بعض الناس او احتقره لغفلته عن فائدته او ذهل عن موضع العبرة فيه وعمى عن حكمة الله فى خلقه او انعكس عليه الرأى فى امره فاعتقد فيـه غير الحق الذى قرر الله شأنه عليه فيقسم الله به اما لتقرير وجوده فى عقل من ينكره اوتعظيم شأنه فى نفس من يحقره او تنبيه الشعور الى ما فيه عند من لا يذكره او لقلب الاعتقاد فى قلب من اضله الوهم او خانه الفهم فما اقسم الله به يوم القيامة او القرآن مثلا ذلك لتقرير ان الاول واقع لامفر منه وان الثانى كلام الله الحق الذى لاريب فيه ثم يكون فى ذلك تعظيم كليهما الأول لما يكون فيه من سعادة وشقاء ، والثانى لما فيه من الهداية والشفاء لمـا يعرو النفوس من الادواء ومن ذلك النجوم . قوم يحقرونها لانها من جملة عالم المادة ويغفلون عن حكمة الله فيها وما ناط بها من المصالح وآخرون يعتقدونها آلهة تتصرف فى الاكوان السفلية تصرف الرب فى المربوب فيقسم الله بها موصوفة بأوصاف تدل على انها من المخلوقات التى تصرفها القدرة الالهية وليس فيها شيء من صفات الالوهية كما تراه فى مفتتح

فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا

هذه السورة وفى سورة اذا الشمس كورت ثم تشير الى ما نيط بها من المصالح كما سيرد عليك وسترى فيما يساق اليك من هذا التفسير فى السور الآتية ما يرشدك الى تفصيل ما اجملنا هنا ، وهناك امر يجب التنبيه عليه وهو ان من الاديان السابقة على دين الاسلام ما ظن اهله ان هذا الكون الجسمانى وما فيه من نور وظلمة واجرام واعراض انما هو كون مادى لم يشأ الله خلقه الا ليكون حبساً للانفس وفتنة للارواح فمن طلب رضا الله فليعرض عنه وليبعد عن طيباته وليأخذ بدنه بضروب الاعنات والتعذيب واصناف الحرمان وليغمض عينيه عن النظر الى شىء مما يشتمل عليه هذا الكون الفاسد فى زعمه اللهم الا على نية مقته والهروب منه فأقسم الله بكثير من هذه الكائنات ليبين مقدار عنايته بها وانه لا يغضبه من عباده ان يتمتعوا بما متعهم به منها متى ادركوا حكمة الله فى ذلك المتاع ووقفوا عند حدوده فى الانتفاع وقد افتتح الله هذه السورة بأن اقسم ببعض مخلوقاته اظهاراً لعظم شأنها واتقان نظامها وغزارة فوائدها وانها مسخرة له خاضعة لامره ليقعن ما يوعدون مما ذكر فى السورة السابقة وما يذكر فى هذه السورة فى يوم تعظم فيه الاهوال وتضطرب فيه القلوب وتخشع الابصار ويعجب فيه المبعوثون من عودهم الى حياتهم الاولى بعد ان كانوا عظاماً نخرة خالية تمر فيها الرياح ويتحققون حينئذ خسارهم بما انكروا فى هذه الدنيا معادهم فيجابون على تعجبهم هذا بأن لا تحسبوا تلك الكرة الى الحياة صعبة على الله فما الامر عنده الا صيحة واحدة فاذا الناس احياء ظاهرون فى ارض المعاد

(النازعات) من نزع عن القوس رمى عنها (والغرق) هو الاغراق فى النزع اى الاتيان على الغاية منه والنازعات غرقاً هى الكواكب تنزع عن قسى دوائرها ما نراه شهباً ساقطة (والناشطات نشطاً) من نشط ينشط اذا خرج من بلد الى بلد وهى الكواكب تفارق مداراتها وتنقلب من برج الى برج فتختلف اقاليمها وهى (السابحات سبحاً) تتحرك فى الهواء وتسير فى الجواء سيراً سريعاً وهى السيارات من كواكب واقمار وهى (السابقات) فى سبحها فتتم دورتها حول ما تدور عليه فى مدة اسرع مما يتم غيرها كالقمر يتم دورته فى شهر قمرى وكالارض تتم دورتها

فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى

فى سنة شمسية ونحو ذلك من السيارات ومنها مالا يتم دورته الا فى سنين لكن السابقات هي التى انفردت بتدبير بعض الامور الكونية فى عالمنا الارضى كما قال فالمدبرات امراً وليس التدبير الاظهور الأثر فسبق القمر علمنا حساب شهوره وله من الأثر فى السحاب والمطر وفى البحر من المد والجزر ولضيائه ايام امتلائه من الفوائد فى تصريف منافع الناس والحيوان مالا يخفى على ذى بصيرة وسبق الشمس فى ابراجها على مايرى للناظر علمنا حساب شهورها وسبقها الى تتميم دورتها السنوية علمنا حساب السنين من جهة وخالف بين فصول السنة من جهة اخرى واختلاف الفصول من اسباب حياة النبات والحيوان ونسبة التدبير اليها لانها اسباب مانستفيده منها والمدبر الحكيم هو الله جل شأنه (الراجفة) الارض بمن عليها (والرادفة) السماء وما فيها تردفها اى تتبعها فتنشق وتنتثر كواكبها (الواجفة) شديدة الاضطراب (ابصارها خاشعة) اى ذليلة واضاف الابصار الى ضمير القلوب لأنه اراد من وجيف القلوب شدة الخوف الواقع بأربابها فهى كناية عنهم (الحافرة) الحالة الاولى أى الحياة بعد الموت ظنوها حياتهم الاولى يقال رجع فلان فى حافرته اى فى طريقه التى جاء فيها (والنخرة) البالية الجوفاء التى تمر فيها الرياح (والكرة) الواحدة من الكر اى الرجوع (والخاسرة) التى يخسر اربابها ولا يربحون (والزجرة) الصيحة يراد بها النفخة الثانية يبعث بها الاموات (والساهرة) الارض البيضاء سميت بذلك لأن السراب يجرى فيها من قولهم عين ساهرة اى جارية الماء لاينقطع جريانه منها .

(هل أتاك الخ) يريد الله ان يذكر نبيه بدعوة موسى لفرعون وأمر الله لنبيه موسى بالتلطف فى القول واللين فى الدعوة الى الحق موافاة للحكمة واقامة للحجة

إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۝ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ۝ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ

فى الموعظة ثم بما كان من عاقبة الدعوة وعصيان فرعون واستنكافه عن قبولها واخذ الله له وتنكيله به فى الدنيا والآخرة حيث اغرقه وفى الآخرة سيحرقه وفى ذلك تسلية له صلى الله عليه وسلم ووعد له بالفوز كما فاز موسى وفيه وعيد شديد لاولئك الذين كانوا يكذبون ماجاء به من التوحيد ووجوب الايمان باليوم الآخر وانذار لهم بان من اهلك فرعون فى عتوه وجبروته قادر على اهلاكهم .
(الوادى المقدس) واد فى اسفل جبل طورسيناء من برية الشام (وطوى) اما اسم لذلك الوادى او بمعنى مرتين اى الوادى الذى قدس مرة بعد اخرى (وطغى) جاوز الحد فى العدوان على رعيته من بنى اسرائيل وغلا فى الكبر والعظمة حتى ظن انه مظهر الالوهيـة . هل لك الى كذا اى هل ترغب فيه ويقال هل لك فى كذا وهل لك الى كذا بمعنى هل ترغب فيه وترغب اليه (وتزكى) اى تتزكى وتطهر من الشرك وما يتبعه من رذائل الاخلاق وهو استفهام يقصد به العرض والطلب وهو افضل انواعه واوفقها باللطف والادب (واهديك) اى هل تحب ان ادلك على ربك فتؤمن به ومتى آمنت خفته وخشيتـه فان خشية الله انما تكون من العلم قال انما يخشى الله من عباده العلماء ومن خشى الله اتقاه ومن اتقاه امن عقابه (فأراه الآية الكبرى) اى لما لم يقنع بالدليل القولى اظهر له آية ودليلا يراه بعينه وهو انقلاب العصى حية ومع ذلك كذب الداعى وعصى سلطان البرهان (ثم ادبر) اى ترك موسى وانقلب (يسعى) فى مكايدته (فحشر) اى جمع سحرته واعوانه وقام فيهم يقول انا ربكم الاعلى فلا سلطان يعلو سلطانى ولم يزل فى عتوه حتى تبع موسى وقومه الى البحر الاحمر عند خروجهم من مصر فأغرقه الله فى البحر هو وجنوده وهو معنى قوله

فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ۝ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى
أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۝ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا
وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۝ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا

(فأخذه‌الله) ونكال الآخرة والاولى اى ان اخذ الله لم يكن قاصراً على الاغراق فى البحر بل نكل به‌وعذبه عذاب‌الآخرة وهى يوم القيامة‌والاولى وهى هذه الدنيا (ان فى ذلك لعبرة) اى موعظة (لمن يخشى) اى يخاف اى لمن له عقل يتدبر به عواقب الامور ومصايرها فينظر فى حوادث الماضين واحوال الحاضرين ويتعظ بها

(أءنتم اشد خلقا) عود الى‌خطاب اولئك المكذبين‌المغرورين‌لتقريعهم وتسفيه احلامهم فى استبعاد مايوعدون به من‌البعث ومايتبعه او استبطاء اخذ الله‌لهم فى هذه الدنيا مع انه هو الذى انشأهم وخلقهم اول مرة فان كانوا قد غفلوا عن انه هو خالقهم فلينظروا الى السماء والى الارض ليعلموا ان من خلقهما وانشأهما لايصعب عليه خلقهم ولا يسعهم انكار ان خالق السماء‌والارض‌هو الله فكيف ينكرون انه خالقهم وانه القادر على اعادتهم كما بداهم

(اشدخلقاً) اصعب انشاء (بناها) بيان‌لكيفية خلقة السماء والبناء ضم الاجزاء المتفرقة‌بعضها الى‌بعض مع‌ربطها بما يمسكها‌حتى يكون‌عنها بنية واحدة‌وهكذا صنع الله‌بالكواكب‌وضع كلا منها على‌نسبة من الاخر مع‌ما يمسك كلا‌فى‌مداره حتى كان عنها عالم واحد فى النظر سمى باسم واحد وهو السماء التى تعلونا وهو معنى قوله (رفع‌سمكها‌فسواها) والسمك قامة كل‌شىء‌فقد رفع اجرامها‌فوق رؤوسنا(فسواها) عدلها بوضع كل جرم‌فى‌موضعه (اغطش‌الليل) اظلمه‌وغطش الليل اظلم ونسبة‌الليل‌الى‌السماء‌لانه‌يكون‌بمغيب كواكبها(وضحاها)نورها‌وضوء شمسها قال تعالى والشمس وضحاها اى‌ضوئها وتعاقب الليل والنهار واختلاف الفصول التابع لحركة بعض السيارات يهيىء الارض للسكنى وهو معنى قوله (والارض بعد ذلك) تسوية السماء على الوجه السابق وابراز الاضواء(دحاها)

أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى

أى مهدها وجعلها قابلة للسكنى وذلك بأن (أخرج منها ماءها) بتفجير الينابيع والعيون والأنهار (ومرعاها) أى رعيها وهو النبات الذى يأكل منه الناس والدواب وتثبيت الجبال وجعلها مانعة من اضطراب الأرض من تتمة التمهيد واعداد الأرض لسكنى الأحياء وهو متأخر عن الاستعداد الأول لانبات النبات وان كان بروز الجبال سابقاً على ذلك وقد جعل الله ذلك كله ليتمتع به الناس والأنعام أفلا يكون صانع ذلك كله هو صانعكم أفلا يكون خالقكم وواهبكم مابه تحيون ورافع السماء فوقكم وممهد الأرض تحتكم قادراً على بعثكم وهل يليق به أن يترككم سدى بعد أن دبركم هذا التدبير ووفر لكم هذا الخير الكثير .

(فاذا جاءت الخ) لما تبين أنه القادر على نشر الأموات كما قدر على خلق الاكوان تبين صدق ماأوحى به الى نبيه من أن ذلك اليوم الذى يقوم فيه الناس لرب العالمين لابد منه فاذا جاءت طامته الكبرى التى تفوق كل طامة ووقت مجيئها هو ذلك اليوم الذى تعرض فيه الاعمال على العاملين فيتذكر كل سعيه وعمله يوم يظهر الله فيه الجحيم ودار العذاب للعيان فيراها كل من له بصر . فى ذلك اليوم يوزع الجزاء على الأعمال (فأما من طغى) وجاوز حدود الله المضروبة فى أحكامه وفضل لذائذ الحياة الدنيا على ثواب الآخرة فدار العذاب مأواه ومستقره وأما من عرف بسطة السلطان الالهى نخاف ذلك الجلال الرفيع وزجر نفسه عن هواها الباطل الذى يميل بها الى اتباع الشهوات فالجنة مأواه فعلى هذا يكون جواب اذا محذوفاً للايجاز دل عليه التقسيم فى قوله فأما من طغى وتقديره وزع الجزاء على العمل فأما الخ

(الطامة الكبرى) الداهية التى تطم على الدواهى أى تغلب وتعلو

وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ۝ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۝ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ۝ إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ۝ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ۝ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا

(مقام ربه) يراد منه جلاله وعظمته والا فهو منزه عن المقام والقيام (المأوى) فى الموضعين هو المستقر والمقام والتعريف اشارة الى أنه معلوم لاشبهة فيه (يسألونك عن الساعة الخ) كان أهل العناد من قريش يعنتون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسؤال عن وقت الساعة ومتى يقيمها الله فكان النبي يردد فى نفسه مايقولون ويتمنى لو أمكن الجواب عما يسألون كما هو شأن الحريص على الهداية الجاهد فى الاقناع فنهاه الله عن تمنى مالا يرجى وجاء بالنهى فى صورة الاستفهام الانكارى حيث قال فيم أنت من ذكراها أى ماهذه الذكرى الدائمة لست فى شيء منها أى لاحاجة لك بها فان علم ذلك ينتهى الى ربك وانما شأنك أن تنذر من يخافها فتنبهه من غفلته حتى يستعد لما يلقاه يومها أما هؤلاء المعاندون فدعهم فانهم لايعقلون ولا تشتغل بالجواب عما يسألون فاذا جاءت الساعة ذهبت صورة كل زمان مضى من أذهانهم سواء طال أو قصر فحسبوا أنهم لم يلبثوا من يوم خلقوا الى يوم بعثوا الا عشية أو ضحاها أى طرفاً من أطراف النهار لانهاراً كاملا وذلك لمفاجأتها لهم على غير استعداد لتوقعها

(الساعة) ساعة يبعث الناس وهى يوم القيامة (أيان مرساها) أى متى ارساؤها أى اقامتها ومتى حصولها (فيم أنت) أى فى أى شيء أنت من مداومة تذكرها أو فى أى شيء أنت من ذكرها لهم واخبارهم بوقتها أى لست فى شيء من هذا أى ليس من شأنك أن تذكر لهم من خبرها شيأ سوى أنك تنذر من يخافها (والعشية) طرف النهار من آخره (والضحى) طرفه من أوله واضافة الضحى الى ضمير العشية اشارة الى أن العشية والضحى من يوم واحد فهم يحسبون أنهم لم يلبثوا الا بعض يوم واحد كما قال لم يلبثوا الا ساعة من نهار واللبث الاقامة.

سورة عبس مكية وهي اثنتان وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

نزلت هذه السورة فى ابن أم مكتوم وهو ابن خال خديجة رضي الله عنها قيل اسمه عمرو بن قيس وقيل عبد الله بن عمرو وقيل عبد الله بن شريح بن مالك والأول أشهر كما جاء فى جامع الأصول وأم مكتوم لقب أمه واسمها عاتكة بنت عبد الله المخزومية وكان أعمى قيل ولد كذلك وقيل عمى بعد بصر وهو من المهاجرين الأولين واستخلفه صلى الله عليه وسلم على المدينة يصلى بالناس مراراً وكان يؤذن بعد بلال . أتى الى النبي صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ومعه صناديد قريش عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة يدعوهم الى الاسلام رجاء أن يسلم باسلامهم غيرهم فقال ابن أم مكتوم يارسول الله أقرئني وعلمنى مما علمك الله وكرر ذلك وهو لايعلم تشاغله صلى الله عليه وسلم بالقوم فكره الرسول قطعه لكلامه فظهرت الكراهة فى وجهه فعبس وأعرض عنه فنزلت الآيات .

يذكر الله نبيه فى صورة عتاب بأن ضعف ذلك الأعمى وفقره لايصح أن يكون حاملا على كراهة كلامه والاعراض عنه فانه حي القلب ذكى الفؤاد اذا سمع الحكمة وعاها فيتطهر بها من أوضار الآثام وتصنو بها نفسه من كدر الوساوس أو يذكر بها ويتعظ فتنفعه العظة فى مستقبل أمره فلا يقع فى مأثم أما أولئك الأغنياء الأقوياء فأكثرهم الجحدة الأغبياء فلا ينبغى الانصراف اليهم والتصدى لهم لمجرد الطمع فى اقبالهم على الامر يرجون فيه فيتبعهم غيرهم فان قوة الانسان فى حياة قلبه وذكاء لبه والاذعان للحق اذا ظهر والانقياد للدليل اذا بهر أما المال والنشب والعصبة والنسب والحشم والأعوان والاكاليل والتيجان فهى عوارى تغدو وترحل وتقر حيناً ثم تنتقل فكأنه يقول ياأيها النبي ان أقبلت فأقبل على العقل الذكى والقلب النقى وإياك أن تنصرف عنه الى ذى الجاه القوى والمكان العلى فذلك انسان بنفسه حى بطبعه وهذا غائب عن حسه معدوم بذاته موجود بجمعه وفى ذلك من تأديب الله لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ما لو تأدبوا به لكانوا اليوم أرشد الأمم هداهم الله

عَبَسَ وَتَوَلَّى أَن جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى

(العبوس) معروف المعنى (وتولى) أعرض (أن جاءه) أى لأجل أن جاءه أى كان عبوسه واعراضه لأجل أن الأعمى جاءه وقطع كلامه (ومايدريك) أى وأى شيء يعرفك بحال هذا الاعمى وأنه مستعد لأن يتطهر بما تعلمه من أحكام الله (أو يتذكر) منها ماغفل عنه فيتعظ بوعظك (فتنفعه) هذه (الذكرى) وتلك الموعظة وذكر خبر العبوس والتولى بالحكاية عن الغائب ليلفته الى النظر فى العمل فى ذاته صادراً من أى شخص نسب اليه ثم أقبل عليه بالخطاب بعد هذا الاستدعاء تشديداً فى العتاب ثم بعد ذلك حصر شأنه فى تلك الحادثة فى أمرين ذكرهما بقوله (أمامن استغنى الخ) أى أن ماصدر منك كان هكذا على التفصيل الذى سيذكر (أما من استغنى) بماله وقوته عن سماع القرآن (فأنت له تصدى) أى تتعرض بالاقبال عليه مع أنك رسول وما عليك الا البلاغ فان كان المغرور قد ظن فى ماله غنى عن هداية الله ورضى لنفسه أن يبقى فى دنس الكفر فما عليك عيب فى بقائه كذلك وأن لا يتطهر من درن الغرور ووسخ الجهالة (وأمامن جاءك يسعى) اليك طالباً للهداية (وهو يخشى الله ويخاف من الغواية وما دفعه اليك الا حبه لأن يتطهر من الجهل ويستضىء بضياء العلم وخوفه الوقوع فى ظلمات الضلالة فأنت تتلهى عنه وتتغافل عن اجابته الى طلبته .

ثم أراد أن يبين أن الهداية التى يسوقها الله الى البشر على ألسن الرسل ليست مما يحتال لتقريره فى النفوس وايجاده فى القلوب وانما هى تذكرة تنبه الغافل الى ما غرز الله فى فطرته من الخير وأودعه غريزته من وجدان معرفة الخالق فى الخلقة فمن صد عنها فانما هو معاند مقاوم لما يدعوه اليه سره وتنزع به اليه

كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ

تفسه فما عليك الا أن تبلغ ما عرفت عن ربك لتذكر به الناسى وتنبه الغافل. أما أن تحابى القوى المعاند ظناً منك أن مداجاته ترده عن عناده فذلك ليس من عملك فذكر ان نفعت الذكرى .

(كلا) حرف ردع للزجر عن التصدى للمستغنى والتلهى عن المستهدى وعلل الزجر بقوله (انها) أى الهداية المودعة فى الكتب الالهية وأجلها القرآن والضمير فى « من شاء ذكره » يعود الى الله تعالى لأن أعظم الهداية أن يذكر وحده لاشريك له ولظهور الدليل وشعور الوجدان لايتوقف ذكره ومعرفته سبحانه الاعلى مشيئة الذاكر بعد التذكير فتى وردت التذكرة نبهت وجدانه ولا يمنعه عن الاهتداء الا عدم المشيئة بالعناد ثم قال تلك الهداية (فى صحف مكرمة) وهى صحف الكتب الالهية (مرفوعة) أى عالية شريفة (مطهرة) من النقص والضلالة (بأيدى سفرة) جمع سافر وهو من يسفر بين الناس بالصلح والسلام وهم الملائكة أو الانبياء عليهم الصلاة والسلام ومعنى كون الكتب بأيدى الملائكة ان الملائكة هم الواسطة فى حملها الى الانبياء ومعنى كونها بأيدى الانبياء انها تنزل بالوحى عليهم وهم يبلغونها للناس وكل من الملائكة والانبياء يصح اطلاق اسم السفير عليه كما صح اطلاق اسم الرسول على كل منهم (والبررة) جمع بار وهو صانع البر والخير .

ثم اراد ان يزيدنا بياناً ويوضح لنا ان معرفة الله وتوحيده ليسا من العقائد التى يلزم ان تنشأ فى القلوب بل هما مركوزتان فى الجبلة ولا تحتاجان الا الى التذكير فاذا ذكرت النفس ذكرت ولا يمنعها عن الاعتراف والاقرار الا منازعة الهوى فاذا خالفت سلطانه لم يكن بينها وبين الاقرار الا ان تشاءه فقال (قتل الانسان ما اكفره) دعاء على الانسان بأشنع دعواتهم على ما هو المعروف فى لسانهم وهو كناية عن قبح حاله وانه قد بلغ منه مبلغاً لا يستحق معه ان يبقى حياً ومنشأ

مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ۝ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۝
ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ۝ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ۝ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ۝

الشناعة ومناطها نسيانه لما يتقلب فيه من النعم وذهوله عن مسديها حتى اذا ذكر به فهو يعرض عن الذكرى فما أشد كفره باحسان من غمره فى نعمته من مبدأ ايجاده الى ساعة ميعاده انظر من أى شىء خلقه (من نطفة) أى ماء لا حياة فيه (فقدره) فقد أنشأ بدنه من ذلك الماء فى أطوار مختلفة كما بينه فى آيات أخر وقدره بمقداره فأتم خلقه بأعضاء متناسبة تلائم حاجاته مدة بقائه وأودع فيه من القوى ما يمكنه من استعمال تلك الأعضاء وتصريفها فيما خلقت له وجعل كل ذلك بمقدار محدود على حسب ما يقتضيه كمال نوعه ثم بعد أن قدره هذا التقدير وأكمل بدنه على هذا المقياس الخاص بنوعه وهبه العقل الذى يقود تلك القوى عند تصريفها للاعضاء وبالعقل قد يسره سبيل الخير وأوضح له جادة الرشاد (ثم أماته) فلم يتركه كما يميت سائر الحيوان لكنه قد تفضل عليه (فأقبره) أى جعل له قبراً يوارى فيه تكرمة له ولم يجعل فى غريزة الانسان أن يترك ميته مطروحا على الارض جزراً للسباع هـذا ما يراه الانسان من نعم ربه عليه فى نفسه ولا ريب أن سليم الفطرة لا يحتاج فى الاذعان به الا الى مجرد التذكير . ثم أن الله سبحانه أتبع هذه النعم المرئية الدالة على قدرته ووحدانيته بأمر البعث والنشور وجاء به كأنه من المشهودات التى ينبغى للانسان أن يعتبر بها ليشير الى أن الحياة الآخرة مما ركز الشعور به فى الطباع كذلك وان لم يدرك كنهه ولم يوقف على تفصيل حقيقته وقوله (اذا شاء أنشره) أى أنه ينشره ويبعثه بعد موته واقباره فى الوقت الذى يريد أن يبعثه فيه .

ثم أخذ يؤكد ما دل عليه قوله قتل الانسان ما أكفره فقال (كلا) اى حقاً ان الانسان قد بلغ فى كفره بالنعمة الالهية مبلغاً يقضى بالعجب فانه بعد ما رأى فى نفسه مما عددناه من آيات ربه وبعد أن مضى على نوعه تلك السنون الطوال فى الارض وهو يتقلب فى أدوار وأطوار يشاهد فيها من جلائل الآثار ما يحرك الأنظار ويسير بها الى الصواب من الآراء والصحيح من الافكار بعد هـذا كله

فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ۝ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۝ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا

لا يزال اذا ذكر لايذكر واذا انعم عليه لا يشكر فهو الى الآن لم يقض ما امره الله به سواء كان الامر بالالهام وهداية الفطر بما اشهده فى نفسه من دلائل القدرة وعلائم الاحسان والنعمة او كان بالوحي على السنة الانبياء والمرسلين فان الله لم يدع الانسان منذ زمان طويل سدى ولم يهمله من ارسال الهداة اثر الهداة غير ان الانسان فى ضلاله وانقياده للاهواء الفاسدة لم يقض شيئاً مما امره الله به وكيف يكون قد قضى شيئاً من ذلك وهو لايزال فى غفلة عنه يدعو معه غيره ويشرك فى الاستعانة سواه ويأتى من فظائع الاعمال ما لا يرضاه فان زعم الانسان انه لم يشهد خلق نفسه ورمى عينيه بالعمى عما فى بدنه وعقله بالغباوة عما فى ذاته وعما كان من امرها فى بدايتها ونهايتها وعلل هواه فى الغواية بأن شيئاً مما فى خلقه لايقوم دليلا على وحدانية خالقه وانفراده بالاحسان اليه لانه لم يشهد تلك النشأة ان خطر ذلك ببال احد من افراد الانسان (فلينظر) الى ما بين يديه من اقرب الاشياء اليه (الى طعامه) الذى يقيم بنيته ويجد لذته ويحفظ به منته ماذا صنعنا فى احداثه وتهيئته لأن يكون غذاء صالحاً (أنا صببنا الماء) من المزن (صباً) شديداً ظاهراً (ثم) بعد ان كانت الارض رتقاً متماسكة الاجزاء شققناها شقاً مرئياً مشهوداً كما تراه فى الارض بعد الرى او شققناها بالكراب على البقر بايدى الانسان والكراب قلب الارض للحرث وشق الارض سواء كان بالحرث او بغيره ليدخل الهواء والضياء فى جوفها فيحلل أجزائها ويهيئها لتغذية النبات فينبت فيها وقيل المراد شق الارض بالنبات كأنه قال ثم شققنا الارض شقاً بالنبات ثم فصل النبات فقال (فأنبتنا فيها حباًالخ) ولا بأس به ايضاً ولما كان مرجع كل موجود الى مصدر الوجود وهو الذى سبب الاسباب وقدر الأفعال وأقدر عليها كان اسناد الصب والشق اليه صحيحاً على كل حال كاسناد الانبات (والحب) كل ما حصد من نحو الحنطة والشعير وغيرهما

وَقَضْبًا ۝ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۝ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا

(والقضب) الرطبة وهو ما أكل من النبات غضا وسمى قضبا لأنه يقضب أى يقطع مرة بعد أخرى (والزيتون والنخل) معروفان لكل عربى (والحدائق) جمع حديقة وهى البساتين ذات الاشجار المثمرة عليها حوائط تحيط بها (وغلبا) جمع غلباء بالمد أى ضخمة عظيمة وعظم الحدائق بكثرة أشجارها والتفافها وقد يكون العظم فى نفس الأشجار بأن تكون كل شجرة غليظة عظيمة وذكر الحدائق بوصفها ذلك لبيان أن النعمة فيما تشتمل عليه الحدائق برمته فالنعمة فى الأشجار بجملتها لا فى ثمرها خاصة فمن أخشابها ما ينفع للاحراق فى تدبير الطعام ومن أوراقها ما تأكله الحيوانات ومن النعمة فى الحدائق أنواع النبات مما يأكله الناس وترعاه الماشيه وانما تدخل ثمار الأشجار فى الفاكهه تبعا ثم خصص الفاكهة بالذكر بعد ذلك لأنها مما يتمتع به الانسان خاصة فقال (وفاكهة) ثم ذكر الأب لأنه مما ينفع الحيوان خاصة بقوله (وأبا) والأب المرعى لأنه يؤب أى يؤم وينتجع روى أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه سئل عن الاب فقال أى سماء تظلنى وأى ارض تقلنى اذا قلت فى كتاب الله مالا علم لى به وعن عمر رضى الله عنه أنه قرأ هذه الآية فقال « كل هذا قد عرفنا فما الأب » ثم رفض عصا كانت بيده اى كسرها غضباً على نفسه وقال « هذا لعمر الله التكلف وما عليك يا ابن أم عمر ان لاتدرى ما الأب» ثم قال «اتبعوا ماتبين لكم من هذا الكتاب ومالا فدعوه » اذا سمعت هذه الروايات فلا تظن ان سيدنا عمر بن الخطاب ينهى عن تتبع معانى القرآن والبحث عن مشكلاته ولكنه يريد ان يعلمك ان الذى عليك من حيث انت مؤمن انما هو فهم جملة المعنى فالمطلوب منك فى هذه الآيات هو أن تعلم ان الله يمن عليك بنعم أسداها اليك فى نفسك وتقويم حياتك وجعلها متاعاً لك ولأنعامك فاذا جاء فى سردها لفظ لم تفهمه لم يكن من جد المؤمن أن ينقطع لطلب هذا المعنى بعد فهم المراد من ذكره بل الواجب على اهل الجد والعزيمة ان يعتبروا بتعداد النعم وان يجعلوا معظم همهم الشكر والعمل هكذا كان شأن الصحابة رضى الله عنهم ثم خلف من بعدهم خلف وقفوا عند الالفاظ

مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ۝ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ۝ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۝ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝

وجعلوها شغلا شاغلا لايهمهم الا التشدق بتصريفها وتأويلها وتحميلها مالا تحتمله وقد تركوا قلوبهم خالية من الفكر والذكر واعضاءهم معطلة عن العمل الصالح والشكر (متاعاً لكم) اما مفعول له أى فعل ذلك تمتيعاً لكم أو مصدر حذف فعله وجرد من الزوائد اى متعكم بذلك متاعاً والمعنى على كل حال ان فيما عدده ما يأكله وينتفع به الانسان ومنه ما يأكله الحيوان والأنعام الماشيه وكل ما ينتفع به الانسان من الحيوان .

(الصخ) الضرب بالحديد على الحديد والعصا الصلبة على شيء مصمت وصخ الصخرة وصخيخها صوتها اذا ضربتها بحجر أو غيره والصاخة هنا كالقارعة فى سورتها هى الحادثة العظمى التى عبر عنها بالطامة الكبرى يكون نذيرها ذلك الصوت الهائل الذى يحدث من تخريب الكون ووقع بعض اجرامه على بعض ولكون هذه الحادثة تأتى بذلك الصوت المفزع سميت صاخة وقارعة أو انها سميت صاخة لأنها بما تأتى به من ذلك الصوت تصخ الآذان أى تصمها يقال صخ الصوت الاذن يصخها صخاً فلاتسمع النفوس شيئا فى ذلك الوقت الا ماتنادى به وتدعى الى الحياة والنشور وهذه الاسماء كلها أسماء للقيامة العظمى يوم ينكشف للارواح مشهد الجبروت الاعظم فيشغل كل نفس ما يصيبها من هيبة الجلال الالهى وتود لو نجت بنفسها فهى تفر من كل من تتوهم انه يتعلق بها ويطلب معونتها على ماهو فيه فيتوارى كل امرىء من أخيه بل من أمه وأبيه بل من صاحبته التى هى الصق الناس به وقد يبذل فى الدفاع عنها حياته لو مكن من ذلك ويفر من بنيه وكان فى الدنيا يفديهم بماله وروحه ذلك كله لان لكل واحد مما يجد من الرعب ومايرهب من الهول وما يخشى من مناقشة الحساب شأنا يغنيه أى يكفى لصرف جميع قواه

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ

فليس عنده فضل فكر وقوة يعد بها غيره وجواب اذا فى قوله فاذا جاءت الصاخة محذوف ليذهب الفكر فيه مذاهبه ويستورد منه على النفس غرائبه كانه يقول قتل الانسان ما أكفره بنعمة ربه هذه نفسه لم يشرق عليها نور الوجود الا من فيض الوجود وهذا طعامه وما يقيم حياته الى الاجل المحدود انما يساق اليه بتدبير الشكور الودود ومع ذلك فقد ضربت الغفلة بينه وبين ربه حجابا فهو اذا ذكر لا يتذكر واذا عرض عليه الدليل لا يتفكر وربما جهل قدره فشمخ واستكبر وظن أنه القوى فلا يغلب والعزيز فلا يقهر فاذا ذهبت هذه الحياة الدنيا وجاءت الطامة الكبرى فى ذلك اليوم العظيم فماذا يكون شأن ذلك الانسان هل يبقى فى غفلته وهل يجد فى نفسه شيأ من عظمته أو فما أعظم أسفه وما أشد ندمه او انجلت أوهامه وبطلت ظنونه أو ما يشبه ذلك مما فيه تهويل عليه أو تقريع له .

(الوجوه المسفرة) المضيئة المتهللة الضاحكة (المستبشرة) التى يظهر عليها الفرح والسرور لما تجد من برد اليقين بأنها ستوفى ما وعدت به جزاء ايمانها وما قدمت من صالح أعمال وشكر آلاء ونعم تلك الوجوه هى وجوه الذين آمنوا وعملوا الصالحات أما الوجوه الأخر وهى التى (عليها غبرة) أى يعلوها الغبار (وترهقها قترة) أى يغشاها سواد وقد يكون الغبار والسواد على حقيقتهما تمييزا لهم بأردأ الحالات وقد يكون الغبار غبار الذل والسواد سواد الغم والحزن وهو ما يقابل الاسفار والاستبشار تلك الوجوه هى وجوه الكفرة الذين لا يؤمنون بالله وبما جاء به أنبياؤه (الفجرة) الذين خرجوا عن حدود شرائعه واقترفوا السيآت فى حياتهم الدنيا نسأل الله ان يعاملنا بلطفه ورحمته ويجنبنا التعرض لغضبه ونقمته .

وقوله وجوه يومئذ الخ ابتداء كلام لبيان حال الناس يوم يأتى الله بذلك الحادث العظيم حادث الانقلاب فى نظام الكون العام أو نظام الحياة الانسانية فينشأ

الناس نشأة اخرى ينكشف لهم فيها ما كان قد انبهم عليهم فى حياتهم الاولى ويتبين لهم من الامر ما كانوا فيه يختصمون ويأتيهم اليقين بما كانوا فيه يمترون فمن كان فى هذه الحياة الدنيا طلابا للحق نظاراً فى الدليل لا تحجبه عن الاعتبار غفلة ولا تأخذه عن الحق اذا ذكر به انفة ولا تنفره منه عادة ولا تباعده عنه الفة فهو لا يعقد لنفسه عقيدة الا بعد تقريرها على المقدمات الصحيحة المستمدة من حكم البديهة ليس فيها رأى فلان او قيل سابق فى زمان الا قول رسول كريم قامت على عصمته براهين يقبلها العقل السليم ويؤيدها الذكر الحكيم ثم أخذ نفسه بالعمل على ما يطابق عقيدته فهو كما يعتقد بالحق يعمل للحق من كان هذا شأنه فى حياته هذه فما الذى يلاقيه اذا جاءت الصاخة يوم ينكشف الحجاب ويزول الارتياب ما كان قد ايقن به فى حياته الدنيا يشهد بالعيان انه هو فيطمئن الى ما عرف وتسكن نفسه الى ما ألف وما كان لا يزال فى طلبه والبحث فى الادلة للوقوف عليه وادركه الموت قبل الوصول اليه ظهر ما كان يطلب منه حاضراً بين يديه فيفرح به فرح المحب يلتقى محبوبه والراغب الحريص يصادف مرغوبه وفى الحالين يتهلل وجهه ويسفر ويضحك ويستبشر

واما من احتقر عقله ورضى جهله وصرفه عن الدليل ما أخذه عن آبائه وتلقاه عن سلفه ورؤسائه وشغل نفسه بالجدال والمراء فى تصحيح الاهواء والتماس الحيل لتقرير الباطل وترويج الفاسد كما كان يفعل اعداء الانبياء ولا يزال يأتيه السفهاء لينصروا به اهواء الاغبياء ثم يتبع ذلك بأعمال تطابق ما يهوى وتخالف ما يزعم . يزعم الغيرة على الدين ولا تجد عملا من اعماله ينطبق على أصل قرره الدين. الدين ينهى عن الفواحش وهو يقترفها . الدين يأمر بصيانة مصالح العامة وهو يفتك بها. الدين يطالب أهله ببذل المال فى سبل الخير وهو يساب المال ليكنزه فان اتفق منه شيأ صرفه فى سبل الشر . الدين يأمر بالعدل وهو أظلم الظالمين. الدين يأمر بالصدق وهو يكذب ويحب الكاذبين من كان هذا شأنه فماذا يكون حاله يوم يتجلى الجبار ويرتفع الستار يجد كل شيء على خلاف ما كان يعرفه يجد الحق غير ما كان يعتقد يجد ان الباطل هو ما كان يعتمد يتحقق ان ما كان يظنه من العمل خيرا لنفسه صار وبالا عليها يرى الخبث حشو اعماله والخيبة حاف آماله فيملك الهم نفسه لشر ما يتوقع ويظهر أثر ذلك على وجهه فتعلوه الغبرة وتغشاه القترة لانه من الكفرة الفجرة

سورة التكوير مكية وهي تسع وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ

ابتدأ سبحانه بذكر يوم القيامة بما يكون فيه من الحوادث ليعظم شأنه ويفخم هوله ويقول فى ذلك اليوم تعلم كل نفس ما أحضرته من أعمالها أى يتبين لها ما كان منها من خير أو شر ويذهب الالتباس الذى كان يغر المغرورين وينكشف الغطاء عن تلبيس المرائين من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره والحوادث التى تقع من أول يوم القيامة الى ساعة الحساب على ما هو مذكور فى هذه السورة هى أولا تكوير الشمس وتكويرها دهورتها وسقوطها وذلك عند خراب العالم الذى يعيش فيه الحى حياته الدنيا فان عالمه الآخر الذى ينقلب اليه لا يبقى فيه شيء من هذه الاجرام فالشمس تسقط ويمحى ضوءها وثانيا انكدار النجوم وهو تناثرها وانقضاضها حتى تذهب ويمحى لألاؤها يقال انكدر عليهم القوم اذا جاؤا أرسالا حتى ينصبوا عليهم وتسيير الجبال يكون عند الرجفة التى تزلزل الارض فتقطع أوصالها وتفصل منها أجبالها فتسير مقذوفة فى الفضاء وقد تمر على الرؤس مر السحاب وهذه الحوادث تقع متى جاء الاجل واقتضت الحكمة الالهية أن تخرب الارض ويتبدل نظام هذا الكون الحاضر بالنظام الذى يستقر عليه أمره بعد ذلك الاضطراب ولا ريب فى أنه اذا كورت الشمس وتناثرت الكواكب وأرجفت الارض حتى انفصلت عنها جبالها كان الخوف عظيما والرعب عميما فمن كان حيا اذ ذاك غشيه من أمر نفسه ما يذهله عن أفضل ماله لديه فتعطل (العشار) وهى جمع عشراء بضم العين وفتح الشين وهى

وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ

النياق اذا مضى على حملها عشرة أشهر حتى تلد وهى أكرم مال كان عند المخاطبين فيهملونها ويدعونها تذهب حيث شاءت لعظم الهول وشدة الكرب قيل ان تعطيل العشار حقيقى لانه حكاية الحال فى بداية الخراب والناس والحيوان لا يزالون احياء فيصيبهم ما يصيبهم ثم يهلكون ويدل عليه قوله بعد ذلك (واذا الوحوش حشرت) وحشر الوحوش اما جمعها لاستيلاء الرعب عليها وخروجها من أحجارها وأوكارها ونسيانها ما كانت تخافه فتفر منه فتحشر هائمة لا يخشي بعضها بعضاً ولا يخشى جميعها سطوة الانسان وقيل حشر الوحوش موتها وهلاكها يقال اذا أجحفت السنة بالقحط والجدب وأضرت بالناس حشرتهم السنة أى أهلكتهم وهلاكها من هول ذلك الحادث الاعظم وقال القرطبى ان تعطيل العشار تمثيل لشدة الكرب والا فلا عشار ولا تعطيل كأنه قال بعد ذكر ماسبق من تكوير الشمس وانكدار النجوم وتسيير الجبال « وكان من هول هذه الحوادث ما يصرف حاضرها عن أكرم الاشياء عليه حتى لو كان عنده عشار لعطلها وأهملها » وقد قيل فى حشر الوحوش انه جمعها يوم القيامة للحساب وهو ضعيف بعيد لان الكلام الآن فى حوادث التخريب قبل البعث بالفعل وأول الكلام فى البعث قوله واذا النفوس زوجت أما تسجير البحار فهو أن يفجر الزلزال ما بينها حتى تختلط وتعود بحراً واحدا وهو بمعنى الملء فان كل واحد منها يمتلىء حتى يفيض ويختلط بالآخر وتسجير البحار على هذا المعنى لازم لما سبقه من تقطع أوصال الارض وانفصال الجبال ويدل على رجحان هذا التأويل ظاهر قوله تعالى فى سورة الانفطار واذا البحار فجرت وقد يكون تسجيرها اضرامها نارا فان مافى بطن الارض من النار يظهر اذ ذاك بتشققها وتمزق طبقاتها العليا أما الماء فيذهب عند ذلك بخارا ولا يبقى فى البحار الا النار أما كون باطن الارض يحتوى على نار فقد ورد به بعض الاخبار ورد أن البحر غطاء جهنم وان لم يعرف فى صحيحها ولكن البحث العلمى أثبت ذلك ويشهد عليه غليان البراكين وهى جبال النار كما تشهد عليه الزلازل الشديدة التى تشق الارض والجبال فى بعض الاطراف كما وقع فى (جاوا) من عدة سنوات فان آثار النار فى بطن الارض قد ظهرت فيها ظهوراً لا شبهة

وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۝ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ

تطرأ على الذهن بعده وبعد أن عدد مايحدث من مقدمات الفناء وبطلان الحياة فى الارض وامتناع المعيشة فيها أخذ يذكر ما يكون بعد ذلك من البعث والنشور ومايأتى بعده فقال (واذا النفوس زوجت) أى زوجت الارواح بأبدانها وهى النشأة الآخرة وفى الآية مايشعر بأن النفوس كانت باقية من يوم الموت المعتاد الى يوم المعاد وانما تزوج بالبدن بعد أن كانت منفردة عنه وبعد البعث يكون الشروع فى الحساب ومنه أن يؤتى بالموؤدة فتسأل بين يدى وائدها عن السبب الذى قتلت لأجله ليكون الجواب أشد وقعاً على الوائد فأنها ستجيب أنها قتلت بلا ذنب جنته وذلك أن الوأد هو دفن البنت فى صغرها حية وكان عادة من أشنع العوائد فاشية فى العرب أيام الجاهلية وكان لهم فى ذلك تفنن فنهم من كان اذا ولدت له بنت وأراد أن يستحييها ولا يقتلها أمسكها مهانة الى أن تقدر على الرعى ثم ألبسها جبة من صوف أو شعر وأرسلها فى البادية ترعى له ابله وان أراد أن يقتلها تركها حتى اذا كانت سداسية قال لأمها طيبيها وزينيها حتى أذهب بها الى أحمائها وقد حفر لها بئراً فى الصحراء فيبلغ بها البئر فيقول لها انظرى فيها ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى تستوى البئر بالارض وعند بعضهم كانت الوالدة اذا جاءها المخاض حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة فاذا ولدت بنتاً رمت بها فيهاوان ولدت ابناً حبسته فانظر الى هذه القسوة وغلظ القلب وقتل البنات البريئات بغير ذنب سوى خوف الفقر أو العار كيف استبدلت بالرحمة والرأفة بعد أن خالط الاسلام قلوب العرب فما أعظم نعمة الاسلام على الانسانية بأسرها بمحوه هذه العادة القبيحة .

الصحف التى تنشر يوم القيامه بعد البعث هى صحف الاعمال والذى يجب علينا اعتقاده أن أعمال العباد تظهر لهم ثابتة مبينة لايرتابون فيها يوم الجزاء ويعبر عن معنى ذلك الثبوت والبيان بنشر صحف الاعمال أما كون الصحف على مثال الاوراق التى نكتب عليها فى الدنيا أو على مثال الالواح أومايشبه ذلك مما جرى

وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ۝ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ

استعماله للكتابة عليه فذلك مما لم يصل علمنا اليه ولن يصل اليه بمجرد العقل ولم يرو عن المعصوم صلى الله عليه وسلم فيه نص قاطع (وكشط السماء) ازالتها كما يكشط الجلد عن الذبيحة أى واذا السماء كشطت وطويت ولم يبق هناك شيء يسمى سماء أو غطاء وهذا انما يكون بخلو ذلك العالم الجديد من الكواكب بل بخلوه مما يطلق عليه فى الدنيا اسم الاعلى والاسفل (والجحيم) جهنم التى يعاقب بالعذاب فيها أهل الكفر والطغيان وتسعيرها ايقادها ايقاداً شديداً والواجب على المؤمن أن يعلم أن هناك ناراً للعذاب اسمها جهنم وانها تسعر وتوقد على المعنى الذى يريده الله أى أن ألم من قضى عليه بالدخول فيها من أشد الآلام التى تحدث عن امساس النيران للاجسام الحية أما كون الايقاد بالحطب أو الفحم الحجرى أو الخشبى أو ما أشبه ذلك مما هو معروف عندنا فى حياتنا هذه فذلك غير واجب أن يعتقد به . (وازلاف الجنة) ادناؤها وتقريبها من المتقين كقوله تعالى وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد والجنة دار الثواب كما هو معروف وقوله (علمت نفس ما أحضرت) جواب لجميع ما سبق من الشروط والمقصود كما قدمنا أن ذلك يكون يوم القيامة وهو ممتد من تكوير الشمس وما بعده الى أن يرى أهل الجنة الجنة واهل النار النار وليس يلزم من ذلك أن علم النفس بما جاءت به من أعمالها يبتدىء من أول جزء منه بل انما يكون بعد البعث ونشر الصحف وقد أورد الجواب على هذا الاسلوب ولم يأت بلفظ يفيد التعميم كقوله تعالى يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وان كان المعنى هرنا عليه ليفيد ما أراده من وجه أبلغ على ماجرت به عادتهم فى الخطاب عند ارادة التهويل فان التقليل فى مقام التهويل انما يؤتى به للمبالغة فى التكثير كما فى قوله تعالى ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ومعناه المقصود كم يود وكما يقول قائد لمن سأله كم عندك من الفرسان رب فارس عندى أو لا تعدم عندى فارساً وهو يريد ان ماعنده من الفرسان كثيراً لا يحصيه ولا يريد أن يتزيد به .

فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ

فان قال قائل لم جيء بذكر كشط السماء بعد ذكر البعث ونشر الصحف وشيء من الحساب وقبل ذكر تسعير الجحيم وازلاف الجنة وكان من حق كشط السماء أن يذكر فى حوادث التخريب بعد انكدار النجوم قلنا هذا يدل على أن كشط السماء ههنا لا يقصد منه تخريب العالم العلوى كما قال يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب فان هذا قد تقدم فى تكوير الشمس وانكدار النجوم وانما يقصد الغطاء والحجاب الذى يعلوك فلا تبصر ما وراءه وقد فصل فى هذه السورة ما أجمله فى سورة ق عند بيان ما يسبق الحساب فقد قال هناك ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد وقال هنا اذا الشمس كورت الى آخر قوله واذا النفوس زوجت وفصل هناك فى بيان الحساب ما أجمله فى هذه السورة فانه اكتفى منه هنا بذكر سؤال الموؤدة ونشر الصحف وكشط السماء وقال هناك وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد وقال قرينه هذا مالدى عتيد ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد وهو فى مقابلة قوله هنا واذا الجحيم سعرت ثم ذكر ست آيات فيما يتعلق بأهل الجنة وقال بعدها وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد وأتبع ذلك بوصف حال أهل الجنه فى آيات كثيره أيضاً فهذا يدلك على أن كشف الغطاء هناك هو كشط السماء هنا وكل من السورتين تفسر الاخرى . ما أجمل هناك فصل هنا وما أجمل هنا فصل هناك . وانه بكشف الغطاء أو كشط السماء يظهر لكل نفس عملها وتقوم عليها شهودها فتبصر مالم تكن تبصره من قبل ثم ترى ما أعدلها من جنة أو نار فسبحان من أودع فى كتابه ما يهدينا الى لبابه .

(فلا أقسم) عبارة من عبارات العرب فى القسم يراد بها تأكيد الخبر كأنه فى ثبوته وظهوره لا يحتاج الى قسم ويقال انه يؤتى بها فى القسم اذا أريد تعظيم المقسم به كأن القائل يقول انى لا أعظمه بالقسم لانه عظيم فى نفسه والمعنى فى كل حال على القسم قال تعالى فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم انه قرآن كريم الخ والخنس جمع خانسة من خنس اذا رجع و (الكنس) جمع كانسة من كنس الظبى اذا استتر فى كناسه وهو موضع فى الشجر يأوى اليه من شدة الحر أو غيرها و (الجوارى)

وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ

جمع جارية من الجرى (والخنس الجوارى الكنس) قيل هى الدرارى الخمسة هى عطارد والزهرة والمريخ والمشترى وزحل وذلك لأنها تجرى مع الشمس ثم ترى راجعة حتى تختفى فى ضوء الشمس فرجوعها فى رأى العين هو خنوسها واختفاؤها هو كنوسها وقيل هى الكواكب جميعها فانها لا تزال جارية راجعة علينا بعد مغيبها غائبة عنا بعد طلوعها وعسعس الليل أدبر قال العجاج

حتى اذا الصبح لها تنفسا * وانجاب عنها ليلها وعسعسا

وتنفس الصبح تبلج وامتد حتى صار نهاراً بيناً وأقسم بهذه الدرارى أو الكواكب جميعها لينوه بشأنها من جهة ما فى حركاتها من الدلائل على قدرة مصرفها ومقدرها وارشاد تلك الحركات الى ما فى كونها من بديع الصنع واحكام النظام مع نعتها فى القسم بما يبعدها عن مراتب الالوهية من الخنوس والكنوس تقريعاً لمن خصها بالعبادة واتخذها من دونه أربابا وفى الليل اذا أدبر زوال تلك الغمة التى تغمر الاحياء بانسدال الظلمة بعد ما استعادت الابدان نشاطها وانتعشت من فتورها وفى الصبح اذا تنفس بشرى الأنفس بالحياة الجديدة فى النهار الجديد تنطلق فيه الارادات الى تحصيل الرغبات وسد الحاجات واستدراك مافات والاستعداد لما هو آت وقوله (انه لقول رسول كريم) جواب القسم وهو المقسم عليه المراد توكيده وقرن لا أقسم بالفاء حيث قال فلا أقسم وهى تدل على تعلق ما بعدها بما قبلها يدلنا على أن الضمير فى أنه لذلك الخبر المتقدم وهو اذا الشمس كورت الخ ويفهم منه القرآن ضمناً كأنه يقول اذا وقعت هذه الامور كلها كان ما ذكرت وذلك خبر لا ريبة فيه فانى أقسم الخ وهذا أظهر من اعادة الضمير على القرآن بجملته لانه لم يتقدم له ذكر حتى يقرن القسم على أنه كذلك بالفاء و (الرسول الكريم) هو جبريل وانما كان قوله لانه هو حامله الى النبى صلى الله عليه وسلم وقد وصفه بأنه ذو قوة كما وصفه فى سورة أخرى بأنه شديد القوى ذو مرة وهى الحصافة فى العقل والرأى والمتانة فيهما ومكين عند ذى العرش أى صاحب مكانة وشرف

وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ۝ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ۝ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ

لديه سبحانه وصاحب العرش هو الله ومن معانى العرش الملك وهو مطاع فى الملأ الأعلى أمين فيه و (ثم) بمعنى هناك أى فى العالم الالهى وهو عالم لا يعلم حقيقته الا الله وهو علام الغيوب (وما صاحبكم بمجنون) صاحبهم هو نبينا صلى الله عليه وسلم ونفى عنه وصف الجنون لان بعض قريش كان يرميه بذلك عند ما يسمع منه غريب الخبر عن اليوم الآخر وغيره من مواضع العبر مما لم يكن معروفاً لهم ولا مألوفاً لعقولهم والتعبير عنه بصاحبهم أبلغ فى الاستدلال عليهم فانه صلى الله عليه وسلم من صغره الى كبره وما عرفوا منه الا كمال العقل والتبريز فى الفضل فكيف يوصف بالجنون عند ما يدعى الرسالة من ربه وعلم شىء من غيبه باذنه (ولقد رآه) أى أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد رأى جبريل بالأفق الأعلى الواضح المظهر لما يرى فيه من جهة المشرق أو المغرب أو عند سدرة المنتهى فذلك مما لا يفهم من هذه الآية وهذه الرؤية بتمثل جبريل للنبى صلى الله عليه وسلم فى مثال يبصر فهو قد ظهر له وتجلى لعينيه على أنه جبريل فعرفه (وما هو على الغيب بظنين) قرئ بالظاء وبالضاد والمعنى على القراءة الاولى وما محمد صلى الله عليه وسلم بمتهم على الغيب أى أنه صادق فى اخباره عن اليوم الآخر وحوادثه والوحى وما يجىء به وكما أنه لم يعرف عنه الكذب فى ماضى حياته فهو غير متهم فيما يحكيه عن رؤية جبريل وعلى الثانية يكون المعنى أنه لا يبخل بما يأتيه من الوحى ولا يقصر فى تبليغه وسمى الوحى غيباً لانه لا يعرفه ولا يفهم حقيقته من البشر الا الذى يوحى اليه (وما هو بقول شيطان رجيم) أى لما كان صاحبكم قد عرف بصحة العقل وبالامانة على الغيب فلا يكون ما يحدث به من خبر الآخرة والجنة والنار والشرائع والأحكام قول شيطان رجيم تظنون أنه قد تبعه وخالط عقله (فأين تذهبون) أى مسلك تسلكون وقد قامت عليكم الحجة وأحاط بكم الحق من جميع جوانبكم ماهذا الذى يتلوه عليكم محمد صلى الله عليه وسلم

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ

(الا ذكر للعالمين) موعظة يتذكرون بها ما غرز الله فى طباعهم من الميل الى الخير وانما أنساهم ذكره ما طرأ على طباعهم من ملكات السوء التى تحدثها أمراض الاجتماع (وقوله لمن شاء الخ) بدل من العالمين أى أنه ذكر يتذكر به من وجه ارادته لان يستقيم على الجادة الواضحه جادة الحق والعدل أما من صرف نفسه عن ذلك ولم يرد الاعوجاج والانحراف عن طريق الحق والصواب فذلك الذكر لا يؤثر فيه ولا يخرجه من غفلته فعلى مشيئة المكلف تتوقف الهداية ولا ريب فى أن كل مكلف قد فرض عليه أن يوجه فكره نحو الحق ليطلبه وأن يحفز (١) عزمه الى الخير ليكسبه ولما كان ترتيب الذكر والانتفاع به على مشيئة العبد أن يستقيم ربما يوهم أن الانسان مستقل باختياره سلطان لنفسه وحاكم لأمره منقطع العلاقة فى ارادته عن سلطان الهه استدرك لدفع هذا الوهم بقوله (وما تشاءون الا أن يشاء الله) أى ان ارادتكم انما هى له مخلوقه وهو الذى اودعها فيكم ولو شاء لسلبكم اياها وجعلكم من الحيوانات التى ليس لها ارادة العاقل أو أحط من ذلك بحيث لا تكون لكم ارادة بالمرة وأتى بالوصف لبيان العلة فى الحكم حيث قال (رب العالمين) أى أنه لما كان رب العالمين أجمعين وهو مانحهم كل ما يتمتعون به من القوى ارادة أو غيرها وهو مع ذلك صاحب السلطان الاعلى عليهم كانت ارادتكم مستندة فى الحقيقة الى ارادته وخاضعة لسلطانه فلو شاء أن يحولها الى وجه غير الذى اتجهت اليه لتحولت ولو شاء محوها بالمرة لمحيت له الامر وهو على كل شىء قدير

---

(١) (يحفز) من باب ضرب اى يسوق عزمه ويدفعه كما فى القاموس اه مصححه

سورة الانفطار مكية وهى تسع عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ۝ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ۝ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ

عود الى التذكير باليوم الآخر وبأن النفوس تشهد ماعملته فى الدنيا لايغيب عنها منه شىء فى ذلك اليوم فتتجلى لها اعمالها فى حقيقتها لاترى خيراً فى صورة شر ولا تتخيل شراً فى مثال خير كما يقع فى الدنيا لأغلب النفوس لأن الذى يحول بين الناس وبين فعل الخير انما هو تفضيل ماليس بخير عليه ولا يفضل الشخص شيئاً على شىء الا اذا ظنه خيراً له فضدالخير يتمثل للشرار فى صورة الخير فيفعلونه والخير يظهر لنفوسهم على انه غير خير فيتركونه ولكن عند ما تتجلى الافعال كما هى فى ذلك اليوم وينكشف الغطاء عن البصائر يعرف أهل الخير أنهم وان نجوا فهم مقصرون فيأسفون على ما تركوا ويستبشرون بثواب ما عملوا ويعض أهل السوء على أيديهم من الندم ويوقنون بسوء المنقلب ويتمنون لو كانوا تراباً . ذكر الله اليوم الآخر ببعض مايحدث فيه من عظائم الامور كما من علينا بمثل هذا التذكير فى السورة السابقة فقال (اذا السماء انفطرت) اى انشقت وجاء فى سورة الفرقان يوم تشقق السماء بالغمام وانشقاق السماء انصداع نظامها فلا يبقى أمر ما فيها من الكواكب على ماتراه اليوم فيخرب العالم بأسره ولذلك عقب انشقاق السماء بما هو من لوازمه حيث قال (واذا الكواكب انتثرت) أى سقطت فبادت فاذا كان ذلك اضطربت الارض أيضاً وزلزلت زلزالاً شديداً ووقع الخلل فى جميع اجزائها فتتفجر البحار وتزول الحواجز بينها فيختلط عذبها بمالحها بل تفيض على الارض حتى يصير سطح الارض ماء لحظات من الزمان وذلك قوله فى سورة التكوير واذا البحار سجرت أى ماجت وفاض منها الماء على التأويل الأول وقد يصح اجراء ماهنا على التأويل الثانى وذلك أنه بعد أن تفجر البحار

يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ

ويفيض ماؤها تظهر النار وتأخذ مكان الماء بعد ان يتحول الى بخار كما أشير اليه فى السورة السابقة واذا وقع ذلك انقلب باطن الارض الى ظاهرها فلا ريب فى ان تبعثر القبور أى يظهر ما كان قد خفى فيها من بقايا أجساد الموتى وبعد ذلك يكون بعث الاموات واحياؤهم فى النشأة الآخرة ثم تنشر الصحف وينكشف الغطاء فتعلم كل نفس ماقدمت من أعمال الخير وما أخرت منها بالكسل والاهمال والتسويف من يوم الى آخر حتى حانت الآجال وقد يكون المعنى مافعلت من خير أو شر وما تركت منهما .

جرت العادة بأن كرم السيد يخدع العبيد فاذا أمر تهاونوا فى الاجابة الى امره واذا نهى تغافلوا عن نهيه وتمادوا فى لزوم مانهى عنه والوقوع فيما حذر منه ويروى عن على كرم الله وجهه أنه صاح بغلام له كرات فلم يلبه فنظر فاذا هو بالباب فقال له مالك لم تجبنى فقال لثقتى بحلمك وأمنى من عقوبتك فاستحسن جوابه وأعتقه وقالوا من كرم الرجل سوء أدب غلمانه وعلى هذه العادة اتكأ بعض من ضرب بينه وبين معنى الخطاب بحجاب أى حجاب حيث قال أن الله جل شأنه قد ألهم المخاطب الجواب فلعبده أن يجيبه بقوله غرنى كرمك ولا يخفى أن هذا تلاعب بالتأويل وتضليل للناظر فى كتاب الله أى تضليل كيف يخطر ببال عاقل أن يقول ذلك فى معنى أبلغ الكلام وهو صادر فى مقام التهويل والارهاب والتخويف من الحساب وشدة العقاب وسد السبل واغلاق الابواب على أولئك الجاحدين الذين قرعوا بهذا الخطاب ولكن اسمع مايليق بالمقام الكريم . وصف الكريم ليس خاصاً بمعنى الرحيم والواسع العطاء المحسن الغافر للذنب بل قد جاء فى القرآن وصفاً للرزق وللكتاب وللرسول وللعرش و للمقام وللمدخل وللقول وللأجر ولا ريب أنه فى كل مقام يفيد المعنى الذى يناسبه والاصل فى معنى الكرم الكمال فى الوصف والبعد عن النقص ولقد فسروا الكريم بالعظيم فى قوله تعالى رب العرش الكريم فى سورة المؤمنين وهو الانسب بمقام الخطاب فى سورتنا هذه فكأنه يقول ماغرك بربك العلى العظيم الذى قد علا فى ذاته وصفاته عن كل مايوهم نقصاً أو عيباً فهل يمكن للرب العلى البالغ الغاية فى الكمال أن يترك عبيده سدى وأن يهمل فعالهم فلا يعاقب شريراً ولا يثيب

الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ

خيراً ولا يعد لهم مايردعهم عن القبيح ولا ما يهزهم الى الحسن كلا ان اللائق بعلوه وسموه وكرم مقامه العلي أن يفيض نعمه على أهل الصالحات ويصب نقمه على مجترحي السيئات تفضلاً منه على الاولين وحكمة فائقة فى التنكيل بالآخرين . ولئن سلم أن معنى الكريم الجواد الواسع العطاء فياض النعم فلا يصح أن يدخل فيه معنى العفو والمغفرة والخطاب خطاب تقريع ولكن فيه اشارة الى معنى رفيع يليق بكتاب الله ذلك أنه خاطب بيا أيها الانسان ولم يقل أيها المخلوق أو العبد وفى الانسان معنى العاقل المتفكر الذى أوتى من قوة العقل وبسطة القدرة فى العمل مالا حد له ينتهى اليه حتى صار بذلك أفضل المخلوقات وأكملها ونال بفضل ماأوتيه قوة السلطان عليها ولم يكن ذلك كله الا منحة من ربه الكريم الذى احسن كل شيء خلقه وهذا الكريم انما يليق به ان يوفى كل مرتبة من الوجود حقها فالانسان الذى خص بهذه المنزلة من الكرم الالهى لاينبغى أن يعيش كما يعيش سائر الحيوان ويموت كما يموت الوحش وصغار الذر وانما يتساوى مع بعضها فى الحياة الاولى من حيث قصر المدة وسرعة الفناء ولكن الذى يليق بعقله وقوة نفسه الناطقة أن تكون له حياة أبدية لاحد لها ولا فناء يأتى عليها ولاريب فى أنه اذا روعى فى الكرم الالهى أن لايدع مستعداً الا منحه مااستعد له ولا يحرم قابلا مما أعد لأن يقبله وهو الذى ينبغى أن يراعى فيه فقد ارتفع الغرور وأزيحت الخديعة وحق اليقين بأنه لابد من حياة أخرى بعد هذه الحياة يوفى فيها كل ذى حق حقه وكل عامل جزاء عمله لان ذلك من تمام معنى الكرم الذى ميز الانسان على غيره من أنواع الحيوان وانما تمام تمييزه بأن يجعل له حياة باقية تناسب ماوهبه من العقل والقدرة ويؤكد هذا المعنى لو حمل الكريم عليه تعقيبه وصف الكريم بقوله (الذى خلقك فسواك) أى أكمل لك قواك (فعدلك) أى جعلك معتدلا متناسب الخلق معتدل القامة لا كسائر البهائم وفى قراءة عدلك بالتخفيف ومعناه صرفك عن خلقة غيرك لخلقك خلقة حسنة مفارقة لسائر الخلق ثم أجمل ذلك فى قوله (فى أى صورة ماشاء ركبك) أى ركبك فى صورة هى من أعجب الصور وأتقنها وأحكمها وأدلها على بقائك الأبدى فى نشأة أخرى بعد هذه النشأة الاولى وكلمة

كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ

ماهى التى يسمونها زائدة ولكنها تدل على تفخيم ما اتصلت به فزيادتها زيادة اعراب وان لم تكن خالية عن المعنى ويرشد الى ان المعنى هو ماقلنا قوله بعد ذلك (كلا بل تكذبون بالدين الخ) كلا أى لاشىء يغرك ويخدعك بل ان سعة عطاء ربك وحكمته فى كرمه تدلك وتوحى الى نفسك أنك مبعوث فى يوم آخر لثواب أوعقاب وانما الذى يقع منك أيها الانسان هو العناد والتكذيب بالدين اى الجزاء اى الانصراف عمداً وعناداً عما يدعو اليه الشعور الاول وعن الدليل الذى تقيمه الرسل والحجة التى يأتى بها الانبياء مع ان الله لم يترك عملاً من اعمالك الا حفظه وأحصاه عليك حتى يوفيك جزاءه .

ومن الغيب الذى يجب علينا الايمان به ما أنبأنا به فى كتابه من ان علينا حفظة يكتبون اعمالنا حسنات وسيئات ولكن ليس علينا ان نبحث عن حقيقة هؤلاء ومن اى شىء خلقوا وما هو عملهم فى حفظهم وكتابتهم هل عندهم اوراق واقلام ومداد كالمعهود عندنا وهو مايبعد فهمه أو هناك ألواح ترسم فيها الاعمال وهل الحروف والصور التى ترسم هى على نحو مانعهد أو انما هى أرواح تتجلى لها الاعمال فتبقى فيها بقاء المداد فى القرطاس الى أن يبعث الله الناس كل ذلك لا نكلف العلم به وانما نكلف الايمان بصدق الخبر وتفويض الامر فى معناه الى الله والذى يجب علينا اعتقاده من جهة مايدخل فى عملنا هو أن أعمالنا تحفظ وتحصى لا يضيع منها نقير ولا قطمير و (كراماً كاتبين) أى مطهرين عن الغرض والنسيان

ثم بعد أن ذكر مايدل على أن الغفلة عن اليوم الآخر لاموجب لها الا التكذيب والعناد أخذ يؤكد الامر ويخبر به على القطع الذى لايدخله الريب فقال (ان الابرار لفى نعيم وان الفجار لفى جحيم) يريد أنه لاشىء فى جانب العلى الاعلى يسوغ لاحد من البشر أن يغتر به وأن ينخدع فيه بل لابد من يوم يكون فيه الثواب والعقاب ولابد أن يكون أهل الثواب فى دار النعيم وأهل النقمة وموضع الغضب الالهى يكونون فى الجحيم وهى دار العذاب والاولون هم الابرار والابرار جمع

بر بفتح الباء وهو الموصوف بالبر بكسرها قال بعضهم البر بالكسر الصدق وقال آخر هو التقوى وهو اجمال قد بينه الكتاب العزيز والسنة النبوية ولا يكون الصدق ولا التقوى براً حتى يكون فيه حسن المعاملة وافراغ الوسع فى ايصال الخير الى الناس فاذا خلا الوصف من ذلك لم يكن براً ولم يكن صاحبه داخلاً فى هذا الوعد الكريم قال الله تعالى . ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون. فجعل البر منحصراً فى الايمان بما يجب الايمان به ثم فى بذل المال فى وجوهه وفى الصلاة ثم عاد الى بذل المال بذكر الزكاة وبعد هذا ذكر الوفاء بالعهد وهو ملاك لكثير من الفضائل وأتبعه بالصبر على المرض والفقر وكل مايحرج فى عيش أو يؤذى فى نفس أو بدن والصبر فى حالة الحرب للدفاع عن الحق ثم قال أولئك الذين صدقوا ليشير الى أن الصدق الذى يؤخذ فى معنى البر لا يكون براً ولا صدقاً الا اذا جمع هذه الأوصاف والفعال المتقدمة وكذلك قوله وأولئك هم المتقون يفيد أن التقوى هى ما جمع ذلك وقال فى سورة آل عمران . لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شىء فان الله به عليم . فلا يعد الشخص براً ولا باراً حتى يكون للناس من كسبه ومن نفسه نصيب فلا يغترن أولئك الكسالى الخاملون الذين يظنون أنهم يدركون مقام الأبرار بركعات من الخشية خاليات وبتسبيحات وتكبيرات وتحميدات ملفوظات غير معقولات وصيحات غير لائقات بأهل المروآت من المؤمنين والمؤمنات ثم بصوم أيام معدودات لايجتنب فيها ايذاء كثير من المخلوقات مع عدم مبالاة الواحد منهم بشأن الدين قام أم سقط ارتفع أو انحط ومع حرصه وطمعه وتطلعه لما فى أيدى الناس واعتقاده الاستحقاق لما عندهم لالشىء سوى أنهم عاملون فى كسب المال وهو غير عامل وهم يجرون على سنة الحق وهو متمسك بسنة الباطل وهم متجملون بحلية العمل وهو منها عاطل فهؤلاء ليسوا من الابرار بل يجدر بهم أن يكونوا من الفجار (والفجار) جمع فاجر والفاجر

يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ۝ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ۝

من يفجر أمر الله أى يميل عنه ويتركه (١) والفجور كالفسق فى أنه خروج عن الحد الذى وضعه الله فى شرعه وأوامر الله قد عرفت فى البر فمن لم يستجمعها فقد فجر (يصلونها) أى يقاسون حر الجحيم (يوم الدين) أى يوم الجزاء ثم أكد أن هذا العذاب حتم وأنه لا نجاة لهم منه بقوله (وماهم عنها بغائبين) أى انهم ملازمون لتلك الدار دار العذاب والعار

وبعد أن أكد خبر اليوم الآخر أشد التأكيد وبين ما يلقاه فيه المغرورون على التأبيد عاد يفخم أمر ذلك اليوم ويعظم شأنه فقال (وما أدراك ما يوم الدين) أى من الذى أعلمك أيها الانسان كنه ذلك اليوم أى عجيب منك ثم عجيب أن تتهاون بنبئه كأنك قد أدركت كنهه ووزنته فعرفت وجه الخلاص مما يلقاك فيه ماتصورت فيه من الهول لحقيقته فوق كلا انك لم تدرك من كنهه شيئاً وكل ماتصورت فانه ذلك اليوم الذى لا محاباة فيه ولا مواساة ولا يجد المرء ما يعول عليه سوى ما قدمت يداه يجفوه الأولياء ويخذله الشفعاء ويتبرأ منه الاقرباء (يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً) فلا تحمل عنها ذنباً ولا تدفع عنها عتباً (والأمر يومئذ لله) وحده فلا شفيع ولا نصير ولا وزير ولا مشير وهو الذى وعد وأوعد على لسان رسله وهو أصدق قائل فى قولهوأعدل فاعل فى فعله فلامهرب لعامل من جزاء عمله حيث قد استأثر الله بالأمر كله نسأل الله المعونة فى دنيانا لننال الأمن من عقابه فى أخرانا

---

(١) قال الشاعر

قتلتم فتى لا يفجر الله عامداً ☆ ولا يجتويه جاره حين يمحل

أى لا يفجر أمر الله ولا يميل عنه (لسان العرب)

سورة المطففين مكية وهى ست وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ

سورة المطففين قيل مكية كما ذكر وقيل مدنية نزلت فى حال أهل المدينة حين قدمها النبى صلى الله عليه وسلم حيث كانوا أخبث الناس كيلا كما رواه البيهقى وغيره عن ابن عباس . والمطففون قد بينهم الله فى قوله (الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون) أى اذا كان لهم عند الناس حق فى شئ يكال أو يوزن وأرادوا أخذه منهم لا يأخذونه الا تاما كاملا ولهذا عدى اكتالوا بعلى فقال اكتالوا عليهم ولم يقل منهم لان ما يأخذونه حق على الناس يستوفونه منهم (واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) أى اذا كان للناس حق عندهم فى مكيل أو موزون أعطوهم ذلك الحق مع النقص والخسار ولما كان المعنى على الاعطاء عدى كال الى الضمير بدون حرف وقد يكون على حذف الجار والايصال كما فى قوله

ولقد جنيتك أكمؤا وعساقلا * ولقد نهيتك عن بنات الاوبر

أى جنيت لك والاصل كالوا لهم والاكمؤ جمع كمأة وهى ما يعرف عند العامة الآن بعيش الغراب والعساقل ضرب منه أبيض وقيل لونه بين البياض والحمرة وبنات الاوبر ضرب منه كذلك ردىء الطعم وانما سمى من يبخس الكيل فى حال ويملؤه أو يزيد عليه فى حال مطففا لانه يبلغ فى كيله طفاف الكيل كسحاب أى ما يقرب من ملئه ولا يملأه فى الحالة الاولى ويبلغ الطفاف أو الطفافة بالضم وهى ما فوق المكيال فى الحالة الثانية ولانه يطلب الغنى بشئ طفيف وهو ما يأخذه من البخس اذا اكتال منك ومن الزيادة اذا اكتال عليك

أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ

قد ذكر الله فى هذه السورة تفصيلا لما أجمله فى السورة السابقة فقد جاء بنوع من أنواع الفجور وهو التطفيف فى المكيال ثم جاء بنوع آخر وهو التكذيب بيوم الدين وبمنشاء ذلك التكذيب وهو الاعتداء وملازمة الآثام وأتبع ذلك بأثر من آثار التكذيب وهو دعوى أن آيات الله فى كتابه هى أساطير الاولين كل هذا بيان للفجور المؤدى بصاحبه الى الجحيم ثم زاد مايلاقونه فى الآخرة تفصيلا من حيث ذكر أين يكون كتابهم وذكر حجبهم عن ربهم وما يقال لهم من قوارع التبكيت. وكذلك فصل فى نعيم الابرار ماأجمله فى السورة المتقدمة كما ترى

بعد ان قال ويل للمطففين أى هلاك لهم عظيم ونكال ينتظرهم قال (الا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم) أى ان تطفيف الكيل واختلاس مال الناس بوسيلة هذا العمل مما لايصدر الا عن شخص لايظن أنه يبعث يوم القيامة ويحاسب على عمله ولو ظن البعث والحساب لما طفف الكيل ولا بخس الميزان ولهذا تنزل حالة المطفف منزلة حال من يجهل ظنـه بالحياة الآخرة فضلا عن اعتقاده فيها فيستفهم عنه كما قال ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون لذلك اليوم العظيم أى فيه (يوم يقوم الناس لرب العالمين) أى يقفون للعرض عليه ويطول بهم الموقف اعظاما لجلاله واجلالا لمقامه جل شأنه واعتبار المطفف كأنه لايظن أنه سيبعث للقيام بين يدى ربه وتنزيله منزلة المنكر للبعث اعتبار حق لايجادل فيه الا مغرور بالله أو جاهل بدينه بل منكر لحقيقتـه وكيف يصر على ايذاء الناس والغض من حقهم من يظن بعض الظن انه سيقوم بين يدى رب العالمين وخالق الخلق اجمعين القاهر الجبار ليحاسب على النقير والقطمير والحبة والذرة (كلا) لايقيم على ذلك الامنكر لما اوعد به او متأول فيما يدفع عنه العقاب وينجيه من الحساب لا يبعد. به تأوله عن منزلة المنكر بل يسقطه مع صاحبه فى النار وبئس القرار هذا ماينذر الله المطففين الراضين بالقليل من السحت فما ظنك بأولئك الذين يأكلون اموال الناس بلا كيل ولا وزن بل يسلبونهم مابأيديهـم ويغلبونهم على ثمار اعمالهم،

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ۞ كِتَابٌ مَرْقُومٌ

فيحرمونهم حق التمتع بها اعتماداً على قوة الملك أو نفوذ السلطان أو باستعمال طرق الحيلة فهل يعد هؤلاء من الشاكين فى يوم البعث فضلا عن الظانين أو الموقنين لاريب أن هؤلاء لايحسبون الا فى عداد الجاحدين المنكرين وان زعموا بلسانهم أنهم من الموحدين المؤمنين يروى أن اعرابياً قال لعبد الملك ابن مروان « سمعت ماقال الله فى المطففين » أراد بذلك أن قد حق الوعيد على المطفف على النحو الذى سمعت من التهويل والتعظيم فما ظنك بنفسك وأنت تنهب وتسلب وتنتزع الأموال من أيدى أربابها بالقوة والقهر لابالحيلة والخدعة استعظاماً لقوتك وغفلة عن جبروت الله وتكبراً على الناس ولا تكتفى من ذلك بالقليل كما هو شأن المطفف ولا ترضى بما دون استئصال الأموال ومسح مايبقى من غبارها بأيدى أهلها فالويل كل الويل لك يوم يقوم الناس لرب العالمين قرئ يوم يقوم بالفتح وبالجر وعلى الثانى هو بدل من يوم عظيم وعلى الأول يكون ظرفا لمبعوثون أو منصوبا على الاختصاص وهو مانختاره لأن المقام له .

كلا ردع لهم عن التطفيف الذى يقترفونه لغفلتهم عن يوم الحساب وضعف اعتقادهم به فان ذلك غرور منهم لايرجعون فيه الى سند وذلك أنهم بعملهم هذا يعدون من الفجار والفجار يحاسبون على أعمالهم لا يغفل منها شىء فان لهم كتابا تحصى فيه أعمالهم خفيها وجليها حقيرها وعظيمها وذلك الكتاب يسمى بسجين وهو مرقوم أى قد أثبت فيه العلامات الدالة على الاعمال ويفهم من استعمال اللفظ فى اللغة ومن مقابلته بكتاب الأبرار الذى فى عليين أن فيه معنى التسفل كما أن فى مقابله معنى التعلى وقد رأيت فى بعض كتب أهل البحث فى اللغات أن الوحل يسمى فى اللغة الايتيوبية سنجون بالجيم العجمية مع امالة فى حركة الواو ولا يخفى ما فى معنى الوحل من التسفل وقد يكون هذا اللفظ من استعمال عرب اليمن فان فيها كثيراً من الألفاظ الايتيوبية لكثرة المخالطة بينهم وبين أهل الحبشة استعملوه فيما يقارب الوحل فلا يبعد أن يقال ان الكتاب فيه أى أنه مكتوب به

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ

أو على التصوير والتمثيل أى أن الاعمال لخبثها تصور وتمثل كأنها مكتوبة به ويكون معنى كون الوحل ومايقاربه كتابا مرقوما أن الاعمال بعد أن خطت به صار ذلك المداد القبيح كتابا مرقوما وعلى أن سجينا اسم لما تحصى فيه الاعمال يجوز أن يكون لفظ كتاب الأول مصدراً أى أن كتبهم واثبات أسمائهم وأعمالهم هو فى ذلك الكتاب الذى هو كالسجل لتلك الأسماء والاعمال ويقال كتب الله فلاناً فى الأشقياء أو فى السعداء أى أدرج اسمه بين أسمائهم فيما قدر لهم فكذلك يقال كتب الفجار فى سجين أى أودع أسماءهم فيه مقرونة الى أعمالهم ويجوز أن يكون كتاب بمعنى المكتوب ومعنى كونه فى سجين أن سجيناً هو سجل عام يحتوى على صحائف كثيرة لكل فاجر صحيفة والمجموع هو ذلك السجل العام المسمى بسجين (ويل يومئذ للمكذبين) اعادة للوعيد الأول فى قوله ويل للمطففين بعبارة أدل على عظم الجرم وأعم تشمل تلك الجريمة وغيرها وذلك أنه قال فى المطففين ألا يظن أولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم ليبين أن الاصرار على ذلك العمل القبيح يدل على ارتفاع الظن بالبعث ثم اعاد الوعيد بلفظ المكذبين الذى يشمل أولئك المطففين وغيرهم وهم الذين يكذبون بيوم الدين أى يوم الجزاء سواء كان التكذيب بجحد الخبر به مباشرة أو كان بعدم المبالاة بما يكون فيه من عقاب وعذاب وعدم المبالاة هو التكذيب المستبطن فى النفس الذى تجرى عليه فى أعمالها وان كانت لاتظهره فى أقوالها وأعظم دليل على عدم المبالاة هو الاصرار على الجرائم والمداومة على اقتراف السيئات ولهذا جعل الاعتداء والاثم مناط التكذيب فى قوله (وما يكذب به الا كل معتد أثيم) فان من كان ميالاً الى العدل فى خلائقه وأفعاله واقفاً عند ماحدد الله لعباده فى شرائعه وسننه لايعتدى حدود النصفة فأيسر شىء عليه التصديق باليوم الآخر وهو أعون له على ما مال اليه أما من اعتدى

إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ

الحق وعمى عن الانصاف واعتاد ارتكاب الآثام واتيان مافيه الغض من حقوق الناس والاضرار بهم والاخلال بنظامهم فذلك الذى يصعب بل يكاد يمتنع عليه الاذعان باخبار الآخرة لأنه يأبى النظر فى أدلتها وتدبر البينات القائمة على صدقها لأن فى ذلك قضاء على نفسه بالسفه وحكماً عليها بالظلم ذلك فيما مضى لها ثم فيه تخويف لها من ارتكاب مثل عملها فيما يستقبل وهى جامحة طامحة فهو لايريد الا أن يعللها بالانكار ويهون عليها الامر بالتغافل أو التعلق بالامانى من نصرة الاولياء أو توسط الشفعاء فلذلك اذا تليت عليه الآيات المنزلة الناطقة بأصدق الخبر عما يكون فى ذلك اليوم مما لامفر منه (قال أساطير الاولين) والاساطير أحاديث لانظام لها أى ذلك كلام مكرر الحكاية يأثره الآخر عن الاول والخلف عن السلف ولكنه مالا ينطبق على الواقع فهو مما تعودت النفوس سماعه وتعودت أن لا تتأثر منه وأن لا تحلى منه بطائل فلا يستحق النظر فيه هكذا حال القوم يتلى عليهم كتاب الله وفيه ماينعى عليهم حالهم ويكشف لهم مالبسوا على أنفسهم ويبين لهم سيئات أعمالهم فيقولون هذا مفهوم ولكن من ذا الذى يعمل به ولم لم يعمل فلان وفلان حتى كنا نسلك مسلكهم ونستقيم على طريقهم فهؤلاء واصفون لكتاب الله بأنه أساطير الاولين وان لم ينطقوا باللفظ الدال على الوصف ليعللوا أنفسهم بأنهم مسلمون وأنهم مع فجورهم ناجون (كلا) ان هذه الآيات ليست بأساطير تسطر وأقاصيص تحكى وتؤثر وتعاد وتكرر بدون حقيقة ولا أثر بل هى الحق الذى لامراء فيه عرفه منها أهل العدل المتعرضون للرحمة والفضل وانما الذى غطى قلوب المكذبين وحجبها عن فهم ما جاءت به الآيات تلك الملكات الرديئة والعادات السيئة والاعمال الخبيثة التى كانوا يكسبونها وران على قلبه أى ركبه وغطاه ومعنى رين الذنب وركوبه القلب حتى يحجبه عن الفهم هو

كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ كَلَّآ إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ

ماذكرناه لك من أن المسيء الذى ضريت نفسه بالقبيح يسعى جهده فى البعد عن كل مايكدر صفوه فهو يعرض عن كل مايجد فيه تهجيناً لعمله أو تخويفاً من عاقبة فعله وهل يغنيهم هذا العمى من الحق شيئاً (كلا) انهم سيكونون يوم القيامة فى المكان الدون وموقف الهون و (انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) ولا يحجب عن الرب الكريم الا المخذول المرذول الذليل المهين (ثم انهم) بعد أن يطردوا عن أبواب الكرامة يقذف بهم حيث لايلقون الا الاسف والندامة يقذف بهم فى الجحيم يصلونها ويقاسون حرها (ثم يقال) لهم (هذا) هو العذاب (الذى كنتم به تكذبون) تبكيتاً لهم وزيادة فى التنكيل بهم فان أشد شيء على الانسان اذا أصابه مكروه أن يذكر وهو يتألم له بأن وسائل النجاة من مصابه كانت بين يديه فأهملها وأسباب التفصى عنه كانت فى مكنته فأغفلها (كلا) ردع عن التكذيب المذكور فى قوله هذا الذى كنتم به تكذبون وانما يجب تجنبه طلباً للكرامة فى ملازمة التصديق الذى هو ضده فان كتاب الابرار فى عليين الخ وقد بينا فى السورة السابقة معنى الابرار وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات المفصلة فى السور والآيات فهؤلاء لايضيع عمل عامل منهم بل كل ما عمله فقد أحصاه الله فى كتاب مرقوم اسمه عليون والكلام على لفظ كتاب الاول كالكلام عليه فيما سبق وقد رأيت عن بعض الباحثين فى اللغات الشرقية أن لفظ علوا فى اللغة الايتيوبية (الحبشية القديمة) معناه النقش باللون الاحمر فان لم يكن العليون من العلو فمن الجائز أن اللفظ دخل فى لغة أهل اليمن وعرب الجنوب على معنى الزينة ثم أطلق على كل مزين لطيف وقد يدل على ذلك تخالف البناء والوزن مع ماهو من معنى العلو وهذه الكتب التى تكتب فيها أعمال المجرمين أو

يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ۞ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۞ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ۞ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ۞ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۞ خِتَامُهُ مِسْكٌ .

أعمال الابرار مما استأثر الله بعلم حقيقته فسجين وعليون موجودان أودعهما الله أعمال الخاسرين والناجين وليس علينا أن نعرف أنهما من اوراق أو أخشاب أو معادن اخر أو من ارواح غير أجسام كل ذلك مما لاحاجة الى البحث فيه لاستكمال الايمان وقد يكشفه الله للمصطفين من عباده ولهذا قال (يشهده المقربون) وجاء بهذه الصفة ليدل بها على انه امر محقق الثبوت حتى أن المقرب ليشهده شهود العيان اذا وصل من القرب الى الحد الذى يكشف له فيه ذلك الكتاب وأمثاله ولما كان المقصود من شهود المقربين هو ماذكرنا والله أعلم ظهر وجه ذكر هذه الصفة فى جانب كتاب الابرار وعدم ذكر مثلها فى جانب كتاب الفجار لأن الفجار لايشهدهم الله كتبهم ولا كتب غيرهم لتسفل ارواحهم وتدنسها باوضار الفجور فأنى يكون لها الاطلاع الى غيب لايدنو منه الا النفوس العالية والعقول الصافية وقيل المراد بالمقربين الملائكة وعليه لايظهر تخصيص كتاب الابرار بذلك فان كتاب الفجار مشهود لهم كذلك

بعد أن أكد الخبر باحصاء أعمال الابرار وأن احصاءها فى كتاب رفيع مكرم جليل أخذ يفصل ماينالونه من الجزاء على البر والاحسان فقال (ان الابرار لفى نعيم) والنعيم والنعمى والنعماء والنعمة كله الخفض والدعة وما فيه لذة وراحة وليس فيه ألم وعناء وهو ضد البأساء والبؤسى (والارائك) هى الاسرة فى الحجال والحجال جمع حجلة مثل القبة وحجلة العروس بيت أى خيمة يزين بالثياب والاسرة والستور وقوله (ينظرون) أى يمدون أعينهم الى ماشاؤا لايغضى الخزى من أبصارهم (ونضرة النعيم) بهجته وماؤه ورونقه (والرحيق) الشراب الخالص الذى لاغش فيه وهو قول الزجاج وقيل هو أعتق الخمر وأفضلها وقيل هو صفوتها وهى معان كلها متقاربة (ومختوم) ختمت أوانيه وسدت وكان ختامها المسك مكان الطينة

وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ۝ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ

وقيل المراد من ختامه مقطعه بعد الشرب أى أن الشارب يجد منه رائحة المسك بعد أن يشربه ولا يجد تلك الرائحة الخبيثة التى يجدها شارب الخمر (وفى ذلك فليتنافس المتنافسون) أى فى ذلك النعيم وما تلاه يرغب الراغبون ويسبق بعضهم بعضا اليه بالاعمال التى تقرب منه وهذه الجملة معترضة ذكرها عقب أنواع النعيم المتقدمة قبل أن يأتى على بقية أوصاف الرحيق اسراعا اليك بالترغيب فى التسابق الى ماعد من أنواع السعادة وقد يعود اسم الاشارة فى ذلك الى الرحيق المختوم، تمييزا له من بين أنواع النعيم السابقة بالترغيب فيه والجملة اعتراض على كل حال وكل نوعين اختلطا فاحدهما مزج صاحبه ومزاجه فبعد أن قال يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك بين مايمزج بذلك الرحيق اذا رغب راغب أن يمزجه بشىء ودل على أن مزاجه يكون من التسنيم وهو ماء يأتى من الاعالى واسمه التسنيم ليطابق الاسم مسماه ثم زاده بيانا بقوله (عينا يشرب بها المقربون) فعينا منصوب على الاختصاص بالمدح وفيه من البيان مالا يخفى يشرب بها المقربون أى يشربون بها الرحيق مزاجا له اذا أرادوا والمقربون هم الابرار بعينهم ذكرهم بهذا الوصف زيادة فى تكريمهم

كل هذه الأنواع من النعيم التى ذكرت فى الآيات مما ترغب فيه الأنفس وتتسابق اليه الهمم لهذا حفز الله بها عزائم المحسنين ليزدادوا احسانا وليطمع فيها الواقف على أول الطريق فيلزم الجادة الواضحة ويدع المعوجة الملتبسة ويسلك سبيل السابقين وليرد بها من جار على النهج ويقيمه على الصراط المستقيم هذا والمفهوم منها مايشبه مانحن فيه فما ظنك بها لو كانت أرقى وأكمل وأعلى وأفضل وأنه لايدانيها شىء مما نعهده فى الدنيا الا فى الاسم أو ضرب من الشبه البعيد كما هو حقيقة أمرها والحق فى شأنها

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ۝ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ۝ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ .

بعد أن ذكر ما أوعد به الفجار وهم أهل الجرائم ومقترفوا السيئات وما وعد به المتقون وهم أهل البر والاحسان وما سيلاقيه كل من الفريقين فى الدار الآخرة جزاء على عمله أخذ يذكر ماكان لأحد الفريقين الى الآخر فى الدنيا وما سيكون من شأن الآخر مع الفريق الاول فى الآخرة فقال (ان الذين أجرموا) وهم المعتدون الأئمة الذين شربت نفوسهم فى الشر وصمت آذانهم عن سماع دعوة الحق هؤلاء كانوا يضحكون من الذين آمنوا ذلك لأنه حين رحم الله هـذا العالم ببعثة النبي صلى الله عليـه وسلم كان كبار القوم وعرفاؤهم على رأى الدهماء وفى ضلال العامة وكانت دعوة الحق خافتة لا يرتفع بها الا صوته عليـه السلام ثم يهمس بها بعض من يلبيـه ويجيب دعوته من الضعفاء الذين لم تطمس أهواؤهم سبيل الحق الى قلوبهم فيسر بها الى من يرجوه ولا يستطيـع الجهر بها لمن يخافه ومن شأن القوى المستعز بالقدرة والكثرة أن يضحك ممن يخالفه فى المنزع ويدعوه الى غير مايعرفه وهو أضعف منه قوة وأقل عدداً كذلك كان شأن جماعة من قريش كأبى جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأشياعهم وهكذا يكون شأن أمثالهم فى كل زمان متى عمت البـدع وتفرقت الشيـع وخفى طريق الحق بين طـرق الباطل وجهل معنى الدين وأزهقت روحه من عباراته وأساليبه ولم يبق الا ظواهر لا تطابقها البواطن وحركات أركان لا تشايعها السرائر وتحكمت الشهوات فلم تبق رغبة تحـدو بالناس الى العمل الا ماتعلق بالطعام والشراب والزينـة والرياش والمناصب والالقاب وتشبثت الهمم بالمجد الكاذب وأحب كل واحد أن يحمد بما لم يفعل وذهب الناقص يستكمل مانقص منه بتنقيص الكامل واستوى فى ذلك الكبير والصغير والامير والمأمور والجاهل والملقب بلقب العالم اذا صار الناس الى هذه الحال ضعف صوت الحق وازدرى السامعون منهم بالداعى اليه وانطبق عليهم نص الآية الكريمة (وإذا مروا) بأحد من أهل الحق يغمز بعضهم بعضاً هزؤاً به

وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ۝ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ۝ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝

واذا انقلب هؤلاء الضالون الى أهلهم ورجعوا الى بيوتهم رجعوا اليهم فكهين ملتذين بحكاية مايعيبون به أهل الايمان اذ يرمونهم بالسخافة وقلة العقل كأن يقولوا عجباً هذا فلان يقول « لاتدعوا الا الهاً واحداً ولا تتوجهوا بالطلب فيما يفوق طاقتكم الا الى الله وحده خالق السموات والارض» فأين الاولياء والشفعاء وكم فعلوا وتركوا وضروا ونفعوا وهو ينكر جميع ذلك كأن الناس جميعاً فى ضلال وهو وحده يعرف الحق ونحو ذلك مما يعدونه فكاهة يتلذذون بحكايته واذا رأوا المؤمنين قالوا ان هؤلاء لضالون لأنهم طرحوا ماعليه العامة وذهبوا يعيبون العقائد والاعمال المتوارثة عن الآباء والاجداد (وما أرسلوا) أى لم يرسل المؤمنون الصادقون الداعون الى الحق لأن يكونوا (حافظين) عليهم أى على الكافرين والمبتدعين المجرمين أى لم يمنحهم الله تلك المزية وهى أن يكونوا رقباء عليهم يعظونهم ويدعونهم الى الخير وهجر الشر فليسوا ملزمين بسماع دعوتهم والاصاخة لادلتهم لجملة وما أرسلوا هى من كلام الذين أجرموا جحدا الحق المؤمنون فى وعظهم وارشادهم . ذلك ما كان من معاملة المجرمين للمؤمنين فى الدنيا يهزؤن بهم ويضحكون منهم ويجعلونهم أحاديث لهو ولغو فانظر ماتكون معاملة المؤمنين لهم يوم القيامة (فاليوم) أى يوم الدين والجزاء (الذين آمنوا من الكفار يضحكون) لاضحك الجاهل المغرور بل ضحك الموقن المسرور ضحك من وصل به يقينه الى مشاهدة الحق فسر به انكشف لهم بالعيان ماكانوا يرجونه من اكرام الله لهم وخذلانه لاعدائهم فسروا بذلك وفرحوا وضحكوا من اولئك المغرورين الجحدة الذين تجلت لهم عاقبه أعمالهم وظهر لهم سفه عقولهم وفساد أقوالهم فنكست أعناقهم لخزيهم وذلهم فما أعظم مجد المؤمنين فى ذلك اليوم (على الارائك ينظرون) الى صنع الله بأعدائهم وتذليله لمن كان يفخر عليهم وتنكيله بمن كان يهزأ بهم جزاء وفاقاً لجملة

سورة الانشقاق مكية وهي خمس وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ

«هل ثوب» متعلقة بينظرون ليتحققوا هل جوزي الكفار بما كانوا يفعلونه بهم في الدنيا وثوب مثل أثاب بمعنى جازى يقع في الخير وفي الشر وان كان قد غلب الثواب في الخير أي هل جوزي الكفار الخ ويجوز أن يكون استئنافاً واستفهاماً تقريرياً كأنه خطاب للمؤمنين أي هل رأيتم كيف جازى الله الكافرين بأعمالهم أي أنه فعل وجازاهم شر الجزاء وأنتم تعلمون ذلك والأول أظهر كما لا يخفى

انشقاق السماء مثل انفطارها الذي مر تفسيره في سورة اذا السماء انفطرت وهو فساد تركيبها واختلال نظامها عند ما يريد الله خراب هذا العالم الذي نحن فيه وهو يكون بحادثة من الحوادث التي قد ينجر اليها سير العالم كأن يمر كوكب في سيره بالقرب من آخر فيتجاذبا فيتصادما فيضطرب نظام الشمس بأسره ويحدث من ذلك غمام وأي غمام يظهر في مواضع متفرقة من الجو والفضاء الواسع فتكون السماء قد تشققت بالغمام واختل نظامها حال ظهوره (وأذنت لربها) أي استمعت لأمر ربها وفعلت حين أراد انشقاقها فعل المطواع الذي اذا أورد عليه الأمر من جهة آمره أنصت له وأذعن فكأنه قال امتثلت له (وحقت) أي حق لها أن تمتثل أي يجدر بها ذلك وهي حقيقة بأن تنقاد ولا تمتنع لأنها مخلوقة له وهي في قبضته وهو الذي يمسكها أن تزول فاذا أراد تبديد نظامها بدده وما يكون لها أن تعصى ارادته ومتى فسد نظام السماء فتساقط من كواكبها بعضها على بعض أصاب الارض من ذلك أشد ما يصيبها من الاضطراب فتدك جبالها وتتقطع أوصالها وتفقد التماسك بينها فلا يبقى لها هذا الاندماج الذي هي عليه الآن فتمد مد الأديم العكاظي كما روى عن ابن عباس ولا تكون الا كتلة مائرة تتساوى

وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۝ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ

أعاليها وأسافلها وعظمت بهـذا الانتفاش وزادت أقطار حجمها فهذا قوله تعالى (واذا الأرض مدت) ولا ريب أن هذا المد يتبعه أن جميع مافى جوف الارض ينقذف الى خارج وربما قذفته الحركة العنيفة الى ما يبعد عن سطحها فتخلو الارض منه حتى لا يبقى له أثر فى باطنها وهذا هو قوله تعالى (وألقت مافيها وتخلت) وهى فى ذلك كله تحت سلطان الجلال الالهى وقهره خاضعة لاوامره منقادة لمشيئته كما قال (وأذنت لربها وحقت) ولا يخفى أن الاستماع والطاعة من السماء والأرض تمثيل لكونهما فى قبضة القدرة الالهية تصرفهما فى الفناء كما تصرفت فيهما بالابتداء كما قال « ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين » أى أنه خلقهما على الوجه الذى أراد بدون أن يكون منه جهد أو كد أو يصيبه عناء أو نصب كما يتوهم ضعفاء العقول اذا سمعوا بأن واحداً وحده يخلق هذا الخلق العظيم أو يدمر هذا الكون الجسيم وكما زعم اليهود أن الله ابتدأ الخلق يوم الاحد واستراح يوم السبت واستلقى على العرش قال الله فى آية أخرى لافادة المعنى على الحقيقة بدون تمثيل « ولقد خلقنا السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب » وكل قول أو فعل ينسب الى من لا يصدر عنه فى المعروف فنسبته اليه على طريق التمثيل الا أن يكون هناك سبب يسوغ النسبة فى عرف الخطاب .

جاء فى هـذه السورة بشرطين أحدهما يتعلق بالسماء والآخر يتعلق بالارض وفى ضمن كل منهما ماهو من لوازمه ولم يأت بجواب للشرطين بل أعقب قوله واذا الارض مدت الخ بقوله (ياأيها الانسان انك كادح الى ربك كدحاً فملاقيه) وهو من عجائب ايجاز القرآن حيث يظن لزوم الاطناب فيأتى الايجاز بما لا يأتى به الاطناب فان الله تعالى قد بين فى سور أخر كثيراً مما يكون يوم القيامة من الاهوال والشدائد وحضور الاعمال وشهود الجزاء والوقوع فى ورطة الحساب

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا
وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا

وما يأتى بعد ذلك من شقاء ونعيم فذكر الله بداية ذلك اليوم فى هذين الشرطين انشقاق السماء وتصدع الارض وانتفاشها وقذفها لما فى جوفها وترك الجواب يذهب فيه السامع ماشاء من المذاهب حتى يمر بذهنه جميع ما ورد من حوادث ذلك اليوم وفى هذا من التهويل ما ربما لايفيده التطويل وقد يقال أن الجواب محذوف يدل عليه مايفهم من قوله يا أيها الانسان انك كادح الخ . كأنه قال اذا السماء انشقت الخ واذا الأرض مدت الخ لاقى الانسان ربه فوفاه حسابه (كادح) من الكدح وهو العمل والسعي والكسب والخدش والكدح عمل الانسان لنفسه من خير أو شر ووصل الوصف بالى اذ قال كادح الى ربك ولم يقل لربك ليدل على أنه أراد من الكدح معنى فيه سير وانتهاء كأنه يقول والله أعلم يا أيها الانسان السادر فى غلوائه الصادر فى عمله عن أهوائه الغافل عن مصيره الجائر عن جادة الحق فى مسيره لاتظن أنك خالد وأنك مقيم فيما أنت له جاهد وأنك اذ آذيت الخلق وازدريت الحق واغتررت بالحول والقوة وسلمت عنانك للشهوة ضمنت لنفسك التمتع بما تكسب والبقاء فيما فيه تتعب وتنصب كلا انك مجد فى السير الى ربك وان كنت لاتشعر بجدك أو اذ شعرت به لهوت عنه وكل خطوة فى عملك فهى فى الحقيقة خطوة الى أجلك فكل جهد وتعب يحدث فى القوى أثر ضعف ولا يزال الضعف يتبع بعضه بعضاً حتى ينتهى الى الموت الذى لامحيد عنه وهناك لقاء الله فإن الموت يكشف عن الروح غطاء الغفلة ويجلو لها وجه الحق فتعرف من الله ما كانت تنكره فقد لقيته كما يلاقى الغائب من يقدم هو عليه وما بعد الموت من رجعة الا يوم البعث يوم يقوم الناس للعرض على ملك يوم الدين كما قال « يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية » وهناك يرتفع الالتباس ويعرف كل عامل ماجر اليه عمله(فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً) والذين يؤتون كتبهم بأيمانهم هم الصالحون أهل البر وفعلة الخير ممن ذكر الله أوصافهم وأعمالهم فى الآيات الأخر (وينقلب الى أهله مسروراً) أى يرجع

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا وَيَصْلَى سَعِيرًا إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا

الى من هم من قبيله من المؤمنين الصادقين العاملين مسروراً بما لاقاه من سهولة الحساب والنجاة من العقاب . أما الذى يؤتى كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبوراً أى يقول واثبوراه أى واهلاكاه فهو يتمنى أن يهلك بأن يموت ويفقد الشعور بما يلقاه كقوله ياليتنى كنت تراباً (ويصلى سعيراً) يقاسى حر نار شديدة اللذع والاحراق (انه كان فى أهله) وقبيله من أمثاله (مسروراً) بما كان فيه من الترف والنعيم ومعاقرة اللذات ومداعبة الشهوات فاليوم ينعكس عليه حاله ويسوء مآله ويجد حزناً بدل سرور وألماً مكان لذة والحساب اليسير السهل أن تعرض عليه أعماله فيعرف منها مايسر نسبته اليه وما قد يؤاخذ عليه ثم لايناقش ولا يعترض بما يسوءه ويشق عليه . أما الكلام فى ايتاء الكتاب باليمين أو وراء الظهر فاليك مايليق منه بكتاب الله وحكمته الباهرة اليمين تذكر فى كتاب الله عبارة عن القوة أو اليمن والخير قال الله تعالى فى سورة الصافات «وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا أنكم كنتم تأتوننا عن اليمين قالوا بل لم تكونوا مؤمنين» قال صاحب الكشاف بعد أن ذكر شرف اليمين وما يناط بها من الاعمال « واستعيرت لجهة الخير وجانبه فقيل أتاه عن اليمين أى من قبل الخير وناحيته فصده عنه وأضله » وقال البيضاوى « عن أقوى الوجوه وأيمنها أو عن الدين أو الخير » وجاء فى الكشاف أيضاً « وجاء فى بعض التفاسير من أتاه الشيطان من جهة اليمين أتاه من قبل الدين فلبس عليه الحق ومن أتاه من جهة الشمال أتاه من قبل الشهوات ومن أتاه من بين يديه أتاه من قبل التكذيب بالقيامة وبالثواب والعقاب ومن أتاه من خلفه خوفه الفقر على نفسه وعلى من يخلف بعده فلم يصل رحماً ولم يؤد زكاة » وقال فى سورة الحاقة « ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين »أى لو ادعى علينا شيأ لم نقله لقتلناه صبراً قال البيضاوى « وهو تصوير لاهلاكه بأفظع مايفعله الملوك بمن يغضبون عليه وقيل اليمين بمعنى القوة » وقال البيضاوى فى تفسير قوله فراغ عليهم ضربا باليمين « تقييده

إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ

بالىمين للدلالة على قوته لأن قوة الآلة تستدعى قوة الفعل » فاذا استعملت اليمين لتمثيل القوة قابلتها اليسار أو الشمال فى تصوير الضعف وكذلك يقال فى الخير أو الشر وما يقابلها ثم مما لايحتاج الى بيان أن اليمين هنا آلة الأخذ لا آلة الاعطاء لأنها مضافة الى ضمير العبد فيكون المعنى فأما من أوتى كتابه فأخذه أو تناوله بيمينه فكأنه يقول فأما من عرض عليه كتابه وقدم اليه سجل أعماله فتناوله بيمينه فامره كيت وكيت ومن يتناول شيأ بيمينه يكون قد توجه اليه بعزمه واندفع نحوه بقوة نفسه بخلاف من يتناول مايعطاه ويأخذه بيساره فان مد اليسار اليه دليل كراهته له وأظهر فى الدلالة على الكراهة والنفور مما يعرض عليه أن يستدبره ويعرض عنه فيكون وراء ظهره فمعنى آية الحاقة والاية التى نحن بصددها فأما من عرض عليه كتابه وقدم اليه ليأخذه فاندفع اليه بعزيمة نفسه لشعوره بانه مستودع الصالحات وسجل البر والمكرمات فشأنه كذا وأما من قدم اليه كتابه وعرض عليه عمله فخزيت نفسه وخارت عزيمته فمد اليه يساره لعله لايستطيع ضبطه فيسقط منه فلا يرى مافيه أو يعرض عنه فيوليه ظهره لشعوره بانه ديوان السيآت وسجين المخازى فأمره كيت وكيت ويرشد الى ذلك ماورد من التفصيل فى سورة الحاقة فانه قال « فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه انى ظننت أنى ملاق حسابيه» ودعوة الناس الى القراءة دليل الفرح والنشاط وقوة العزيمة « وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه ولم أدر ماحسابيه ياليتها كانت القاضية ماأغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه » وهذا قول المخذول الكاره لما عرض عليه فايتاء الكتاب باليمين أو باليسار أو وراء الظهر تمثيل وتصوير لحالة المطلع على أعماله فى ذلك اليوم فمن الناس من اذا كشف له عمله ابتهج واستبشر وهو التناول باليمين ومنهم من اذا تكشفت له سوابق أعماله عبس وبسر وأعرض عنها وأدبر وتمنى لو لم تكشف له وهذا هو التناول باليسار أو وراء الظهر وبهذا اتفق المعنيان فى الآيتين ولم تبق حاجة الى الجمع بين الشمال ووراء الظهر باختراع معنى لايليق بكتاب الله كما جرى عليه كثير من المفسرين (انه ظن أن لن يحور) أى رجع فى حكمه أنه لن يرجع الى ربه فيحاسبه على ما يقترف

بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ

من ذنبه أو يثيبه على الأفضل من كسبه وفى الآية شهادة بأن المسخرين لشهواتهم وأهوائهم فى أعمالهم لايمكن أن يكونوا ظانين فضلاعن كونهم موقنين بأنهم يرجعون الى الله ليحاسبهم بل الراجح عندهم أنهم لايحاسبون أو أن الله مخلف وعده وهذا هو الذى ينسيهم ذكره عند كل جرم يجرمونه فهم وان كانوا يزعمون الايمان بالله وبوعده ووعيده يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم ويبتلون دائماً بسوء الخاتمة والعياذ بالله (بلى) ايجاب لما بعد النفى فى لن يحور أى بلى ليحورن وليرجعن الى ربه وليحاسبن على عمله فيجزى عليه الخير بالخير والشر بالشر ثم علل ذلك بقوله (ان ربه كان به بصيراً) والبصر بالشىء تمام العلم به نشأة وغاية والذى يخلق الانسان مستعداً لما لايتناهى من الكمال بما وهبه من العقل الذى لايقف عند حد فى العلم وارسال أشعة الفهم الى أسرار الكائنات ودقائق الموجودات لاينشئه هذه النشأة الرفيعة لتكون غايته غاية سائر الحيوان ممن لم يعط استعداده ولم يعد امداده بل تقضى حكمته فى هذا الخلق العظيم أن يجعل له حياة بعد هذه الحياة يستثمر فيها أعماله ويوافى فيها كماله ولو أنه أسدى الى الانسان من المواهب ما أسدى ثم تركه بعد ذلك سدى لم يكن ذلك الا من عمل الجزاف الخالى من البصر والحكمة بل من العدل والانصاف وهذا الذى فسرنا به هو الأليق بنسق الكلام دون الذى سبقنا اليه بعض قصار الافهام ولتأكيد ذلك أقسم الله بآيات له فى الكائنات ظاهرات باهرات ليدل على عظم شأنه فى وضع الكون عليها وقد تقدم أن « لاأقسم » عبارة من عبارات القسم والشفق النهار فى رأى الزجاج وبقية ضوء الشمس والحمرة من غروب الشمس الى وقت العشاء الآخرة عند غيره والنهار زمان يسعى فيه الكاسبون لتحصيل أرزاقهم والأبرار يشغلونه باصلاح أحوالهم وأحوال غيرهم وتكميل عقولهم وأخلاقهم ففيه الشفق وهو الخوف من الاخفاق فيجدر أن يسمى شفقاً وما يبقى فى الافق من الحمرة وقليل من البياض ينذرك بليل لاتدرى مايكون فيه فله من مسمى الشفق وهو الخوف نصيب ووسق أى ضم وجمع ولا يخفى عليك أن ماانتشر بالنهار يجتمع بالليل حتى

وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۝ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ۝ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ

ان جناحيك اللذين تمدهما الى العمل بياض النهار تضمهما الى جنبيك للراحة سواد الليل والغادون فى النهار يروحون بالليل والليل يضم الامهات الى أفراخها ويرد السائمات الى مناخها وبالجملة كل مانشره النهار بالحركة يضمه الليل ويجمعه بالسكون « وجعل الليل سكناً » واتساق القمر تمامه واجتماع نوره ليلة أربع عشرة أو ليلة ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة ولا يخفى ماللناس من المنافع فى هذه الامور الثلاثة التى اقسم الله بها وما فيها من الآيات الناطقة بحكمة واضع نظامها فهى جديرة أن يقسم الله بها لينبه الغافلين الى ماأودع فيها (لتركبن) قرئ بفتح الباء خطاب للانسان وبضمها خطاب للناس (والطبق) عند ابن الاعرابى الحال على اختلافها وقال الزجاج فى معنى الآية لتركبن حالا بعد حال حتى تصيروا الى الله والاحوال هى الاحياء الاول ثم الاماتة ثم البعث وقد قارب الزجاج فى تفسيره وأصل المادة « طبق » فيها المطابقة والمساواة والمعنى الذى يعول عليه لتركبن حالة بعد حالة على أن الحالة الثانية تطابق الحالة الاولى أى لتكونن فى حياة أخرى تماثل هذه الحياة التى أنتم فيها وتطابقها من حيث الحس والادراك والألم واللذة على الاطلاق أى أنها حياة حقيقية وان خالفت فى بعض شؤنها هذه الحياة الاولى ([1]) فاذا كان الله قد خلق الانسان على أن تكون له حياتان وقد أقام الدليل على ذلك من طريقة تكوينه ثم أقسم عليه فى صادق كلامه (فما لهم لايؤمنون واذا قرئ عليهم القرآن) وهو المنبه لسماع حديث الفطرة الصارف الى داعي الغريزة (لايسجدون) لايستكينون ولا يخضعون لاتظن أن قرع القرآن لم يكسر أغلاق قلوبهم ولم يبلغ صوته أعماق ضمائرهم بلى قد بلغ وأقنع فيما بلغ ولكن العناد هو الذى يمنعهم عن الايمان ويصدهم عن الاذعان فليس منشأ التكذيب قصور الدليل وانما هو تقصير المستدل

---

(١) هذا دخول على قوله تعالى فالهم لايؤمنون وهو بمنزلة التفسير لمعنى الفاء اهـ منه

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ۝ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝

سورة البروج مكية وهى اثنتان وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ

واعراضه عن هدايته فالاضراب فى قوله (بل الذين كفروا يكذبون) يرمى الى محذوف من القول يدل عليه السابق واللاحق (والله أعلم بما يوعون) أى بما يجمعون فى صدورهم من الاعراض والجحود والحسد والبغى (فبشرهم بعذاب أليم) جزاء لهم على اعراضهم عن الأدلة القائمة لهم من أنفسهم ومن بين أيديهم واصرارهم على سيء العمل وفاسد الاعتقاد أما الذين أصلحوا اعتقادهم بالايمان الصادق القائم على الدليل الصحيح المستمد من الوجدان الفطرى واستقاموا فى عملهم على النهج الواضح فى العمل الصالح فلهم أجر لا ينقطع فالاستثناء فى (الا الذين آمنوا) منقطع كأنه قال لكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر الخ ولهذا جاء قوله لهم أجر بغير فاء وغير ممنون أى غير مقطوع والله أعلم

(البروج) جمع برج يطلق فى اللغة على الحصن وعلى القصر وعلى البروج الاثنى عشر التى ترى صورها فى الاشكال الحاصلة من اجتماع بعض الكواكب على نسب خاصة وتنتقل فيها الشمس فى ظاهر الرؤية وهى ستة فى شمال خط الاستواء وستة أخرى فى جنوبه فأما التى فى شماله فهى الحمل والثور والجوزاء وهذه الثلاثة تقطعها الشمس فى ثلاثة أشهر وهى فصل الربيع أوله عند ماتكون الشمس فى الحمل فى ٢٠ مارث أو ٢١ مارث أو ١٢ برمهات أو ١٣ برمهات وتنتهى عند ماتكون فى آخر الجوزاء فى ٢٠ أو ٢١ يونيه و ١٤ بؤنه ثم تبتدىء أشهر الصيف

وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ

من ٢١ أو ٢٢ يونيه عند ماتدخل الشمس فى برج السرطان ثم تنتقل الى الأسد ومن الأسد الى السنبلة وتكون فى نهاية هذا البرج فى ٢٢ سبتمبر وهو آخر فصل الصيف وبالسنبلة تتم الستة الشمالية وأول الستة الجنوبيـة برج الميزان وبحلول الشمس فيه يبتدىء الخريف فى ٢٣ أو ٢٤ سبتمبر و ١٤ توت ثم تنتقل منه الى العقرب ومن العقرب الى القوس وفى نهايته ينتهى الخريف ويبتدىء الشتاء عند حلول الشمس فى برج الجدى فى ٢٢ أو ٢٣ دسمبر و ١٣ أو ١٤ كيهك ثم تصعد منه الى الدلو ومن الدلو الى الحوت وهو آخر البروج الجنوبية وفى نهايته ينتهى الشتاء ويبتدىء الربيع الثانى عند حلول الشمس فى الحمل مرة ثانية وهكذا وقد فسرت البروج فى الآية بالنجوم وبالبروج المذكورة وبالقصور على التشبيه ولا ريب فى أن النجوم أبنية فخيمة عظيمة فيصح اطلاق البروج عليها تشبيهاً لها بما يبنى من الحصون والقصور فى الارض (واليوم الموعود) هو يوم القيامة لأن الله وعد به ولما نصل اليه والشاهد والمشهود كل ماله حس يشهد به وكل محس يشهد بالحس كما هو حقيقة معنى اللفظ أقسم سبحانه أولا بما فيه غيب وشهود وهو السماء ذات البروج فان كواكبها مشهود نورها مرئى ضوءها معروفة حركاتها فى طلوعها ومغيبها بحس البصر والسماء ماعلاك مما تسميه بهذا الاسم وفيه البروج تشاهدها ولكن فيها غيب لاتعرفه بالحس وهو حقيقة الكواكب وما أودع الله فيها من القوى وما أسكنها من الملك أو غيره كل ذلك غيب لاتدركه حواسنا وان وصل الى الاعتقاد بشىء منه عقلنا ثم أقسم جل شأنه بما هو غيب صرف وهو اليوم الموعود لأنه أخبرنا بأنه سيكون وعما يكون فيه من حوادث البعث والحساب والعقاب والثواب ولكن شيأ من ذلك لايمكن أن نشهده فى حياتنا هذه وبعد ذلك أقسم بما هو شهادة صرفة وهو الشاهد أى صاحب الحس فانه مرئى والمشهود وهو ماوقع عليه الحس فكأنه جل شأنه أقسم بالعوالم كلها مع هذا التقسيم البديع ليلفتك الى مافيها من العظم والفخامة لتعتبر بما حضرك وتبذل الوسع فى درك مااستتر عنك وتستعد لما يستقبلك روى عن الحسن فى تفسير قوله وشاهد ومشهود أنه قال « مامن يوم الا وينادى انى يوم جديد وانى على مايعمل فىّ شهيد

قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝
وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ
يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ

فاغتنمني فلو غابت شمسي لم تدركني الى يوم القيامة» أما المقسم عليه فمحذوف دل عليه مايذكره فى قوله (قتل أصحاب الاخدود الخ) وحذفه لطوله مع تبادره للذهن عند أهل اللسان فكأنه قال أقسم بهذا الكون العظيم و بذلك اليوم الذى يهلك فيه مايهلك ويقوم الناس لرب العالمين لقد ابتلى من قبلكم من المؤمنين الموحدين ببطش أعدائهم واشتدادهم فى ايذائهم حتى خدّوا لهم الاخاديد وملؤها بالنيران وقذفوهم فيها ولم تأخذهم بهم رأفة بل كانوا يتشفون برؤية مايحل بالمؤمنين وأقسم لقد صبروا ولقد انتقم الله ممن أوقع بهم وأخذه بذنبه أخذ العزيز المقتدر ولئن صبرتم ليوفينكم أجركم وليأخذن الله أعداءكم ولينزلن بهم من بطشه ما لا قبل لهم به فهذا كله قد فهم من الآيات الآتية جواباً للقسم وقد أقام مقام الجواب حكاية مثل الماضين ووعيده للكافرين ووعده للصالحين وما بعد ذلك تثبيتاً لقلوب المؤمنين وحملاً لهم على الصبر والمجاهدة فى سبيله (الأخدود) الخد فى الارض وهو الشق وقتل أصحابه أى أخذوا بذنوبهم ونزل بهم نكال الدنيا وعذاب الآخرة وأصحاب الأخدود قوم كافرون ذوو بأس وقوة أصابوا قوماً مؤمنين غاظهم ايمانهم فحملوهم على الكفر واكرهوهم أن يرتدوا اليه فأبوا فشقوا لهم شقاً فى الارض وحشوه بالنار وجاؤا بالمؤمنين واحداً واحداً وألقوهم فى النار وهؤلاء القساة قعود على جوانب الشق حول النار يشاهدون احتراق الاجساد الحية وما تفعل بها النيران فقوله (النار) بدل من الاخدود أى أن أصحاب الاخدود هم أصحاب النار ذات الوقود أى الشديدة لها من الحطب الكثير مايشتد به لهبها (والقعود) جمع قاعد أى قاعدون حولها ينظرون الى مايصلاه المؤمنون لايغمضون جفناً ولا يصرفون نظراً حتى كأنهم يريدون أن يستثبتوا فى أذهانهم أطوار العذاب ووقائعه ليؤدا به شهادة وذلك منتهى القسوة (وما نقموا منهم) أى ما عابوا

الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ .

عليهم ولا كان للمؤمنين ذنب اليهم سوى أنهم آمنوا بالله (العزيز) الذى لا تغلب قوته ولا يفلت أحد من قدرته (الحميد) الذى يحمد على كل حال وكل فعاله حسان حتى لو أصابك وأنت مؤمن به ماظاهره النقمة فهو اما تهذيب لك ليربيك بالصبر أو ابتلاء لقلبك ليعظم لك فيه الأجر أما تعيين أصحاب الاخدود وأى كانوا ومن هم أولئك المؤمنون وأين كان منزلهم من الارض فقد كثرت فيه الروايات والاشهر أن المؤمنين كانوا نصارى نجران عند ماكان دينهم دين توحيد ليس فيه حدث ولا بدعة وأن الكافرين كانوا أمراء اليمن أو اليهود الذين لا يبعدون عن هؤلاء فى حقيقة الوثنية غير أن المؤمن لايحتاج فى الاعتبار واشعار الموعظة قلبه الى أن يعرف القوم والجهة وخاصة الدين الذين كان عليه أولئك أو هؤلاء حتى يطير وراء القصص المشحونة بالمبالغات والاساطير المحشوة بالخرافات وانما الذى عليه هو أن يعرف من القصة ماذكرناه أولا ولو علم الله خيراً فى اكثر من ذلك لتفضل علينا به وقال (الذى له ملك السموات والأرض) ليدل على أنه لامفر لأولئك الظالمين من سلطانه وقوله (والله على كل شىء شهيد) ليقرر أنه عليم بكل مايكون من خلقه فلا تخفى عليه خافية من أفعالهم وهو مجازيهم عليها (فتنوا المؤمنين) أى بلوهم بالأذى وامتحنوهم بالتعذيب ليردوهم عن دينهم (ولهم عذاب الحريق) معطوف على قوله فلهم عذاب جهنم عطف التفسير والتوضيح مع التأكيد وزيادة التهويل كما تقول لمن قرف ذنباً ستلقى مايستحقه جرمك وستلقى حبساً فى السجن وغلا بالحديد فالعذاب الذى أعد لهم فى جهنم هو عذاب الحريق والذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يكفوا عن ايذائهم وثبتوا على كفرهم وعنادهم حتى أخذهم الموت وأوعدهم الله أن يعذبهم فى جهنم بالحريق هم الضالون من كل قوم الذين يؤذون أهل الحق والدعاة اليه من كل أمة حرصاً على ماألفوا من الباطل

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ۞ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۞ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۞ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ۞ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ۞ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ۞ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ۞ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ

وتشيعاً للذى وجدوا عليه أنفسهم وآباءهم الأقربين على غير بصيرة ولا استشارة للعقل الصحيح . البطش الأخذ بالعنف وقوله ان بطش ربك الخ تعظيم لأمر الله جل ذكره بما فيه وعيد لأعدائه وتعزية لأوليائه فذكر شدة بطشه ليرهب قريشاً ومن معها ويعزى النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه وبرهن على سعة القدرة بقوله انه هو الذى بدأ الخلق وهو الذى يعيده وهو فى كل يوم يبدئ خلقاً من نبات وحيوان وغيرهما ثم اذا هلك أعاد الله خلقه مرة أخرى ثم هو يعيد الناس فى اليوم الآخر على النحو الذى يعلمه ثم هو الغفور لمن يرجع اليه بالتوبة وهو الودود لمن خلصت نفسه له بالمحبة وذو العرش أى صاحب العظمة والسلطان والمجيد السامى الرفيع وأصل المجد فى كلام العرب الشرف الواسع (فعال) خبر لمبتدا محذوف وهو من صيغ المبالغة أى أنه كثير الفعل لما يريده فلا يريد شيأ الا فعله طبق ارادته فاذا أراد اهلاك الجاحدين الماحكين ونصر أهل الحق الصادقين لم يعجزه ذلك وأين هؤلاء ممن سبقهم ممن كانوا أضل منهم وأشد قوة (هل أتاك حديث الجنود) أى هل بلغك قصص أولئك الجنود وأولى البأس من الاشداء الاقوياء مثل فرعون وقومه وثمود وأبطالها فقد كانوا أشد بأساً وأعظم قوة من قومك ومع ذلك فقد أخذهم الله بذنوبهم وهكذا كل من تعلق بالباطل سقط به الباطل فى الدمار وثمود قبيلة عظيمة من بائدة العرب لا يعرف من أخبارها على الحقيقة الا ماقص الله علينا منها وقد أرسل الله اليها نبيه صالحاً فكفرت به واستمرت فى تمردها على الحق والعدل حتى أهلكها الله بظلمها فقوله هل أتاك حديث الجنود استئناف قول فى ذكر عبر ماضية لو نظر فيها العاقل لاهتدى الى سنن الله فى خلقه فهل نظر منكرو أمره عليه الصلاة والسلام فى سير من قبلهم

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾

والتفتوا ببصائرهم الى حال من تقدمهم ثم أقبلوا على ما يذكرهم به فان وجدوا خيراً قبلوه وان وجدوا شراً نبذوه . لا . لم يكن منهم شيء من ذلك بل انحصر أمر أولئك الذين كفروا فى التكذيب أى أنهم غرقوا فى شهوة التكذيب فغمرهم التكذيب والولوع به حتى لم يدع لعقلهم مجالاً لنظر أو متسعاً لتدبر ولا يزالون فى تلك الغمرة حتى يؤخذوا على غرة (والله من ورائهم محيط) تمثيل لحالهم مع القهر الالهى وأنهم فى قبضة العزة لا يفلتون منها ولا يفوتون الله ولا يعجزونه كما لا يفوت الشيء ما يحيط به (بل هو قرآن مجيد) أى شريف رفعه على غيره علو أسلوبه وخلوص ما فيه للحق الذى لا يشوبه باطل واتيانه بالجملة مصحوبة بحرف الاضراب يشير الى ما أشعر به استغراقهم فى التكذيب من التماسهم العذر فى عدم الايمان به من أنه أساطير الاولين وان ماجاء به بدعة فى الدين لم يعرفها آباؤهم السابقون فدفع ذلك بقوله بل هو الخ واللوح المحفوظ شيء أخبر الله به وأنه أودعه كتابه ولم يعرفنا حقيقته فعلينا أن نؤمن بأنه شيء موجود وأن الله قد حفظ فيه كتابه ايماناً بالغيب وأما دعوى أنه جرم مخصوص فى سماء معينة ووصفه بما جاء فى روايات مختلفة فهو مما لم يثبت عن المعصوم صلى الله عليه وسلم بالتواتر فلا ينبغى أن يدخل فى عقائد أهل اليقين من المؤمنين وما أجدرنا لو أردنا التأويل بأن نأخذ بما قيل من أن اللوح المحفوظ هو لوح الوجود الحق ومعانى القرآن وقضاياه الشريفة لما كانت لا يأتيها الباطل ولا يدانيها الخطأ كانت ثابتة فى لوح الواقع المحفوظ الذى لا حق الا ما وافقه ولا باطل الا ما خالفه ولا باقى الا ما رسم فيه ولا ضائع الا ما لم ينطبق عليه

سورة الطارق مكية وهي سبع عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ

(والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب) يقسم سبحانه بالسماء وقد قلنا أنها كل ما علانا فهو قسم بالعالم العلوى وما فيه ثم خصص بعض ما فى ذلك العالم السماوى وأقسم بالطارق والطارق عندهم كل ما أتاك ليلا ولما كان اللفظ عاماً والمقسم به كائن معين وشيء خاص مما يصدق عليه الطارق أراد أن يبين ماقصد منه بما يدل على تفخيم أمره وتعظيم شأنه فقال (وما أدراك ما الطارق) وهو استفهام يقصد به فى عرف خطابهم تعظيم المستفهم عنه كأنه فى فخامة شأنه مما لاتمكن احاطة الادراك به فيقال وما الذى يدريك ماهو كذا والنجم الثاقب جنس النجم الذى يثقب ضوؤه الظلماء كأن الظلام جلد أسود والنجم يثقبه وانما عظم الله أمره لما فيه من الهداية الحسية والمعنوية والشؤون الأخرى التى يعلمها الله ويعلمها الراسخون فى علوم أسراره فى خليقته وانما سمى النجم الثاقب بالطارق لأنه لايظهر الا ليلا وضوء الشمس فى النهار يخفيه (ان كل نفس لما عليها حافظ) قرئ لما بالتشديد ولما بالتخفيف والمشددة بمعنى الا وان معها تكون نافية والمخففة مركبة من اللام وما الزائدة فى الاعراب وان كانت لمعنى التأكيد وتكون ان مخففة من ان وعلى كلتا القراءتين فالمعنى أن كل نفس عليها حافظ ورقيب يراقبها فى جميع أطوار وجودها حتى تنتهى الى أجلها وذلك الحافظ الرقيب هو الله وهذا هو المقسم عليه فالله جل شأنه يقسم لنا أن كل نفس من الانفس عليها رقيب وليس فى النفوس نفس أهملت من رعاية ذلك الرقيب المدبر لشؤونها فاذا ارتاب مرتاب فى ذلك (فلينظر الانسان مم خلق الخ) فقوله فلينظر الانسان بمنزلة الدليل على الدعوى المقسم عليها زياده فى التأكيد ووجه ذلك أن الماء الدافق

خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ

من المائع الذى لاتصوير فيه ولا تقدير للآلات التى يظهر فيها عمل الحياة كالأعضاء ونحوها ثم أن هذا السائل ينشأ خلقاً كاملا كالانسان مملوءا بالحياة والعقل والادراك قادراً على القيام بخلافته فى الارض فهذا التصوير والتقدير وانشاء الاعضاء والآلات البدنية وايداع كل عضو من القوة مابه يتمكن من تأدية عمله فى البدن ثم منح قوة الادراك والعقل كل هذا لايمكن أن يكون بدون حافظ يراقب ذلك كله ويدبره وهو الله جل شأنه ويجوز أن يكون قوله فلينظر الانسان مم خلق من قبيل التفريع على ماثبت فى القضية الاولى كأنه يقول فاذا عرفت أن كل نفس عليها رقيب فمن الواجب على الانسان أن لايهمل نفسه وأن يتفكر فى خلقه وكيف كان ابتداء نشوئه ليصل بذلك الى أن الذى أنشأه أول مرة قادر على أن يعيده فيأخذ نفسه بصالح الاعمال والاخلاق ويعدل بها عن سبل الشر فان عين الرقيب لاتغفل عنها فى حال من الاحوال والصلب هو كل عظم من الظهر فيه فقار ويعبر عنه فى كلام العامة بسلسلة الظهر وقد يطلق بمعنى الظهر نفسه اطلاقاً لاسم الجزء على الكل والترائب موضع القلادة من الصدر وكنى بالصلب عن الرجل وبالترائب عن المرأة أى أن ذلك الماء الدافق انما يكون مادة لخلق الانسان اذا خرج من بين الرجل والمرأة ووقع فى المحل الذى جرت عادة الله أن يخلقه فيه وهو رحم المرأة فقوله (يخرج من بين الصلب والترائب) وصف لابد من ذكره لبيان أن الانسان انما خلق من الماء الدافق المستوفى شرائط صحة الخلق منه .

بعد مالفت الانسان ووجه نظره الى بدء نشأته ليعلم أنه فى أطوار خلقته ومدة بقائه فى قبضة مدبر حفيظ عليه ساقه الى نتيجة أخرى لذلك النظر يسهل الوصول اليها بعد احكامه وهى أن الذى قدر على خلقه من الماء الدافق الذى لاصورة فيه ولا تقدير ولا مثال فيه للشخص المخلوق قادر على أن يرجع هذا الشخص بعد موته بل هذا أسهل وأيسر لسبق مثال الشخص وتقدم صورته فى الخلق الاول فقال سبحانه

إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ.

(انه على رجعه لقادر يوم تبلى السرائر) فهذه الآية استئناف كلام لبيان نتيجة من نتائج النظر السابق أى اعلم بعد ما أحكمت نظرك أن الله قادر على ارجاعك واعادتك الى الحياة فى ذلك اليوم يوم القيامة وهو اليوم الذى تبلى فيه السرائر وتتصفح الضمائر ويظهر الطيب والخبيث فلا يبقى فى سريرة سر بل تنقلب كل خفية الى الجهر فلا يكون جدال ولا حجاج ولا يستطيع المسىء أن يقول قد كنت محسناً ولا يبقى لذوى الاعمال الا انتظار الجزاء على ماقدموا فأما حلول عقاب واما مصير الى حسن ثواب ولا تكون لأحد قوة على الافلات مما قدر له جزاء لعمله ان كان مسيئاً ولاناصر ينصره فيحميه مما حتم عليه أن يقع فيه وهذا هو معنى ترتيب قوله (فما له من قوة ولا ناصر) على قوله يوم تبلى السرائر .

بعد أن أكد سبحانه بالقسم الاول أن على الانفس رقيباً واستدل عليه وذلك اثبات للألوهية وتقرير لاحاطة علم الله وقدرته بالأنفس فى جميع أطوارها وهو الركن الاول من أركان عقائد الدين وبعد أن بين قدرته على اعادة الانسان بعد موته وهو اثبات لليوم الآخر الذى هو الركن الثانى جاء بنا الى الركن الثالث من أركان عقائد الدين وهو رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فابتدأ الكلام فيه بقسم أيضاً لشدة نزاع الجاحدين فيها حيث قال (والسماء ذات الرجع الخ)

ان الله يقسم بالامر له مزية يعرفها المخاطب اعظاماً لتلك المزية لهذا قال والسماء ذات الرجع الرجع فى لسان العرب هو الماء وأمتع شىء ينتظره المخاطبون من السماء هو الماء ماء المطر ومن فسر الرجع بالمطر لم يبعد عن المعنى والصدع النبات لأنه يصدع الارض أى يشقها وأفضل ماتميل اليه الأنفس من الارض نباتها . أقسم بالسماء التى تفيض عليكم بمائها والارض التى تقيم معاشكم

إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا

بثبَاتها ان هذا القول الذى جاءكم به محمد صلى الله عليه وسلم لقول فصل أى حق واضح لامجال للريب فيه فلا تشتبك فيه الظنون ولا تتلاحم الأوهام ولا يعود اليه نقض وهو لذلك جد الجد فلا يكون هزلاً

بعد أن بين الاركان الثلاثة لعقائد الدين وهى الالوهيـة والمعاد والرسالة أخذ يذكرنا بحال الجاحدين للحق المحاربين له بقوله (انهـم يكيدون كيداً) الـكيد المكر فاذا اسند الى الله للمشاكلة كما فى هذه الآية أريدمنه لازمه وهو الوصول بالعامل الى عاقبة عمـله من حيث لا يشعر بها وقد يكون المكر والكيد ايقاع المكروه على غرة وأخذ الممكور بهمن حيثلا يعلم كيف اخذ فيكوناستعماله فى جانب الحق على الحقيقة لأن الله يمهل الحائدين عن أمره الصادين عن سبيله ثم يأخذهم وهم نائمون على فراش الأمن وهـذا هو ما يعبر عنه فى اللغة بالمكر وان كان فى جانب المخلوق يحتاج الى حيلة لأنه لا قوة له على مثل هـذا الابالحيلة وفى جانب الخالق يتبرأ من الحيـلة لأنه جل شأنه له الحول كله والقوة جميعها يقول والله أعلم ان الذين يحرصون على ما كانوا عليه ولا يستمعون قولك فيما تدعوهم اليه ويزينون للناس مشايعتهـم على أهوائهـم ويموهون الأباطيل ليخدعوا بها عقولهم أولئك قوم ماكرونخادعون لا يريدون بكولا بمن ينخدع لهم الاالسوء غير أنى قد قضيت بأن لا مفر لهم من عاقبة أمرهم ولا محيد لهم عمـا تؤدى اليه سيئات أعمالهم فيصيبهم العـقاب من حيث لا يشـعرون فلا يحزنك ماترى منهم ولا تستبطئ حلول النـكال بهم بل مهلهم أى لا تستعجل عقابهم وأمهلهم بمعنى مهلهمفهو بدل منهللتأكيد أو تـكرير بلفظ آخرللتأكيد كذلك رويداً أى قليلا وفى ذلكوعيد شـديد لهم بأن ما يصيبهم قريب سواء كان فى الحياة الدنيا أو فيما بعد الموت ثم فيه الوعد للنبى صلى الله عليـه وسلم بل لـكل داع الى الحق الذى جاء به أنه سيبلغ من النجاح ما يستحقه عمله وان المناوئين له هم الخاسرون

سورة الأعلى مكية وهي تسع عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۝ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى

(سبح اسم ربك الأعلى) اسم الله فى مثل هذه الآية هو ما يعرف به والله انما يعرف لنا بصفاته فلا تعرفه أذهاننا الا بأنه العالم القادر الحكيم الى آخر مادلنا عليه النظر فى خلقه وهدانا اليه الوجدان السليم فى وصفه وهذا هو الاسم الذى يوصف بأنه ذو الجلال والاكرام فى قراءة من قرأ فى سورة الرحمن (تبارك اسم ربك ذو الجلال والاكرام) والاسم بهذا المعنى « ما يعرف به المسمى » هو الوجه فى قوله تعالى « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام » فان الوجه يعرف به صاحبه بل لا يكاد يعرف صاحب الوجه الا بوجهه والاسم بهذا المعنى هو المذكور فى قوله تعالى « وعلم آدم الأسماء كلها » أى رسوم الاشياء وما تعرف الاشياء به فاسم الله هو ما يمكن لأذهاننا أن تتوجه اليه به والله يأمرنا بتسبيح هذا الاسم أى تنزيهه عن أن يكون فيه ما لا يليق به من شبه المخلوقات أو ظهوره فى واحد منها بعينه أو اتخاذه شريكاً أو ولداً أو ما ينحو هذا النحو فلا نوجه عقولنا اليه الا بأنه خالق كل شيء المحيط علمه بدقائق الموجودات كما قال (الذى خلق فسوى) فعلينا أن نعرفه بأنه خلق الكائنات وأوجدها وسواها أى وضع خلقها على نظام كامل لا تفاوت فيه ولا اضطراب كما تراه فيما يظهر لك من خلق السموات والارض وأنه الذى قدر فهدى أى قدر لكل حى ما يصلحه مدة بقائه وهداه اليه وعرفه وجه الانتفاع بما فيه منفعة له ووجه الهرب مما يخشى غائلته وأنه الذى أخرج المرعى أى أنبت النبات جميعه وما من نبت ينبت الا وهو يصلح أن يكون مرعى لحيوان ما من الاجناس الحية ثم بعد ان أنبت النبات جعله غثاء أحوى والغثاء هو الهشيم

أو الهالك البالى والاحوى الذى يميل لونه الى السواد . ذكر بعد الخلق التسوية وبعد تقدير المصالح وتحديدها الهداية والتسوية والهداية كمالان للخلق والتقدير وأتبع اخراج المرعى بجعله غثاء أحوى وجعله غثاء انما هو افناؤه واماتته وازالة الحياة عنه وكان يلوح للذهن أن يعقب اخراج النبات بذكر كمال من كمالات وجوده كالنضرة والخضرة والترعرع وما أشبه ذلك جاء الاسلوب على هذا الوجه لان الخلق الاول عام فى الاجسام الفانية وفى العوالم الباقية كعوالم ماوراء هذه الخليقة الدنيا فكله من خلقه وكله قد سواه ووضعه على أكمل نظام فى الدنيا وفيما وراءها والتقدير لمصالح الأحياء عام شامل لما للانسان بل ولما لغيره من عالم الملك ونحوه فلتلك العوالم الروحية حياة ولحياتها شؤون مقدرة قدرها مبدعها وهداية الانسان انما هى لروحه الباقية التى لا تفنى وكذلك هداية الارواح العالية من سكان تلك العوالم التى لا نعرف منها الا ما هدانا اليه الوحى وقليلا مما أرشدنا اليه العقل هداية باق الى شؤون باقية الى أن يشاء الله فحق أن يتبع الخلق بالتسوية التى لا تفارقه ولا نهاية لها وتقدير المصالح لكل حى بالهداية التى منها مالا نهاية له كهداية الانسان وما يشبهه أما النبات فانما يعقب نموه وبلوغه الغاية منه اليبس والجفاف وصيرورته هشيما باليا وهو فى هذه الحالة لايخلو من المنفعة فانه قد يكون طعاما لكثير من انواع الحيوان وهو هشيم متغير اللون فكأنه قال الذى أحكم كل شىء صنعه ما يبقى وما يفنى

فنحن مأمورون أن نعرف الله جل شأنه بانه القادر العالم الحكيم الذى شهدت بصفاته هذه آثاره فى خلقه التى ذكرها فى وصف نفسه فى قوله الذى خلق فسوى الخ وأن لاندخل فى هذه الصفات معنى مما لايليق به كما أدخل الملحدون الذين اتخذوا من دونه شركاء له أو عرفوه بما يشبه به خلقه وانما توجه الينا الامر بتسبيح الاسم دون تسبيح الذات ليرشدنا الى أن مبلغ جهدنا ومنتهى ماتصل اليه عقولنا أن نعرف الصفات بما يدل عليها أما الذات فهى أعلى وأرفع من أن تتوجه عقولنا اليها الا بما نلحظ من هذه الصفات التى تقوم عليها الدلائل وترشد اليها الآيات لهذا أمرنا بتسبيح اسمه تكليفا لنا بما يسعه طوقنا والله أعلم

بعد ان أمر الله نبيه بتسبيح اسمه وعلم أمته المأمورة بأمر الله له كيف يمكنها أن تعرف الاسم الذى تسبحه على نحو ما ذكرنا وعد نبيه صلى الله عليه وسلم بانه

سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ

سيقرئه من كتابه ما فيه تنزيه الله وتبيين ما أوجب أن يعرف من صفاته ومافيه تشريع لأحكامه ووعده بأن ما يقرئه اياه لا ينساه فقال (سنقرئك فلا تنسى) أى سننزل عليك كتابا تقرأه ولا تنسى منه شيأ بعد نزوله عليك ولما كان الوعد على وجه التأبيد واللزوم ربما يوهم أن قدرة الله لاتسع تغييره وأن ذلك خارج عن ارادته جل شأنه جاء بالاستثناء فى قوله (الا ماشاء الله) فانه اذا أراد أن ينسيك شيأ لم يعجزه ذلك فالقصد هو الى نفى النسيان رأسا وقالوا ان ذلك كما يقول الرجل لصاحبه « أنت سهيمى فيما أملك الا ماشاء الله » لا يقصد استثناء شىء وهو من استعمال القلة فى معنى النفى وعلى ذلك جاء الاستثناء فى قوله تعالى فى سورة هود « وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ » أى غير مقطوع فالاستثناء فى مثل هذا للتنبيه على أن ذلك التأبيد والتخليد بكرم من الله وسعة جود لا بتحتيم عليه وايجاب وأنه لو أراد أن يسلب ما وهب لم يمنعه من ذلك مانع وما ورد من أنه صلى الله عليه وسلم نسى شيأ كان يذكره فذلك ان صح فهو فى غير ما أنزل الله عليه من الكتاب والاحكام التى أمر بتبليغها وكل ما يقال غير ذلك فهو من مدخلات الملحدين التى جازت على عقول المغفلين فلوثوا بها ماطهره الله فلا يليق بمن يعرف قدر صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم ويؤمن بكتاب الله أن يتعلق بشىء من ذلك وقوله (انه يعلم الجهر ومايخفى) تأكيد للوعد مع الاستثناء أى ان الذى وعدك بانه سيقرئك وأنه سيحفظك ما تقرأ فلا تنساه عالم بالجهر والسر فلا يفوته شىء مما يكون فى نفسك وهو مالك قلبك وعقلك وخافى سرك وفى قدرته أن يحفظ عليك ما وهبك وان كان ذلك من خفيات روحك ولو شاء لسلبه ولن تستطيع دفعه لانك لا تستطيع أن تخفى عنه شيأ

ولما كان فى الوعد بالاقراء الوعد بتشريع الاحكام كما ذكرنا وقد يكون فى الاحكام مايصعب على المخاطبين احتماله أردف ذلك الوعد بما يزيده حلاوة فى ذوق النفس

وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ۞ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ۞ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى ۞ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۞ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ۞ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى

فقال (ونيسرك لليسرى) أى نوفقك للشريعة السمحة التى يسهل على النفوس قبولها ولا يصعب على العقول فهمها

بعد ما وعده بذلك الفضل العظيم أخذ يأمره بتذكير عباده وتنبيههم من غفلاتهم وتوجيههم الى ما هو خير لهم من تنزيه اسم الله تعالى والاستعداد لامتثال أوامره والتزام أحكامه فقال (فذكر ان نفعت الذكرى) وأشار بقوله ان نفعت الذكرى الى ما عليه حال أهل الباطل القائمين على ما ورثوا عن آبائهم والى جمودهم وصلابة جهلهم وان الذكرى ربما لا تنجح فيهم قالوا « وذلك كما تقول للواعظ عظ المكاسين ان سمعوا منك » وليس الشرط قيداً فى الأمر فقد أجمع أهل الدين سلفهم وخلفهم على أن الامر بالتذكير عام نفعت الذكرى أم لم تنفع وعمله صلى الله عليه وسلم شاهد على ذلك ولذلك أردف هذا الأمر بقوله (سيذكر من يخشى) فالذكرى نافعة حتما فى فريق من الناس وهو الذى يخشى الله ويخشى عاقبة الجحود والعناد مع ظهور الدليل ووضوح وجه الحق وانما يتجنب الذكرى ولا ينتفع بها الاشقى الذى غلبه شقاؤه وحق عليه الخذلان باعراضه عن النور الساطع والبرهان القاطع وهذا الفريق الذى لا يخلو منه زمن سيلقى من الله جزاءه كما قال (الذى يصلى النار الكبرى) وصف النار بالكبرى لأنها نار تلك الدار الآخرة وهى أشد ايلاماً لمن يعذبون بها من هذه النار التى نعرفها فتلك أكبر من هذه ثم انه من شقى ولقى عذابه بتلك النار يخلد فيها لا ينقطع عذابه عند غاية ولا يجد لآلامه نهاية فهو لا يموت فيستريح ولا يحيا حياة طيبة فيسعد فنفى الحياة لا يناقض نفى الموت لأن الحياة المنفية هى الحياة التى يرغب فيها ويتمنى صاحبها أن تدوم وحياة المعذب بتلك النار الكبرى ممقوتة عند صاحبها يتمنى لو فقدها فى كل لحظة تمر عليه فكأنها ليست بحياة. اياك أن تنخدع بما يقوله أولئك الذين يلبسون لباس العلماء ويزعمون مزاعم

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى

السفهاء من أنه لا يجب عليهم التذكير ولا النصح العام لعامة المسلمين لأن التذكير لا ينفع والنصح لا ينجع ويحتجون بقوله تعالى فذكر ان نفعت الذكرى فقيد الأمر بالنفع فان ذلك منهم ضلال وتضليل لأن الشرط انما ذكر لما بيناه ولوصح قولهم لما وجب التذكير فى وقت من الأوقات لأنه لا يخلو زمان من معاندين ولا يسلم قائل من جاحدين وقد يعرف بعضهم انه انما ينطق عن هوى ولكنه يدافع عن جهله ويحتج لكسله وجبنه ويجب أن يزين نفسه فى أعين الناس وان اوقعها فى سخط الله . بعد أن وصل وعيد الاشقياء بذكرهم عاد الى وعد أهل الخشية بالفلاح فقال (قد أفلح من تزكى) وتزكى تطهر من دنس الرذائل ورأسها جحود الحق وقسوة القلب والفلاح الفوز بالسعادة فى الدارين وانما يناله من طهرت نفسه وزكا سره وصفا قلبه (وذكر اسم ربه فصلى) أى لاحظ بسره ما يعرف من ربه بأن يحضر فى قلبه صفاته العلية فخشع فصلى ههنا بمعنى خشع ولجأ الى الله فهو كقوله تعالى «انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم» وقد يكون مع الخشوع صلاة من الصلوات المكتوبة أو جميعها وانما عبر عن الخشوع بالصلاة لأنه لبها والمقصود منها وهى بدونه شبح بلا روح

يقول السامعون لهذا الوعد الكريم ممن قست قلوبهم ولم يأخذوا من العبادات الا بصورها وظنوا أن ذلك غاية ما يطالب الله به عباده نحن المتطهرون ونحن الذاكرون ونحن المصلون فنحن المفلحون فيرد الله قولهم وينفى زعمهم باثبات أنهم كاذبون وفى زعمهم واهمون ويحتج عليهم بقوله (بل تؤثرون الحياة الدنيا) ولوصح قولكم لآثرتم الآخرة وهى خير وأبقى وايثار الحياة الدنيا تقديم ملاذها والاشتغال بها والاتفاق فيها مع الانصراف عما يعد للسعادة فى الدار الآخرة أراد الله أن يؤيد الحق الذى يوحيه الى نبيه باثبات أنه هو بعينه الحق الذى ذكر فى صحف ابراهيم وموسى فدين الله واحد وأمره واحد ووعده ووعيده واحد

سورة الغاشية مكية وهي ست وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ

وانما تختلف صوره وتتعدد مظاهره فاذا كان المخاطبون قد آمنوا بابراهيم أو بموسى فعليهم أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم لأنه لم يأت الا بما جاء فى صحفهم وانما هو مذكر أو محى لما مات من شرعهم . والاشارة فى هذا الى ما تضمنه قوله قد أفلح من تذكى وذكر اسم ربه فصلى

الغاشية هى الداهية التى تغشى الناس بشدائدها وتغمرهم أهوالها والمراد منها هنا يوم القيمة أى هل سمعت قصة يوم القيمة وما يقع فيه وهو استفهام لتعظيم الامر مع تقريره (وجوه يومئذ خاشعة) أى يظهر عليها الذل والخزى النازل بأصحابها وهكذا يقال فيما بعد أو عبر بالوجوه عن الأشخاص فالذل لهم أى أناس يوم تغشى الغاشية أذلاء (عاملة ناصبة) وقع منها عمل فى الدنيا وأصابها فيه نصب أى تعب ولم تستفد من عملها سوى نصبها فأثر الخيبة وحبوط العمل ظاهر عليها ولا حاجة للقول بأنها عاملة ناصبة فى ذلك اليوم نفسه فان عاملة ناصبة بمنزلة قوله حابطة أعمالها أو جعلت أعمالها هباء منثوراً وهذا هو الذى يقع يومئذ وانما يجب اختيار هذا المعنى لاتفاقه مع بقية الآيات فى غير هذه السورة ولأن هذه الآية تقابل قوله فى أهل الجنة لسعيها راضية وذلك السعى هو الذى كان فى الدنيا (تصلى ناراً حامية) صلى النار قاسى حرها وهذه الوجوه تعذب بتلك النار لأن أعمالها فى الدنيا كانت خاسرة غلب عليها الشر وجانبها أو قل فيها الخير وتلك النار الحامية الحارة لا نعرف كنهها ولا كيفية ايقادها ولكنا نؤمن بها وبأن عمال السوء وحلفاء الباطل يصلونها (العين) ينبوع الماء (والآنية) الشديدة الحرارة من أنى الماء يأنى اذا سخن وبلغ

لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ
وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ

فى الحرارة غايتها فاذا عطش أهل النار عطشهم الخاص بهم فى تلك الدار وطلبوا ما يطفئ لهب ظمئهم جيء لهم بماء من ينبوع بلغ ماؤه من الحرارة غايتها فهو لا يطفئ لهباً ولا ينقع غلة فاذا خوت بطونهم وأحسوا من الجوع ما يدفعهم الى طلب الطعام ف (ليس لهم طعام الا من ضريع) قال الفراء الضريع هو نبت يقال له الشبرق وأهل الحجاز يسمونه الضريع اذا يبس قالوا وهو مرعى سوء لا تعقد عليه السائمة شحماً ولا لحماً وان لم تفارقه الى غيره ساءت حالها والضريع أيضاً القشر الذى على العظم تحت اللحم وقيل هو جلد على الضلع وعلى كل حال فهو طعام ردىء (لا يسمن ولا يغنى من جوع) أى اذا طلب أهل النار الطعام ليدفعوا به ما يصيبهم من ألم الجوع الذى يلائم عالمهم الأخروى وحياتهم فى تلك الدار الباقية قدم اليهم من الطعام ما لا يدفع جوعاً ولا يفيد سمناً أى ما ليس له أثر من آثار الطعام وسمى الله ذلك الطعام بالضريع تشبيهاً له به والا فذلك العالم عالم الآخرة ليس فيه نمو أبدان ولا تحلل مواد على نحو ما يكون للاحياء فى هذه الحياة الدنيا بل ذلك عالم خلود وبقاء واللذائذ فيه لذائذ سعادة والآلام فيه آلام شقاء فكل ما يقع فى ذلك العالم فانما بينه وبين ما يقع فى عالمنا وجوه مشابهة لا وحدة مجانسة وقد جاء فى الكتاب الكريم فى الحاقة «ولا طعام من غسلين» والغسلين ما شأنه أن يغسل عن الابدان كالقيح والصديد ونحوهما وفى سورة الواقعة «ثم أنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم» الى آخر الآيات وفى الدخان «ان شجرة الزقوم طعام الأثيم» وفى الصافات «أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم انا جعلناها فتنة للظالمين انها شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلعها كأنه رؤوس الشياطين فانهم لآكلون منها فمالئون منها البطون» فهذا كله يدل على أن طعام أهل النار شيء يوافق النشأة الآخرة وقد عبر الله عنه بالعبارات المختلفة وكلها مما يصور فى أذهاننا بشاعته وخبثه لتنفر منه نفوسنا وتطلب كل وسيلة للفرار منه فتبعد بذلك عن العقائد الفاسدة والأعمال الخاسرة. ولما وفى المكذبين حقهم

نَاعِمَةٌ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ

من الوصف أقبل على أهل الاخلاص والصدق يقر أعينهم بما سيلقون ذلك اليوم من فضله (ناعمة) ذات بهجة وحسن كما قال « تعرف فى وجوههم نضرة النعيم » ولا تكون كذلك الا اذا كانت متنعمة فرحة بما لاقت من جزاء سعيها فى الدنيا فهى لسعيها راضية على ضد ماعليه تلك العاملة الناصبة والجنة هى دار النعيم فى الآخرة وسميت بهذا الاسم من الاجتنان وهو الستر لتكاثف أشجارها وتظليلها بالتفاف أغصانها ووصفها بالعلو لأن خير الأماكن ما كان رفيعاً أو هى عالية رفيعة فى أوصافها ومزاياها كما سيذكر ذلك فى قوله (لاتسمع فيها لاغية) أى لاتسمع تلك الوجوه أى أولئك المخلصون الذين عبر عنهم بالوجوه أو لاتسمع أنت ايها المخاطب فى تلك الجنة لغواً أى كلاما لايعتد به ولا شتما ولا سبا ولا فحشاً ولا باطلا كل ذلك مما يصح أن يطلق عليه اسم اللغو لأنه قول لافائدة فيه وانما جاء بهذا الوصف الشريف عقب ذكر الجنة قبل ذكر بقية أنواع النعيم لدفع مايسبق الى الاذهان عند ذكر الجنة ونعيمها من أحوال أهل الترف والمولعين بالشهوات من تمضية الاوقات فى اللهو والقول اللغو واطلاق الألسن عن قيد الادب فيجعلون من متممات النعيم قذائف الهجر والفحش فقد سارع الى تنزيه نعيم اهل الجنة عما هو من لوازم نعيم غيرهم فى الدنيا وفى ذلك تنبيه للمؤمنين الى أنه لايليق بهم أن يكونوا من أهل اللغو مهما فاض عليهم النعيم واتسعت لهم النعمة بل ذلك مما ينزهون عنه حتى اذا رفعت عنهم التكاليف ووصلوا الى فضاء الرحمة الذى لاسخط فيه ولا نقمة فنعيمهم ينبغى أن يكون نعيم أهل الفضل والجد لا نعيم أهل الجهل والحمق فاعتبر بهذه الحكمة ثم انظر كيف قدم من الأوصاف للجنة وضروب نعيمها ماهو روحانى يليق بأرباب النفوس العالية والمقامات الرفيعة فى العرفان وكمال الوجدان فذكر الرضا بالسعى ولذته فوق اللذائذ فانه لا لذة تفوق عند العامل لذة سروره بعمله ثم أتبعه بالتنزه عن اللغو وما لافائدة فيه وهو أسمى مايطلب الكامل أن يحيا به ثم جاء بعد ذلك بما له شبه باللذائذ الجسمانية المعهودة لنا فى هذه الحياة فقال (فيها عين جارية) أى ينبوع ماء جار والماء الجارى اذا

فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ

كان من الينابيع يكون فى العادة بارداً صافياً لهذا وصف العين بالجارية ثم فى منظر الماء الجارى من مسرة النفس ماهو معلوم . والسرر جمع سرير وهو معروف مايجلس أو ينام عليه وأفضل السرر ماكان مرفوعا عن الارض كما هو معروف فكأن تلك السرر توضع لأهل النعيم على مقربة من العين الجارية فيجلسون عليها وبجانبهم (اكواب موضوعة) على جانب العين فاذا أرادوا التمتع بلذيذ الشراب تناولوا بها من الماء والأكواب جمع كوب وهو الكوز الذى لاعروة له « مايعرف فى لسان العامة بالكباية » ثم فى الجنة غير السرر التى توضع على جوانب العيون (نمارق مصفوفة) والنمارق جمع نمرقة بضم النون وكسرها وهى الوسادة « المسماة فى عرف العامة مسنداً ومخدة » وسواء كانت هذه النمارق مصفوفة فوق الأسرة أو فى جوانب المساكن (وزرابى مبثوثة) الزرابى البسط وقيل البسط التى فيها خمل وروى عن المؤرج أنه قال فى هذه الآية « أو زرابى النبت اذا اصفر واحمر وفيه خضرة وقد ازرب » فلما رأوا الألوان فى البسط والفرش شبهوها بزرابى النبت ومبثوثة أى مبسوطة أو مفرقة هنا وهناك كما تراه فى بيوت أهل النعمة كل ذلك لتصوير النعمة والرفاهة واللذة والا فنعيم تلك الدار الآخرة مما لايشبهه فى هذه لدار نعيم . فهل آن لهؤلاء الذين يزعمون أنهم مؤمنون بالله ووعده ووعيده أن يعتبروا بهذا الترتيب الالهى وأن يقدموا الاحسان فى العمل حتى يبلغوا فيه غاية يرضون سعيهم عندها وأن يبدؤا بتنزيه أقوالهم عن اللغو وأنفسهم عن اللهو بما تلهو به الحيوانات من طعام وشراب ثم بعد أن يلبسوا من الفضائل أفضل حللها يتناولون من نعمة الله مايرفههم ويطيب عيشهم ويتمتعون بذلك المتاع الحسن . هل آن لهم أن يتدبروا كتابهم وأن يرجعوا الى سيرة نبيهم فينهضوا الى طلب ماأعد الله لهم ولا يرتكسوا فيما أركس الله فيه الأمم قبلهم

عرفت أن الكلام مسوق من أوله لتقرير أمور الآخرة وما يكون من شأن الناس يوم القيامة وفى المخاطبين منكرون جاحدون أو مقرون غافلون لاينظرون فى

أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ
وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ

عملهم الى ماهم عليه هاجمون فأراد الله اقامة الحجة على أولئك وتنبيه هؤلاء بتوجيه نظرهم الى آثار قدرته فيما بين أيديهم وما يقع تحت بصرهم من الخلق فقال (أفلا ينظرون الى الابل الخ) وانما خص الابل لأنها أفضل دواب العرب وأعمها نفعاً ولأنها على الحقيقة خلق عجيب فانها على شدتها وعظم قوتها تنقاد للضعيف ولا تمانع الصغير ثم فى تركيبها ما أعدها لحمل الاثقال ونقلها الى البلاد الشاحطة ثم هى تبرك لتحمل عن قرب ويسر ثم تنهض بما تحمل مع صبر على السير والعطش والجوع واكتفائها من المرعى بما لا يكاد يرعاه سائر البهائم وفيها غير ذلك من المزايا التى لا يماثلها فيها حيوان آخر وليس اختصاص الابل لعظم جثتها حتى يرد الفيل والفيل وان كان فيه بعض مزايا الابل فهو لا يدر اللبن ولا يؤكل لحمه ولا يسهل قياده سهولة قياد الابل . ورفع السماء امساك مافوقك من شموس وأقمار ونجوم كل منها فى مداره لا يختل سيره ولا يفسد نظامه . ونصب الجبال اقامتها علماً للسائر وملجأ من الجائر وهى فى الأغلب نزهة للناظر . وسطح الارض تمهيدها وتوطئتها ليتيسر للناس أن يقيموا عليها ويمشوا فى مناكبها وانما حسن ذكر الجبال مع السماء والجبال والارض لان هذه الجملة من المخلوقات هى مايقع تحت نظر العرب فى أوديتهم وبواديهم فحسن أن ينتظمها الذكر كما انتظمها النظر فلو نظر الجاحدون والغافلون فيما تحت نظرهم من هذه الأشياء وكيف قامت كل على حاله التى هو عليها لعلموا أنها صنعة لا توجد ولا تحفظ الا بموجد لها وحافظ وهو الله جل شأنه وأن القادر على خلق هذه الكائنات وحفظها ووضعها على قواعد الحكمة قادر على أن يرجع الناس الى يوم يوفى فيه كل عامل جزاء عمله وكما أن الله خلق ذلك كله والناس لا يعلمون طريقة خلقه وانما يعرفون منه ماشاهدوه كذلك ينشئ الله ماينشئ فى ذلك اليوم وهم لا يعرفون طريقة انشائه وانما يرون مايرون فيه كما يرون اليوم مايرون فى هذه المخلوقات فاذا كان الأمر ظاهراً جلياً وما هى الا نظرة

فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ۝ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ۝ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝

فتهجم عليهم العبرة (فذكر انما أنت مذكر) ان الفطرة سائقة بنفسها الى الاعتقاد بصانع قادر وهي ميسرة بذاتها الى الاذعان بأنه قادر على انشائها فى خلق آخر ترى فيه شقاء أو نعيا وانما قد تتحكم الغفلات وتغلب الأهواء فتحتاج النفوس الى مذكر يردها الى ماكان عساه تنساق اليه غرائزها لهذا سمى الله هذا النوع من الاستدلال تذكيراً وقوله انما أنت مذكر تحديد للأمر الذى بعث الله لأجله نبيه صلى الله عليه وسلم وهو تذكير الناس بما نسوه من أمر ربهم وليس فى سلطانه عليه السلام أن يخلق الاعتقاد فيهم ولا من المفروض عليه أن يقوم رقيباً على قلوبهم كما قال (لست عليهم بمسيطر) وقال وما أنت عليهم بجبار والمسيطر المتسلط قال بعض المولعين بالنسخ والتغيير ان هذه الآية نسخت بآيات الجهاد. كأن الجهاد شرع فى الاسلام لقهر النفوس على الاعتقاد وخفى على القائل أن القهر لايحدث ايماناً وأن الاكراه لاأثر له فى الدين وأن الجهاد ينقطع وجوبه متى خضع المحارب لأداء الجزية مع بقائه على دينه ان كان يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً فى رأى الاكثر ومن البديهى أنه لاحاجة الى القول بالنسخ فان النبى عليه السلام ليس بمسيطر على قلوب الناس سواء كان محارباً لهم أو مسالماً . وقد يشعر نفى السيطرة بأن الناس جميعاً مختارون وهم سواء فيما هم به مجزيون فحبل كل على غاربه يذهب الى حيث شاء من المذاهب ومع ماشاء من الأهواء. فقال الله رفعاً لخاطر السوء (الا من تولى الخ) أى انك وان كنت داعياً وليس لك سلطان على ماتعقد قلوبهم فالله هو المسيطر عليهم وصاحب السلطان على سرائرهم فمن تولى منهم وأعرض عن الذكرى المسوقة اليه (وكفر) أى جحد الحق المعروض عليه فالله تعالى يعذبه العذاب الاكبر فى الآخرة وقد يضم الى عذاب الآخرة عذاب الدنيا فكلمة الا بمعنى لكن وفيها الاستثناء من عموم الاحوال التى افادها نفى السيطرة ثم اكد ذلك الحكم وهو تعذيب الله لمن تولى وكفر بقوله (ان الينا ايابهم ثم ان علينا حسابهم) أى لامفر للمعرضين ولا خلاص لهم من الويل الذى

سورة الفجر مكية وهي ثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ

أوعدوا به فانهم راجعون الينا وقد حق القول منا فى عقابهم فنحن نحاسبهم على ما كسبت قلوبهم والاياب الرجوع كما رأيت والله أعلم.

كثر خلاف المفسرين والرواة فى معنى كل من الفجر وليال عشر الى آخر ما أقسم به وقد يفسر الواحد منهم الفجر بمعنى ثم يأتى فى الليالى العشر بما لا يلائمه وغالب ذلك يجرى على خلاف ما عودنا الله فى نسق كتابه الكريم وقد جرت سنة الكتاب بانه اذا أريد تعيين يوم أو وقت ذكره بعينه كيوم القيامة فى لا أقسم بيوم القيامة وكاليوم الموعود فى سورة والسماء ذات البروج وكليلة القدر فى سورتها فاذا أطلق الزمن ولم يقيد كان المراد ما يعمه معنى الاسم كما سبق فى قوله والليل اذا عسعس والصبح اذا تنفس فالفجر ههنا على هذا هو جنس ذلك الوقت المعروف الذى يظهر فيه بياض النهار فى جلد الليل الاسود وينبعث الضياء لمطاردة الظلام وهو وقت تنفس الصبح وهو معهود فى كل يوم فصح أن يعرف بالالف واللام والمراد والله أعلم من ليال عشر ليال يتشابه حالها مع حال الفجر وهى ما يكون ضوء القمر فيها مطاردا لظلام الليل الى أن تغلبه الظلمة فكأنه وضع التناسب على شىء من التقابل فضوء الصبح يهزم ظلمة الليل ثم يسطع النهار ولا يزال الضوء الى الليل وضوء الاهلة فى عشر ليال من أول كل شهر يشق الظلام ثم لايزال الظلام يغلبه الى أن يغلبه فيسدل على الكون حجبه ولما كانت هذه الليالى العشر غير متعينة فى كل شهر ذكرها منكرة وذلك أن ضوء الهلال قد يظهر حتى يغلب أول الظلمة فى أول ليلة من الشهر وقد يكون ضئيلا يغيب ضوؤه فى الشفق فلا يعد شيئا فالليالى العشر تبتدىء تارة من أول ليلة وأخرى من الليلة الثانية لذلك نكرها على أنها ليال عشر من كل شهر (والشفع والوتر) أى الزوج والفرد من هذه الليالى أيضا.

وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ

فهو يقسم بها على الجملة ثم يقسم بما حوته من زوج وفرد . ثم بعد أن أقسم بضروب من أوقات الضياء أقسم بالليل مرادا منه الظلمة وكثيراً مايطلق اسم الليل ويراد ظلمته وسريان الظلمة ودخولها على المبصرات حتى تسترها أمر معروف عند المخاطبين . ولما كان ظلام الليل واختلاط قطعة عظيمة منه بضوء القمر فى الليلة الواحدة مقصودا الى تفخيم أمره بالقسم خص الليالى التى يظهر فيها ضوء القمر مع تغلب الظلام فيها بعشر فقط والا فقد يكون ظلام فى أكثر من عشر من الشهر لكن زمنه قليل لا يليق ذكره بمقام التفخيم . وفى الفجر وتفريجه كربة الليل من جهة وتنبيه العامل الى استقبال عمله بالنهار من جهة أخرى وفى ليالى القمر واستمالتها الانفس للسمر وتيسير السير فى السفر خصوصا أيام الحر وهى أغلب أيام الحياة فى بلاد العرب ثم فى قصر مدة بقاء القمر وانتظار هجوم الظلمة وابتغاء الغنيمة مع الاستعداد للسكون عندما يرخى الظلام ستاره فى كل ذلك رغبات للانفس ورهبات وللهواجس غدوات وروحات وللامانى فيها دبيب ووثبات فهو جدير أن يقسم به كما قال (هل فى ذلك قسم لذى حجر) الحجر بكسر الحاء العقل والاستفهام للتقرير وتفخيم أمر المقسم به وليس فى هذه السورة قسم بالضوء الخالص كبياض النهار ومايكون فى ليالى القمر عند امتلائه بل ذلك سيجىء فى قوله « والشمس وضحاها والقمر اذا تلاها » فليتنبه الى هذه الدقائق حتى لا يفوت العقل ما فيها من الحقائق وقد وقع هذا القسم فى هذه السورة بعد قوله فى آخر السورة السابقة ان الينا ايابهم ثم ان علينا حسابهم وقبل قوله فى هذه السوة (ألم تر كيف فعل ربك بعاد الخ) فكان جوابه مفهوما لا يحتاج الى ذكر وفى تركه ارسال لنفس القارىء فى تأمل ما مضى وما يتبع ليجد الجواب بينهما فيتمكن المعنى منه فضل تمكن والجواب ان ناصية المكذبين لبيدى ولئن أمهلتهم فلن أهملهم ولآخذنهم أخذى الامم قبلهم . عاد جيل من العرب العاربة أو البائدة يقول النسابون انه من ولد عوص بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام وسواء صح النسب أم لم يصح فقد كان ذلك الجيل معروفا باسم عاد ويلقب أيضا بارم وبقى

ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝

مشهورا عند العرب بذلك و (ذات العماد) وصف لارم التى هى قبيلة عاد نفسها ومعنى ذات العماد سكان الخيام حلا وارتحالا أو ذات العماد الرفيعة والقوة المنيعة عبر بالعماد عن العلو والشرف والقوة وكانت منازلهم بالرمال والاحقاف الى حضرموت وقد بلغت عاد من الشدة والقوة مبلغاً لم يصل اليه سواها فى عهدها ولذلك قال (التى لم يخلق مثلها فى البلاد) والاستفهام فى ألم تر كيف فعل ربك بعاد للتذكير والتقرير وقد بين الله كيف فعل بهم فى سور أخرى من القرآن فقد جاء فى سورة الحاقة « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما » والصرصر الباردة والعاتية الشديدة الهبوب لا بركة فيها والحسوم المتتابعات المشائيم وقد يروى المفسرون هنا حكايات فى تصوير ارم ذات العماد كان يجب أن ينزه عنها كتاب الله فاذا وقع اليك شىء من كتبهم ونظرت فى هذا الموضع منها فتخط ببصرك ما تجده فى وصف ارم واياك أن تنظر فيه وثمود قبيلة من العرب البائدة كذلك من ولد كاثر « وهو المسمى فى التوراة جاثر » بن ارم بن سام وارم هو المعروف فى التوراة بآرام هكذا يذكر النسابون وسواء صح النسب أم لم يصح فثمود معروفة عند العرب باسمها ومنزلها بالحجر بين الشام والحجاز (الذين جابوا الصخر بالواد) أى قطعوا الصخر ونحتوه كما قال تعالى « وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين » فقد أنعم الله عليهم بالقوة والعقل حتى صنعوا لانفسهم بيوتا من الصخر بذلك الوادى الذى كانوا يقيمون فيه وقد يصح ما قال بعضهم ان معنى جابوا الصخر بالواد أنهم قطعوا الصخر واتخذوا منه واديا يخزنون فيه الماء لمنافعهم ولا يفعل ذلك الا أهل القوة والفهم من الامم (وفرعون) هو حاكم مصر الذى كان فى عهد موسى عليه السلام وللمفسرين فى الاوتاد اختلاف كبير وأظهر اقوالهم ملاءمة للحقيقة أن الاوتاد المبانى العظيمة الثابتة وما اجمل التعبير عما ترك المصريون من الابنية الباقية بالاوتاد فانها هى الاهرام ومنظرها فى عين الرائى منظر الوتد الضخم المغروز فى الارض بل ان شكل

الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ

هيا كلهم العظيمة فى أقسامها شكل الاوتاد المقلوبة يبتدىء القسم عريضا وينتهى بأدق مما ابتدأ وهذه هى الاوتاد التى يصح نسبتها الى فرعون على أنها معهودة للمخاطبين (الذين طغوا فى البلاد) صفة للمذكورين جميعا من عاد ومابعدها ومعنى طغيانهم فى البلاد ان كل قوم من هذه الاقوام طغوا فى بلدهم والطغيان تجاوز القدر المعروف فى العمل أو غيره وهو هنا سوء استعمال السلطان والقوة والخروج بهما عن حد القصد والمعدلة والاسراف فى هضم الحقوق اغتراراً بعظم القدرة . من أوتى القوة فسخرها لسلطان الشهوة فتناول ما ليس له ومنع الحق أهله فقد عمل على تبديد نظام الجماعة وتقطيع روابط الالفة بينهم وحمل كل نفس على اتخاذ الاثرة قاعدة عملها ومصدر سيرها فى سعيها فيكثر الفساد اذ لا معنى للفساد فى شىء الا اختلال نظامه وهلاك قوامه ومتى تحكمت الاثرة فى أنفس قوم وغفل كل واحد منهم عن ارتباط وجوده بوجود الآخر عمل بعضهم لاهلاك بعض وانتهى الامر بهم الى الامحاء من سجل الامم القائمة لهذا قال (فأكثروا فيها الفساد) بعد ان قال الذين طغوا فى البلاد ثم جاء بعد ذكر كثرة الفساد بعاقبتها التى لا مفر للامم منها فقال (فصب عليهم ربك سوط عذاب)والسوط لفظ شاع استعماله فى الجلد المضفور الذى يضرب به وان كان فى الاصل اسما للخلط والمزج وقد شبه الله ما يصبه عليهم من ضروب العذاب التى ذكرها فى كتابه فى مواضع أخر بالسوط لأن السوط يضرب به فى العقوبات والله تعالى انما ينزل العذاب بالامم عقوبة لها على مايفرط منها وصب السوط انزاله بشدة مع توالى ضرباته بلا انقطاع . المرصاد المكان الذى يقوم به الرصد وهو القوم الذين يرصدون أى يرقبون بالخير أو الشر والكلام على التمثيل أى ان ربك القائم بتدبير أمرك رقيب على عباده لا يفوته من شؤونهم شىء ثم هو مجازى كل عامل بعمله فلا يفلته أحد فلا يظنن أهل الطغيان الذين يكثرون فى الارض الفساد أن يتفلتوا من الله وعقابه والجملة تأكيد لجواب القسم المفهوم من سابق الكلام ولاحقه على ماسبق تقديره

فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ

أو هي تعليل لتعذيب الله من ذكر من الأمم بسبب طغيانهم وافسادهم فى أمورهم . هذا شأن ربك لايفوته من شؤن عباده نقير ولا قطمير ولا يهمل أمة تعدت فى أعمالها حدود شرائعه القويمة بل يأخذها بذنوبها أخذ العزيز المقتدر كما أن الراصد القائم على الطريق ليأخذ من يمر به بما يريده من خير أو شر لايفرط فيما رصد له فاذا أردت أن تعرف شأن الانسان وغفلته وسوء ظنه بربه فهو مايتلى عليك وبهذا البيان تعرف موقع الفاء فى قوله (فأما الانسان) الخ كأنه قال هذا شأن ربك وسيتلى عليك شأن الانسان عقب ماتلوت من شأن ربك . الابتلاء الاختبار ويقال بلاه يبلوه وابتلاه يبتليه بالخير والشر ليظهر مالديه من شكر وكفر وقوله (فأكرمه ونعمه) بيان لأثر الابتلاء كما أن قوله فيما بعد فقدر عليه رزقه أى ضيقه عليه بيان لأثر الابتلاء فى الآية الآتية وبقية الألفاظ مفهومة المعنى . وحاصل ماذكر الله من شأن الانسان فى هاتين الآيتين أنه اذا أنعم الله عليه وأوسع له فى الرزق ظن أن الله قد اصطفاه لذلك ورفعه على من سواه وجنبه منازل العقوبة فيذهب مع هواه فيفعل مايشتهى ولا يبالى أكان مايصنع خيراً أم شراً فيطغى ويفسد فى الأرض وقد عبر عن هذا الظن الفاسد والغرور المهلك بقوله (فيقول ربى أكرمن) أى أن الله أكرمنى بنعمته ومن يكرمه الله لايؤاخذه على عمل يعمله واذا امتحنه الله بالفقر فضيق عليه الرزق وربما كان ذلك من الله لاعن اهانة له ولا ارادة لاذلاله بل ليمحص قلبه بالاخلاص له وليظهر قوة صبره بل لتزهر تلك القوى الجليلة التى قد تكون كامنة فيه كما تظهر آيات ذلك فى كثير من أرباب العزائم وذوى الأعمال العظائم فان الفقر لايزيدهم الا شكراً ولا تزداد فوسهم به الا شحذاً فاذا امتحن الله الأغلب من البشر بالفقر لم يستعمل صحيح الفكر ولم يعتصم بالصبر بل ذهب يقول ان ربى قد أهانن ومن أهانه الله وصغرت قيمته عنده لم تكن لله عناية بعمله فكيف يؤاخذه بما يصدر منه من شر أو يكافئه على

كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۝ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ

مايصنع من خير فلا شكره يكافأ باحسان ولا كفره يجازى بعقوبة فينطلق لذلك يكسب عيشه بأية وسيلة عنت له لايقف عند حد ولا تحجزه شريعة فيلتقى مع الجبارين فى سبيل واحدة سبيل الفجور وبخس الحقوق وافساد نظام العامة وانت ترى أن أحوال الناس الى اليوم لاتزال كما ذكر الله فى هذه الآية الكريمة فان ارباب السلطة والقوة يظنون أنهم فى أمن من عقاب الله ولا يعرفون شيأ من شرعه يمنعهم عملا مما تسوق اليه شهواتهم وانما يذكرون الله بألسنتهم ولا يعرفون له سلطانا على قلوبهم والفقراء الأذلاء قد صغرت نفوسهم عندأنفسهم فهم لايبالون بما يفعلون واذا ذكروا الله فانما هى حروف وأصوات لاتمتاز فى منفعتها عن أصوات بقية العجماوات تلك حالة الانسان الذى لم يمتعه الله بعقل سليم ودين صحيح أما الذين أنعم الله عليهم بنعمة العقل والدين فأولئك الذين ترتقى الى مثل حالهم مرتبة الانسان فيفارقون تلك الغرائز الحيوانية الأولى ويعلون الى المقام الذى لاتذهلهم فيه القوة ولا يشغلهم فيه الفقر عن مراعاة الحدود المعروفة فيما هو حق لهم أو عليهم ومعنى هذه الآية يميل الى قوله تعالى « ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا الا المصلين »

تعلم أن المخاطبين بهذه الآية كانوا يزعمون أنهم على شىء من دين ابراهيم أو أنهم كانوا يدعون أن لهم ديناً يأمرهم وينهاهم ويقربهم الى الله زلفى فاذا سمعوا هذا التهديد وذلك الوعيد ورأوا فى الخطاب ماينعى عليهم فساد غرائزهم همت نفوسهم بمدافعة مايفجعهم من ذلك وأخذت توسوس لهم بأن هذا الكلام انما ينطبق على أناس ممن سواهم أماهم فهم لم يزالوا من الشاكرين الذاكرين غير الغافلين فالله يرد عليهم زعمهم ويقيم لهم دليلا واضحاً على كذب ماتحدثهم به أنفسهم ويقول (كلا بل لاتكرمون اليتيم) الخ أى لو كان غنيكم لم يعمه الطغيان وفقيركم لم يطمس بصيرته الهوان وكنتم لاتزالون على الحال التى يرتقى اليها الانسان لشعرت نفوسكم بما عسى يقع فيه اليتيم فعنيتم باكرامه فان الذى يفقد أباه معرض لفساد طبيعته اذا أهملت تربيته ولم يعامل بما فيه اكرامه وما فيه رفع نفسه

وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ۝ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا

عن دنايا الأمور وسفاسفها ولو كنتم على ماتحدثكم به أنفسكم من الصلاح لوجدتكم الشفقة تحرك قلوبكم الى التعاون على طعام المسكين الذى لايجد مايقتات به مع العجز عن تحصيله . والتحاض تفاعل من الحض وهو الحث والترغيب وربما بسطنا القول فى حكمة الله جل شأنه فى العناية بشأن اليتيم والاكثار فى كتابه الكريم من ذكره والحث على اصلاح أمره فى محل آخر ان شاء الله واذا لم تكرموا اليتيم ولم يوص بعضكم بعضاً بطعام المسكين فقد كذبت مزاعمكم فى أنكم من قوم صالحين وانما ذكر التحاض على الطعام ولم يكتف بالاطعام فيقول ولم تطعموا المسكين ليصرح لك بالبيان الجلى أن أفراد الأمة متكافلون وأنه يجب أن يكون لبعضهم على بعض عطف بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع التزام كل لما يأمر به وابتعاده عماينهى عنه . ثم أن اهمالكم أمر اليتيم وخلو قلوبكم من الرحمة للمسكين لم يكن عن زهد فى لذائذ الحياة الدنيا كما هو شأن بعض من يسأم الحياة ولا يكون له هم الا التخلص من متاعبها فيعكف على شأن نفسه وينخزل من العالم ولا يهتم بشؤنهم بل انكم مع ذلك (تأكلون التراث أكلاً لما) والتراث الميراث واللم الشديد كما ذهب اليه جمهور اللغويين ولا حاجة الى تفسيره بمعنى الجمع ثم ارتكاب التأويل أى أنكم تأكلون المال الذى يتركه من يتوفى منكم وتشتدون فى أكله حتى تحرموا صاحب الحق من حقه (وتحبون المال) مطلقاً ميراثاً أو غيره (حباً جماً) أى كثيراً ولو كنتم ممن لم يبال بالدنيا وأهلها لتركتم مايترك الأموات لأيتامهم وفقراء أهلهم ولما شاركتموهم فى شىء لاكسب لكم فيه ولا دخل لأعمالكم فى تحصيله ولما ازداد حبكم فى المال الى الحد الذى أنتم عليه فشرهكم الى المال وقرمكم الى اللذات وانصراف أنفسكم الى التمتع بها وشعوركم بمقدار الحاجة الى المال فى تقويم شؤنكم ثم قسوة قلوبكم وشلل وجدانكم الى حد لا يألم لحال المسكين ولا ينظر الى ماتجر اليه الاستهانة بشؤن اليتامى من فساد أخلاقهم وتعطيل قواهم وانتشار العدوى منهم الى معاشريهم ومايصيب الأمة من ذلك كل هذا منكم دليل على أن ماتزعمونه من اعتقادكم بالله يأمركم وينهاكم وأن

كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ۝ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ۝ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ

لكم ديناً يعظكم زعم باطل واذا غششتم أنفسكم بدعوى أنكم تتذكرون الزواجر وتراعون الأوامر مع بقائكم على ماوصف من حالكم فإنما ذلك منكم مقال لاتصدقه فعال .

(الدك) الهدم وكسر الحائط والجبل ودكاً دكاً أى دكاً متتابعاً وصفاً صفاً أى صفوفاً متعددة (وجىء يومئذ بجهنم) هو كقوله تعالى «وبرزت الجحيم لمن يرى» أى كشفت جهنم للناظرين بعد أن كانت غائبة عنهم فكأنها كانت بعيدة وجاءت اليهم أما اسناد المجىء الى الله فى قوله وجاء ربك والملك ففيه رأى السلف رضى الله عنهم وهو أن ذلك مجىء نؤمن به ولا نطلب معناه ولكنه يمثل لنا الهيبة والعظمة وظهور السلطان الالهي فى ذلك اليوم وهو الافضل وفيه مذهب الخلف وهو أنه على تقدير وجاء أمر ربك أو أنه من قبيل التمثيل لتجلى السطوة الالهية على القلوب كما تتجلى أبهة الملك للأعين اذا جاء فى جيوشه وموا كبه ولله المثل الاعلى والتذكر استحضار ما كان منسياً والذكرى تطلق ويراد منها العظة والعبرة قال الله تعالى «ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أوألقى السمع وهو شهيد» ولا يلزم من حضور ما كان منسياً أن تحصل العبرة فان العبرة انما تكون حيث ينفع الاعتبار فلذلك قال (يومئذ يتذكر الانسان) أى عند ذلك تذهب الغفلة ويذكر الانسان الغافل ما كان منه أيام غفلته ولكن لاتكون له ذكرى أى عظة فينتفع بها و (قدمت لحياتى) أى قدمت عملا ينفعنى فى حياتى الحقيقية وهى الحياة الآخرة .

قرىء يعذب ويوثق مبنياً للمجهول أى يومئذ لا يصاب أحد بعذاب مثل العذاب الذى يصيب ذلك الانسان الذى ابطره الغنى وأفسده الفقر ولا يحبس أحد حبسه فان الوثاق معناه الشد والربط كما يكون بالسلاسل والاغلال وقرىء

يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي

الفعلان بالبناء للفاعل أى لايقع من المعذبين وصانعى العذاب مثل العذاب الذى يقع على ذلك الانسان فالمعنى واحد فى الوجهين ومعنى الآيات الكريمة أن مايزعمه الاغنياء الجبارون والفقراء الخاسرون من أنهم لربهم ذاكرون مع فراغ قلوبهم من الرأفة بالضعفاء وامتلائها بحب المال وفيضانها بالميل الى الشهوات زعم لا حقيقة له وانما يتذكرون ربهم على الحقيقة فى ذلك اليوم العظيم عند ما يشهدون الهول ويعوزهم الحول ويظهر لهم مكانهم من العذاب والنكال ولكن ليس فى هذا التذكر موعظة تحمل على العمل النافع فان تلك الدار دار جزاء لادار أعمال وانما يبقى لاولئك الخاسرين الحسرة والندامة يقول قائلهم ياليتنى قدمت لحياتى وتكرر ذكر اليوم فى قوله أولا اذا دكت الارض وقوله وجىء يومئذ بجهنم وقوله يومئذ يتذكر الانسان وقوله فيومئذ لايعذب الخ ليقوى عندك استحضاردك الارض وظهور الجلال الالهى ثم ان التنوين فى يومئذ الاولى نائب عن دكت الارض ومجىء ربك والملك وفى يومئذ يتذكر نائب عن ذلك وعن مجىء جهنم وفى يومئذ الثالثة (فيومئذ لا يعذب الخ) ينوب التنوين عما تقدم وعما تضمنه قوله يقول ياليتنى قدمت لحياتى فكانه قال وجىء يوم تدك الارض ويجىء ربك والملك صفا صفا بجهنم يوم تدك الارض ويأتى ربك ويجاء بجهنم يتذكر الانسان الخ . فيوم تهدم الارض ويأتى ربك ويجاء بجهنم ويتذكر الانسان ويقول ياليتنى قدمت لحياتى لا يعذب عذابه أحد الخ . ولا يخفى ما فى ذلك من تقوية الذكرى لمن له قلب يذكر ووجدان يشعر .

بعد أن ذكر حال الانسان وقد خلى وطبعه وحرصه وجشعه واستولت عليه رغبات جسمه وخرجت به عن سلطان العقل وحكمه ثم ذكر عاقبته وما يصير اليه فى الحياة الاخرى انتقل بنا الى ذكر الانسان اذا ارتقى عن ذلك الطبع وترفع عن مراتع

الحيوانية وأستعلى برغائبه الى المطامح الروحانية فكان فى الغنى شاكرا لايتناول الا الحق ولا يمنع صاحب الحق حقا ويعنى بحال اليتيم ويطعم المسكين ويحمل غيره على الاقتداء به فيما هو خير له ولمن حوله وكان فى الفقر صابرا لايمد يده الى ماليس من حقه ولا يأتى الدنية ولا يطلب لغيره الرزية ولا يغفل مع فقره شأن اليتيم ولا يغفل عما يألم له المسكين فاذا لم تمكنه المعونة بالمال أمكنته المساعدة بالمقال وبهذا يستحق وصف المطمئن فانه راكن الى ربه فى جميع أمره واقف عند شرعه ثابت القدم بمعرفة الحق والسلوك فى سبيله لاتزعزعه الشهوات ولا تضطرب به الرغبات ويستحق أن يخاطب باسم النفس التى هى روح تنزع الى مايليق بالروح ولا ينادى باسم الانسان الذى يشير الى مافى تكوينه من النزعة الحيوانيه لانه لم يسلطها عليه بل استخدمها لتكميل نفسه وارجاعها الى معهدها المقدس فكانت جديرة بجوار ربها وهى راضية بعملها فى الدنيا وبمرجعها فى الآخرة لانها لم تكن قط ساخطة لاهى تسخط عملها فى غناها ولاتسخط حالها فى فقرها ولا تسخط صنيع ربها بها وهى مرضية لان من كانوا معها فى الدنيا راضون عنها لحسن صنعها والله راض عنها لصلاح عملها فقال سبحانه (يأيتها النفس المطمئنة) ومفاجأة السامع بهذا النداء ضرب من ضروب ايجاز القرآن التى لاتخطر لبشر على بال فان التقى الخائف الذى يخاف مقام ربه اذا سمع ذلك الوعيد المتقدم أخذت الرهبة نفسه وأفعمت الخشية قلبه فبينا هو كذلك اذ ينقذه هذا النداء ويصعد به الى أكرم فناء ويصفه بالمطمئن ليذهب عنه الخوف وبالراضى المرضى ليبعد عنه خشية الغضب أما الشقى فقد يلهو بأنه ليس وحده فى الشقاء بل الناس فى كل مايوعد به سواء فيفجعه نداء الابرار بأوصاف الخيار الى قرب الجوار فتبغته الدهشة وتفزعه الوحشة

الرجوع الى الله تمثيل للكرامة عنده والا فالله معنا حيث كنا والدخول فى عباده أن تكون منهم والعباد الذين يستحقون نسبة الاختصاص به هم العباد المكرمون والجنة معروفة

سورة البلد مكية وهي عشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ

(لا أقسم) عبارة من عبارات القسم والتأكيد فى لسان العرب كما تقدم ذكره فى تفسير قوله تعالى فلا أقسم بالخنس فى سورة كورت (والبلد) المشار اليه هو مكة لان السورة مكية ولما يدل عليه قوله (وأنت حل بهذا البلد) والحل هو الحلال والخطاب للنبى عليه السلام ومعنى كونه حلا أنه قد استحل لاهل مكة استحلوا ايذاءه واعناته ومطاردته واستباحوا منه حرمة الأمن فى ذلك البلد الامين حتى اضطروه الى الهجرة (واولد وما ولد) عطف على هذا البلد داخل فى المقسم به والمراد منه أى والد وأى مولود من الانسان والحيوان والنبات كما يرشد اليه التنكير وكما هو مختار ابن جرير وجمع من المحققين (لقد خلقنا الانسان فى كبد) هذا هو الخبر المقصود تأكيده بالقسم المتقدم والكبد المشقة والتعب قال لبيد

ياعين هل بكيت أربد اذ * قمنا وقام الخصوم فى كبد

أى فى شدة الامر وعظم الخطب ومنه المكابدة لمقاساة الشدائد

أقسم بمكة لتفخيم شأنها وصرح بذكرها على طريق الاشارة اليها مرتين لزيادة التفخيم وأتى بجملة وأنت حل بهذا البلد واعترض بها بين العاطف والمعطوف ليفيد أن مكة عظيم شأنها جليل قدرها فى جميع الاحوال حتى فى هذه الحالة التى لم يرع أهلها فى معاملتك تلك الحرمة التى خصها الله بها وفى هذا من تنبيههم وايقاظهم من غفلتهم وتقريعهم على ماحطوا من منزلة بلدهم مافيه ثم أقسم بوالد ما وما ولد ليلفت نظرنا الى رفعة قدر هذا الطور من أطوار الوجود

وهو طور التوالد والى مافيه من بالغ الحكمة واتقان الصنع والى مايعانيه الوالد والمولود فى ابداء النشء وتكميل الناشئ وابلاغه حده من النمو المقدر له فاذا تصورت فى النبات كم تعانى البزرة فى أطوار النمو من مقاومة فواعل الجو ومحاولة امتصاص الغذاء مما حولها من العناصر الى أن تستقيم شجرة ذات فروع وأغصان وتستعد الى أن تلد بزرة أو بزورا أخرى تعمل عملها وتزين الوجود بجمال منظرها اذا أحضرت ذلك فى ذهنك والتفت الى مافوق النبات من الحيوان والانسان حضر لك من أمر الوالد والمولود فيهما ماهو أعظم ووجدت من المكابدة والعناء الذى يلاقيه كل منهما فى سبيل حفظ الانواع واستبقاء جمال الكون بصورها ماهو أشد وأجسم . انظر كيف أشار سبحانه فى القسم الى التمهيد الى المقسم عليه فكان القسم توكيدا للخبر بصيغته وتأكيدا له وبرهانا عليه باشارته فان الانسان نوع من أنواع الوالد والمولود فحق له أن يخلق فى كبد وكد ونصب لا تغفل عن موضع قوله وأنت حل بهذا البلد فانه مع مافيه من تقريع المستحلين لحرمته صلى الله عليه وسلم يشتمل على بيان أن مايصيبه من ذلك فهو من شأن الانسان وقدر قدر على كل مولود منه وفيه من تسليته صلى الله عليه وسلم عن ذلك الايذاء ماهو ظاهر ثم انه جمع بين البلد المعظم والوالد والولد مع الاعتراض بتلك الجملة ليشير الى أن مكة على مابها من عمل أهلها ستلد من الامر العظيم مايكون اكليلا لمجد النوع الانسانى وهو دين الاسلام الذى جاء به عليه الصلاة والسلام وأن العناء الذى يلاقيه من اختصه الله بوحيه انما هو العناء الذى يصيب الوالد فى تربية ولده والمولود فى بلوغ الغاية من سير نموه وفيه من الوعد باتمام نوره مافيه . ربما تقول ان كون الانسان مخلوقا فى كبد وتعب أمر مشهود وشئ معروف معهود فما الحاجة الى تأكيد الاخبار به فنقول لك فى الجواب ان هذا الخبر انما ورد لتسلية الناصب وحمله على الصبر كما يدل عليه قوله بعد ذلك وتواصوا بالصبر وتنبيه المغرور الجاهل أما الاول فانه اذا غلبه التعب وقهرته المشقة فى القصد الذى وجه عزيمته اليه أحاطت به الآلام فيتمثل له بين عينيه شخص من شقائه يخيل له وهو فى حمى الضجر أن هذا العدو يطارده وحده فيتمنى أن يكون له حظ غيره ممن سبقه أو ممن هم معه فهو على هذه الحالة

أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ۝ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ

فى أشد الحاجة الى تأكيد الخبر بأن الانسان فى أى فرد من أفراده خلق فى كبد وانما يتفاوت الناس فيما ينصبون له

وطعم الموت فى شئ حقير * كطعم الموت فى شئ عظيم

وأما الثانى فهو الذى يشعر بقوة فى بدنه يستطيع أن يصارع بها الاقران ويقارع بها الانداد أو يحس بعزة فى سلطانه ورفعة فى مكانه وبسطة فى جاهه أو ينظر الى مالديه من وفرة المال وغزارة الغنى فيشمخ بأنفه ويظن أنه واحد فى صنفه وان الناس من دونه ليسوا منه الا كما يكون العابد من معبوده فكبيرهم يجب عنده أن يستذل وصغيرهم يستعبد ويسترذل ويخيل له فى حاله هذه أنه أعلى من أن تتناوله يد القدر أو تدنو منه عادية الدهر فهذا المفتون بقوته أو السكران بسلطته أو المأخوذ بثروته فى أشد مايكون من الحاجة الى تأكيد الخبر بان الانسان خلق فى كبد فاذا رجع الى نفسه ورأى أنه فى عناء من تصريف قواه فى عمله بل وفى أكله وشربه وحماية أهله فى سربه تمثلت له الحقيقة من ضعفه ورجع الى الحق اذا ذكربه من أهله ولما كان هذا القسم الاخير وهو قسم المفتونين بما أصابوا من النعم هو الاجدر بأن يقصد بالخطاب ويعنى بالتذكير قال الله عقب الخبر (أيحسب أن لن يقدر عليه أحد) أى أيظن مع ماهو فيه من العناء من ميلاده الى ساعة عناده أنه قد بلغ من القوة أو العزة أو المنعة الى حيث لايقدر عليه فالضمير فى أيحسب عائد على الانسان باعتبار تحققه فى بعض أفراده من هذا الصنف الذى ذكرناه ماأجهله لوظن ذلك فان الذى نشأ فى وجوده ضعيفا يحتاج فى أصغر أمره الى المعين وتملك ناصيته تلك اليد التى أنشأته وتأخذه تلك القدرة التى أبدعته (يقول) أى الانسان و (أهلكت) أى أنفقت (مالا لبدا) أى كثيرا أعاد الضمير على الانسان باعتبار صنف آخر من أفراده وهم أولئك الاغنياء البخلاء المراؤن الذين يكنزون اموالهم ولا ينفقونها الا على شهواتهم وفى توفير لذاتهم ثم اذا حملوا على عمل من أعمال الخير قالوا انا ننفق كثيرا من أموالنا فى أعمال

أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۝ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝

غير التي تدعونتا اليها أفيحسب هؤلاء الاغنياء أن لم يرهم أحد وأن سرائرهم تخفى على المتصرف فى ضمائرهم (ألم نجعل له عينين) فهو اذا أبصر فانما يبصر بنعمتنا عليه فيهما (ولسانا وشفتين) فهو اذا تكلم فانما يتكلم بما وهبناه من لدنا حتى قوله الذى يرائى فيه اذ يقول أهلكت مالا لبدا (وهديناه النجدين) النجد مشهور فى الطريق المرتفعة والمراد بهما هنا طريقا الخير والشر وانما سماهما نجدين ليشير الى أن فى كل منهما وعورة وصعوبة مسلك فليس الشر بأهون من الخير كما يظن والى أنهما واضحان جليان لايخفى واحد منهما على سالك أى أودعنا فى فطرته التمييز بين الخير والشر وأقمنا له من وجدانه وعقله اعلاما تدله عليهما ثم وهبناه الاختيار فاليه أن يختار أى الطريقين شاء وقد ورد فى الحديث مايشير الى ماترمى اليه هذه الآية من أن الله تعالى لم يجعل الشر أحب الى أنفسنا من الخير كما يزعمه بعض أهل النظر فى الاخلاق الانسانية فالذى وهب الانسان هذه الآلات وأودع باطنه تلك القوى لايمكن للانسان أن يفلت من قدرته ولايجوز أن يخفى عليه شئ من سريرته . اقتحم الامر دخل فيه بشدة والعقبة الطريق الوعرة فى الجبل يصعب سلوكها لكن الله تعالى فسر لنا المراد بالعقبة هنا حيث قال (وما أدريك ماالعقبة فك رقبة الخ) فأراد منها الطريق التى يصعب سلوكها الى حيث تنال سعادة الدنيا والآخرة وانما كانت صعبة السلوك لمعارضة الهوى ومغالبة الشهوة لسالكها وفك الرقبة عتقها أو المعاونة عليه وقد ورد فى فضل العتق مابلغ معناه حد التواتر فضلا عما ورد فى الكتاب وهو يرشد الى ميل الاسلام الى الحريه وجفوته للاسر والعبوديه. والمسغبة المجاعة والسغب هو الجوع وفسره أبو حيان بالجوع العام والمقربة القرابة فى النسب يقال هو ذو قرابتى وذو مقربتى بمعنى أن نسبى يتصل بنسبه والمسكين ذو المتربة هو الفقير الشديد الفقر اللاصق بالتراب يقال ترب أى افتقر ويقال فقر مدقع أو فقير مدقع بمعنى لاصق بالدقعاء وهى التراب

ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ

والذين تواصوا بالصبر هم الصابرون على ما يصيبهم وعما يفوتهم فى سبيل الله الذين مع صبرهم ينصح بعضهم بعضاً بالتزام الصبر فهم صابرون وأعوان لاخوانهم على الصبر والمرحمة وجدان الرحمة بالناس مع ظهور أثر ذلك فى مساعدتهم وفى معاونة المحتاجين منهم

بعد أن أخبر الله جل شأنه بأن الانسان قد خلق فى كبد لام الجاهل المغرور على استغراقه فى غروره حتى كأنه يظن أن لن يقدر عليه أحد مع أن ما هو فيه من المكابدة كان كافياً لايقاظه من غفلته واعترافه بعجزه وبعد أن وبخ المرائين الذين ينفقون أموالهم طلباً للشهرة وحباً فى الاحدوثة وقرعهم على افتخارهم بما يصنعون مع خلو بواطنهم من حسن النية أراد أن يبين لهؤلاء وأولئك أنه سبحانه مصدر لأفضل ما يتمتعون به من البصر والنطق والعقل المميز بين الخير والشر والنفع والضر فهو مهدى ذلك اليهم وهو القادر على سلبه منهم وما أعجز من يفقد بصره ونطقه وعقله ثم أن واهب هذه القوى لاتخفى عليه أعمالها وهو الحافظ لكونها محاولة الظهور بخلاف ما تكنه السرائر ضرب من الغفلة والعبث بالنفس على الحقيقة ثم هو قد أدرج فى ذلك البيان وجه المنة بهذه النعمة وكان على الانسان بعد ماوهب التمييز بين الحسن والقبيح والخير والشر وبعد مامنح من تلك القوى التى سبق ذكرها أن يشكر تلك النعم ويختار طريق الخير ويرجح سبيل السعادة فيصعد فيها الى حيث يلقى غايتها وكان عليه أن يندفع فى تلك السبيل ويهجم عليها بكل قوته وذلك بأن يفيض على الناس بشىء مما أفاض الله عليه وأفضل ذلك أن يعين على تحرير الارقاء من البشر أو يواسى الايتام من أقاربه فى أيام العوز وعزة الطعام أو يطعم المساكين الذين لاوسيلة لهم الى كسب ما يقيمون به حياتهم من الضعفاء والعجزة وأولبيان أنواع الخير والقصد انما هو الى التحلى بالخلق الذى يصدر عنه أحد هذه الافعال ثم مع ذلك يكون صحيح الايمان صادق السر مع ربه صبوراً على أذى الناس وما يصيبه من المكاره فى سبيل الدعوة الى الحق أو المحافظة عليه رحيماً بعباد الله مواسياً لهم مساعداً لهم عند نزول الشدائد بهم

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ

ثم يكون مع هذا حريصاً على أن يكونوا مثله فى الصبر والمرحمة فيحملهم على ذلك بقوله وفعله هذه هى الطريقة التى كان من حق العقل أن يرشد اليها لكن الانسان قد خدعه غروره فلم يقتحم هذه العقبة كما قال سبحانه فلا اقتحم العقبة الخ بل اقتحم تلك العقبة الأخرى عقبة الحرص على المال والتكبر بالقوة والثروة وهى عند أهل الحق أوعر العقبتين فهى مثار الحسد ومزدحم الخصام مع مقاومة العقل الصحيح والذوق السليم غير أن الحيوانية وحضور لذاتها هى التى تسهل سلوكها مع ما فيها من الهلكة .

قال المفسرون أن قوله تعالى أيحسب أن لن يقدر عليه أحد نزل فى أبى الاشد أسيد بن كلدة الجمحى وكان مغتراً بقوته البدنية كما يقولون أن قوله يقول أهلكت مالا لبدا جاء فى الحرث بن نوفل وكان يقول أهلكت مالا لبدا فى الكفارات منذ أطعت محمداً وقد يجوز أن يكون فى الآيات اشارة الى تلك الحوادث الحاضرة وقت النزول غير أن معناها على الحقيقة عام كما رأيت . أما ماقيل من أن لا اذا دخلت على الماضى وجب تكرارها ولم تكرر فى الآية فذلك لا يلتفت اليه لان الكتاب نفسه حجة فى الفصاحة وقد ورد فى كلامهم عدم تكرارها وقال أبو مسلم للتخلص من مخالفة القاعدة فى تكرار لا ان لا فى الآية مخفف ألا التى للتحضيض كأنه قيل فهلا اقتحم العقبة ولكن ورد عليه أنه لم يعرف تخفيف ألا التحضيضية أيضاً فالحق الرجوع الى ماقلنا وأما التعبير بالماضى فى اقتحم وفى ثم كان فلان الكلام فيما وقع من نوع الانسان منذ نشأته وأن الحيوانية غلبته فصرفته الى سبيل غير التى كان يقوده اليها عقله الا من هدى الله وهم الذين ذكرهم بقوله ثم كان من الذين آمنوا الخ أى أن الانسان فى ذلك الصنف الأغلب من أفراده لم يكن من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة (أولئك أصحاب الميمنة) الاشارة فى أولئك الى الذين آمنوا وتواصوا الى الخ ومعنى أصحاب الميمنة أنهم من أهل اليمين وأهل اليمين فى لسان الدين الاسلامى عنوان السعداء (والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة) الذين تمر عليهم آيات الله سواء كانت كونية كالآيات التى ذكرت فى هذه السورة من خلقة الانسان فى كبد ومن تمتعه بقواه الظاهرة والباطنة أو

عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ

سورة الشمس مكية وهى خمس عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا

سائر الآيات الأخر فى خلق الانسان ومابين يديه من سائر الموجودات ولا يعتبرون بها أم كانت آيات قولية واردة على لسان الرسل عليهم الصلاة والسلام كالقرآن الذى هو آية الآيات للدين الاسلامى تمر عليهم هذه الآيات ولا يرتقون من النظر فيها الى معرفة الصراط الذى يجب أن يستقيموا عليه فى الاعتقاد والعمل هؤلاء أصحاب المشأمة أى من أهل الشمال وأهل الشمال فى لسان الدين هم الأشقياء فكأنه قال والذين كفروا بآياتنا هم الأشقياء وقد تكون الميمنة والمشأمة من اليمن والشؤم فاولئك ميامين على أنفسهم وهؤلاء مشائيم (عليهم نار مؤصدة) أى مطبقة عليهم من آصدت الباب اذا أغلقته فى لغة قريش وقرأ بعض السبعة موصدة بدون همز من أوصدته واغلاق النار عليهم عبارة عن تخليدهم فيها وسد سبيل الخلاص منها وهؤلاء الذين وجه اليهم هذا الوعيد هم الذين ذكر حالهم فى قوله فلا اقتحم العقبة الخ فان مانسبه اليهم فى تلك الآيات السابقة انما هو عارض يلحق الكفر بآيات الله الباهرة وآية من آياته (١)

(والشمس وضحاها) ضحى الشمس ضوءها يقسم بالشمس نفسها سواء ظهرت أو غابت لانها خلق عظيم ويقسم بضوئها لأنه مبعث الحياة ومجلى الهداية فى عالمها الفخيم وهل كنت ترى حياً أو تبصر نامياً أو هل كنت تجد نفسك لولا ضياء الشمس جل مبدعه (والقمر اذا تلاها) يقسم بالقمر اذا تلا الشمس وذلك فى الليالى البيض من الليلة الثالثة عشرة من الشهر الى السادسة عشرة وهو قسم بالقمر

---

(١) آية من آياته أى علامة من علامات الكفر

وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا

عند امتلائه أو قربه من الامتلاء اذ يضيء الليل كله من غروب الشمس الى الفجر وهو قسم فى الحقيقة بالضياء فى طور آخر من أطواره وهو ظهوره وانتشاره الليل كله وقال الحسن والفراء تلاها تبعها فى كل وقت لأنه يستضيء منها فهو يتلوها لذلك ولكن التقييد بقوله اذا تلاها يدل على أن القسم متعلق بالقمر وهو فى حالة خاصة فهو مقسم به على طور خاص وهو ماذكرناه ثم عاد الى القسم بالضياء تحت عنوان آخر فقال (والنهار اذا جلاها) أى والنهار اذا جلى الشمس أى أظهرها ولا يخفى أن النهار هو وقت انتشار ضوء الشمس من وقت شروقها أو قربه الى وقت غروبها كل ذلك للاشارة الى تعظيم أمر الضياء واعظام قدر النعمة فيه والفات أذهاننا الى أنه من آيات الله الكبرى ونعمه العظمى وقوله اذا جلاها بيان للحالة التى ينطق فيها النهار بتلك الحكمة الباهرة والآية الظاهرة وهى حالة الصحو أما يوم الغيم الذى لاتظهر فيه الشمس فحاله معك أشبه بحال الليل الذى يقسم به فى قوله (والليل اذا يغشاها) بعد أن أقسم بالضياء تحت أسماء مختلفة أقسم بالليل فى حالة واحدة وهى حالة مايغشى الشمس أى يعرض دون ضوئها فيحجبه عن الابصار وذلك فى ليالى الظلمة الحالكة التى لا أثر لضوء الشمس فيها لا مباشرة كما فى النهار ولا بالواسطة كضوء القمر المستفاد منها وهذه الليالى هى قليلة كما لا يخفى فان أغلب ليالى الشهر لاتخلو من ضوء القمر فى أول الليل أو فى آخره أو فى جميعه وهو ضوء مستفاد من الشمس وانما هى ليلة أو ليلتان وبعض ليال أخر ولقلة أوقات الظلمة عبر فى جانبها بالمضارع المفيد للحاق الشيء وعروضه متأخراً عما هو أصل فى نفسه أما النهار فانه يجلى الشمس دائما من أوله الى آخره وذلك شأن له فى ذاته ولا ينفك عنه الا لعارض كالغيم أو الكسوف قليل العروض ولهذا عبر فى جانبه بالماضى المفيد لوقوع المعنى من فاعله بدون افادة انه مما ينفك عنه وأقسم بالظلمة هنا كما أقسم بها فى سورة والفجر لانه أمر يهولك ويدخل عليك فيه من انقباض النفس عن الحركة واضطرارها للوقوف عن العمل وركونها الى السكون ما لا تجد عنه مفرا فهذا سلطان من الخوف مبهم لا تحيط بأسبابه

وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا

ولا بتفصيل أطواره فهو أشبه بالجلال الالهى يأخذك من جميع أطرافك وأنت لاتدرى من أين أخذك وهو مظهر من مظاهره ثم فى هذا السكون من راحة الجسم والعقل وتعويض مافقداه بالتعب بياض النهار ما لا تحصى فوائده فلذلك أقسم الله به ليوجه نظرنا الى مافيه من ذلك كله (والسماء وما بناها) السماء اسم لما علاك وارتفع فوق رأسك وأنت انما تتصور عند سماعك لفظ السماء هذا الكون الذى فوقك فيه الشمس والقمر وسائر الكواكب تجرى فى مجاريها وتتحرك فى مداراتها هذا هو السماء وقد بناه الله أى رفعه وجعل كل كوكب من الكواكب منه بمنزلة لبنة من بناء سقف أو قبة أو جدران تحيط بك وشدهذه الكواكب بعضها الى بعض برباط الجاذبية العامة كما تربط أجزاء البناء الواحد بما يوضع بينها مما تماسك به والذى بنى السماء هو الله جل شأنه غير أنه لما كان الخطاب موجهاً الى قوم لا يعرفون الله بصفاته الجليلة وكان مرمى الخطاب أن ينظروا فى هذا الكون العظيم نظرة من يطلب للأثر مؤثرا ما وللمسبب سبباً ما لينتقلوا من ذلك الى معرفة الله تعالى عبر عن نفسه جل شأنه بما التى هى الغاية فى الابهام على أن من وما بالنسبة الى الله سواء لان من للعاقل الذى يعرفه المتخاطبون وما لغير العاقل كذلك والله جل شأنه لا يطلق عليه العاقل ولا غير العاقل بذلك المعنى وانما هو عالم يعلو تصوره على منال العقول فيعبر عنه بكل لفظ يفيد الذات الموجودة مع مراعاة التنزيه (وطحا الارض) وطأها وجعلها فراشاً كما قال الذى جعل لكم الارض فراشاً والسماء بناء وليس فى ذلك دليل على أن الارض غير كروية كما يزعم بعض الجاهلين والذى طحاها هو الله .

بعد أن أقسم الله بالضياء والظلمة أقسم بالسماء وما فيها من الكواكب جملة وبالذى بناها وجعلها مصدراً للضياء لأن الشمس والقمر وسائر الكواكب من أجزاء ذلك البناء وبالارض والذى جعلها لنا فراشاً وجعلها مصدراً للظلمة فانها هى التى يحجب بعض أجزائها ضوء الشمس عن البعض الآخر فيظهر الظلام فى هذا الآخر ولما لم يذكر فى جانب السماء سوى البناء وهو ربط بعض أجرامها ببعض

وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا

ولم يذكر ايجاد كل جرم لأن هذا البناء الظاهر هو الذى تفهمه عقول المخاطبين وفيه منافعهم من انتشار الضياء وقيام أعلام الهداية اقتصر فى جانب الارض بذكر الطحو وهو التمهيد وفيه منافع الناس من سكنى الارض والانتفاع بما يوجد على ظهرها من نبات وحيوان

بعد هذا أقسم بالنفس الانسانية والذى (سواها) أى عدلها بأن ركب فيها قواها الباطنة والظاهرة وحدد لكل قوة وظيفة تؤديها وألف لها الجسم الذى تستخدمه من أعضاء قابلة لاستعمال تلك القوى لهذا فرع على التسوية قوله (فألهمها فجورها وتقواها) فان تمام التسوية أن وهبها العقل الذى يميز بين الخير والشر والفجور اتيان ماينتهى بالنفس الى الخسران والهلكة والتقوى اتيان ما يحفظ النفس من سوء العاقبة والاعمال التى بها تشقى النفوس معروفة لذوى العقول كالاعمال التى بها تسعد فهذه الآية فى معناها كآية وهديناه النجدين فقد منح الله النفوس قوة التمييز كما وهبها قوة الاختيار فمن رجح طريق الخير أفلح ومن رجح طريق الشر خاب ولهذا استطرد عقب ذكر الالهام بقوله (قد أفلح من زكاها) أى قد ربح وفاز من زكى نفسه ونماها وأعلاها حتى بلغ بها ما هى مستعدة له من كمال القوى العقلية والعمليـة وأثمرت بذلك ثمراتها الطيبة له ولمن حوله من الناس (وقد خاب من دساها) التدسية النقص والاخفاء ومن سلك سبيل الشر وطاوع داعى الشهوة البهيمية فقد فعل مايفعل سائر البهائم فلم يظهر عمل القوة العاقلة التى خص بها الانسان فاندرج صاحب تلك النفس فى عداد سائر الحيوان دون الانسان وبذلك يختفى من بين العقلاء ويذهب امتيازه الذى كرم الله به نوعه وهل تكون خيبة أعظم وخسران أكبر من هذا المسخ الذى يجلبه الشخص على نفسه بسوء عمله فما أجمل هذا التعبير وما أحواه للمعانى الرفيعة ثم هل الفتت الى مافى التزكية مما يناسب النور والسماء وما فى التدسية

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا فَكَذَّبُوهُ

مما يلائم الظلمة والأرض وجواب القسم محذوف مثله فى سورة البروج وأقام الدليل عليه بما جاء فى قوله (كذبت ثمود بطغواها) وهذا من ضروب الايجاز التى اختص بها القرآن دون سائر الكلام وسنذكر ذلك الجواب بعد تفسير الدليل عليه . ثمود قوم من العرب البائدة بعث الله اليهم نبياً اسمه صالح عليه السلام ولما سأله قومه آية على صدقه جعل الله آيته فى ناقته وقد جاء فى كتابنا العزيز أن هذه الآية هى أن جعل لها شربا تختص به ولهم شرب يختصون به فى يوم معلوم وأن تأكل فى أرض الله ولا يمسها أحد بسوء فاذا مسوها بسوء أخذهم العذاب فالآية فى الحقيقة هى أخذهم بالعذاب اذا مسوها بالسوء قال فى سورة هود «وياقوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب» وقال فى سورة الشعراء « قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم» وكان على القوم جميعاً أن يرعوا أمر الله فى هذه الناقة فلا يدعوا أحداً يصيبها بالأذى ولكنهم طغوا وخرجوا عما يرشد اليه العقل الصحيح فكذبوا صالحاً عليه السلام فهذا قوله كذبت ثمود بطغواها أى كذبت بنبيها بسبب طغيانها وبغيها ثم انبعث واحد من هذه القبيلة سماه المفسرون ولا حاجة بنا الى تسميته لأنه يجب علينا أن نقف عند ماوقف عنده الكتاب وكان ذلك المنبعث أشقى القبيلة لأنه تحرش للشر من دونهم وانطلق ينحر الناقة فهذا قوله تعالى (اذ انبعث أشقاها) أى أن التكذيب كان عند ذلك أى كان ذلك علامة التكذيب الظاهرة فانه كذب صالحاً فى وعيده بالعذاب وانبعث يهلك الناقة ولما سكت القوم وتركوه يفعل كانوا مكذبين مثله (فقال لهم رسول الله) صالح احذروا واتقوا (ناقة الله) التى جعلها آية نبيه (وسقياها) أى شربها الذى اختصها الله به فى يومها فلا تؤذوا الناقة ولا تتعدوا عليها فى شربها ويوم شربها (فكذبوه) فيما جاء به ولم يسمع ذلك الشقى ذلك

فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا

سورة الليل مكية وهي احدى وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ

التحذير ولم يصغ الى الانذار (فعقروها) العاقر لها ذلك المعتدى الذى لقبه بأشقاها ولكنهم لما سكتوا عنه ولم يمنعوه ورضوا بفعله نسب العقر اليهم جميعاً فلذلك عمتهم النقمة (فدمدم عليهم ربهم بذنبهم) أى أطبق عليهم العذاب وقال بعضهم الدمدمة اهلاك فى استئصال وقيل الدمدمة التدمير (فسواها) أى سوى القبيلة وهى ثمود فى العقوبة فلم يفلت منها أحد أو المعنى سواها بالارض أى دمر مساكنها على ساكنيها (ولا يخاف عقباها) أى ان الله فى عزته وجبروته أهلك هؤلاء المكذبين ولا يخاف عاقبة اهلاكهم لأنه لا هو ظالم فيخيفه الحق ولا هو ضعيف فيتناوله المكروه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً

فى هذا الذى سمعته فى خبر ثمود ما يدلك على جواب القسم كأنه قال والشمس وضحاها الخ لينزلن بالمكذبين منكم مثل ما نزل بثمود اذ كذبت نبيها فأصابها العذاب فلستم بأشد بأساً منها ولا شقيكم أشد بطشاً من شقيها ولقد صدق الله وعده فأهلك من أهلك منهم فى واقعة بدر بأيدى المؤمنين ثم لم يزل العذاب والخزى ينزل بالمكذبين من أهل مكة ومن حولهم بالقتل تارة والابعاد أخرى حتى لم يبق فى جزيرة العرب مكذب ولو استمرت الدعوة على ما كانت عليه من نشأتها أيام الصحابة رضى الله عنهم لم يبق فى الارض مكذب والله أعلم

(والليل اذا يغشى) يبتدئ فى هذه السورة بأن يقسم بالليل وهو الظلمة لانها الأنسب بما ختمت به السورة السابقة من الدمدمة واطباق العذاب ولأنها أليق

وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ۝ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ۝ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى

بما عليه سعى أغلب الناس الذى سيذكر فى قوله ان سعيكم لشتى والتعبير فى الغشيان بالمضارع لما سبق من عروض الظلمة لاصل النور الذى هو أكمل مظاهر الوجود حتى عبر به عن الوجود نفسه أما (تجلى النهار) فهو لازم له لهذا عبر عنه بالماضى كما سبق بيانه (وما خلق الذكر والانثى) الذى خلق الذكر والانثى هو الله سبحانه وعبر عنه بما الفاتا لنظر المخاطبين اليه من حيث هو سبب موجود فقط حتى لايبادر منكر الالوهية الى الانصراف عن الخطاب بمجرد الشعور بأن المتكلم يذكر له من صفات الله العلية مالا يعتقده كما أشرنا اليه فى تفسير السورة السابقة وانما أقسم بذاته بهذا العنوان لما فيه من الاشعار بصفة العلم المحيط بدقائق المادة وما فيها والاشارة الى الابداع فى الصنع اذ لايعقل أن هذا التخالف بين الذكر والانثى فى الحيوان يحصل بمحض الاتفاق من طبيعة لاشعور لها بما تفعل كما يزعم بعض الجاحدين فان الاجزاء الاصلية فى المادة متساوية النسبة الى كون الذكر أو كون الانثى فتكوين الولد من عناصر واحدة تارة ذكرا وتارة انثى دليل على أن واضع هذا النظام عالم بما يفعل محكم فيما يضع ويصنع (ان سعيكم لشتى) هذا هو جواب القسم يؤكد بالقسم السابق ماتضمنه هذا الخبر من أن سعى الناس مختلف مفترق فى صفته ونوعه فمنه الحسن ومنه القبيح ومنه المفيد ومنه الضار ومنه ماينقيه الاخلاص ومنه مايعكره الرياء وطلب المكافأة عليه من الناس ولو بحسن الثناء على فاعله ومنه الاعطاء ومنه المنع ومنه التكذيب بالحسنى ومنه التصديق بها ومنه التقوى ومنه الفجور ومفترق فى عاقبته فمنه مايشقى به الساعى ومنه مايسعد به ثم فصل ذلك التفرق فى النوع والعاقبة بقوله فأما من أعطى الخ فان خطر لك سؤال كيف يقسم سبحانه على أن سعى الناس شتى مختلف مع ان هذه القضية بديهية لان جميع من يفهم الخطاب يعلم أن مساعى الناس وأعمالهم مختلفة متنوعه الى هذه الانواع التى ذكرت ومثل هذا الخبر البديهى لايحتاج الى تأكيد بل الاخبار به غير مفيد فانى أجيبك أولا بأن المقسم عليه هو الاجمال والتفصيل معا ولا شك فى أن الوعد

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ

على الاعطاء والتقوى والتصديق بالحسنى بالتيسير لليسرى والوعيد على البخل والاستغناء والتكذيب بالحسنى بالتيسير للعسرى يحتاج الى تأكيد فيكون التأكيد لمجموع الأخبار لا للأول منها فقط . وثانيا ما أشرنا اليه فى بيان معنى شتى من ان الافتراق واقع فى أنواع الافعال وصفاتها وواقع فى عاقبتها وما يعود منها على فاعلها ولما كان فعله الشر انما اختاروا طريقه لاعتقادهم أن اتيانه أفضل عائدة عليهم من تجنبه وانه لايفضى بهم الى ما يكرهون كانوا كأنهم اعتقدوا بوحدة العاقبة فى سعيهم وسعى مخالفيهم من أهل الخير فاحتاج الأمر الى أن يؤكد لهم الخبر بأن السعى مختلف فى الغاية والعاقبة كما هو مختلف فى الصفة والنوع وهذا هو الذى يشعر به وصل التفصيل بالفاء فان التفصيل سيق لبيان عاقبة كل قبيل من السعى فوصله بالفاء يفيد أنه كان شيأ داخلا فيما سبقه ثم كيف تزعم بداهة الخبر باختلاف الأعمال فى الصفة مع أن البخيل مثلا انما يمسك الفضل من ماله ولا ينفقه فى أعمال البر وهو يعتقد أنه لم يمنع حقا وأنه وفى حق الحق لان فى توفير المال صون النفس عن الحاجة وتمتيعها بالكرامة وعلو المنزلة وهو أمر مطلوب لاهل العقل فهو باعتقاده هذا قد أدخل عمله فى جنس أعمال المقتصدين وأهل الوقار والكرامة وكذلك الحاسد مثلا يرى ما يصنعه فى طلب الوسائل لازالة نعمة محسوده من باب السعى فى ازالة المنكر والدفاع عن حق للنفس أو للعامة وهو بهذه العقيدة يدرج عمله فى أعمال المجاهدين فى انكار المنكر وحمل الناس على المعروف وهكذا يمكنك أن تخلص بنظرك فى باطن كل مقترف لرذيلة فتجده يمثلها بمثال الفضيلة فقد اختلط عليه وصف مساعيه بوصف مساعى غيره وأنت ترى أغلب الناس على هذه الحال فكانوا فى أشد الحاجة الى تأكيد الخبر بأن الاعمال والمساعى شتى مختلفة كل الاختلاف أو منزلين منزلة من يحتاج الى ذلك لتلبيسهم على أنفسهم (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى) أعطى المال لسد حاجة المسكين أو اغاثة المعدم الكريم أو للاعانة على النفع العميم (واتقى) أى خاف من الشر وايصال الاذى الى الناس فحمى نفسه من ذلك أو كره

وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ

الفواحش ما ظهر منها وما بطن فوق نفسه من ارتكاب شيء منها (وصدق بالحسنى) أى بالخصلة التى هى أحسن من غيرها أى صدق بثبوت الفضيلة والعمل الطيب وبالفرق بين الفضيلة والرذيلة وبين العمل الطيب والخبيث واعتقد بأن هناك خيراً وشراً وان من مزايا الانسان أن يفعل الخير ويتجنب الشر فان التصديق بذلك هو مصدر الصالحات بلا ريب وهو مقدم فى الترتيب الوجودى على بذل المال فى سبيل الحق والرحمة وعلى اتقاء المفاسد والخطايا ولكنه قدم هذين فى الذكر عليه للاهتمام بهما ولانهما الدليلان على تحققه حقيقة ولانهما ثمرته الدانية وكثير من الناس يظن نفسه مصدقا بفضل الخير على الشر وأن الخير أولى بالانسان ولكن هذا التصديق قد يكون سرابا فى النفس خيله الوهم وصوره التقليد الأعمى ثم لايصدر عنه الأثر الذى يليق به بل تجد صاحبه ردىء الملكة قسى القلب بعيدا عن الحق قريبا من الباطل بخيلا فى الخير مسرفا فى الشر ولا تجد له مع ذلك كلاما الا فى الفضيلة وحسن جزائها والرذيلة وسوء عاقبتها فهو كما يقول بعض الادباء (يحسن وصف الفضيلة وحروفها تئن من لوكها بفمه ووخزها بسن قلمه) فالتصديق بالحسنى لا يعد تصديقا ولاينظر الله اليه ولا يجود كرمه بالوعد عليه الا اذا صدر عنه أثره الذى لا ينفك عنه وهو بذل المال واتقاء مفاسد الاعمال ومن فعل ذلك يسره الله لليسرى أى هيأه لأيسر الخطتين وأسهلها فى أصل الفطرة وهى خطة تكميل النفس واعلائها بالكمال الى أن تبلغ المقام الذى تجد فيه سعادتها وانما كانت هذه الخطة هى اليسرى والأسهل لتوفر الدواعى اليها وكثرة البواعث عليها فان الانسان انما يمتاز عن غيره من سائر الحيوان الاعجم بالتفكير فى الاعمال وتقدير ثمراتها ووزن نتائجها وحاجة كل انسان الى أن يعينه غيره ظاهرة كذلك بسذاجة الفطرة فاحساسه بحاجة غيره واندفاعه الى سدها مما تنبه اليه الفطرة فأولى أن تنبهه الفطرة الى أن لايلحق الأذى بمن لم يؤذه وأن لا يأتى من القبائح شيأ لظهور ضررها بالناس فهو مدفوع الى ذلك كله بأصل فطرته الانسانية لكنه يحتاج فى الاستقامة على

وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى

هذه الطريقة الى صحة عقل ينظر بنفسه فيما يختار ويميز بنظره فيما يسمع بين ما ينبغى أن يتبع وما يجب أن يدفع فاذا حصل الشخص ذلك وظهرت آثاره فى أعماله سهل الله له ماهو مسوق اليه بأصل فطرته وهو تكميل نفسه لتسعد بمزاياها فى الدنيا والآخرة وذلك لجرى سنة الله فى خلقه بأن كل عمل من أعمال العاقل يفتح له باب بصيرة فى نوع ذلك العمل ويكون مبدأ عادة للنفس تأنس بملابستها ففاعل الخير للخير يذوق لذته ويجد حلاوته فتزيد فيه رغبته وتشتد اليه عزيمته وهذا هو التيسير الالهى (وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى) أى ان من أمسك ماله أو أنفقه فى شهواته ولذاته ولم ينفقه فى الطرق التى بيناها فانه يعد باخلا على خلاف ما يعتقد كثير من الناس من أن البخيل هو الذى لا يتمتع بماله فى التلذذ بمأكله ومشربه وملبسه فهذا بمجرده لا يعد بخلا لا شرعا ولا فى اصطلاح علماء تهذيب الاخلاق وانما البخيل هو الذى لا يبذل ماله فى سبيل الخير خصت أو عمت وان أنفق جميع أمواله فى لذاته ولذات أمثاله أو هو الذى لا يعطى الحق فيما يطالبه به الحق ومنفعة العامة والمرحمة للخاصة من أعظم أنواع الحق (واستغنى) أى عد نفسه غنيا عن الناس بما لديه من المال فلا يرى له حاجة اليهم فلذلك لا يجد المرحمة فى قلبه لضعفائهم فيبذل ماله لدفع ضرورتهم ولا يحس بأنه عضو من جماعتهم فينفق من ماله فيما يعود بالمنفعة عليهم ولا يبالى بما يصيبهم من فساد أو سلامة فهو لا يتقى شرا يفعله فيهم فيكون شريراً فاحشا فمعنى استغنى يقابل معنى اتقى فى جميع مشتملاته وأمثال هؤلاء المستغنين الذين لا يحسون بوجود الناس الا عند حاجتهم اليهم كثيرون فيما بيننا بل هم الا كثر بل لا تكاد تجد بين المسلمين سواهم فان الكلمة العامة فى أفواه جميعهم « نحن مالنا » « انامالى » و « دع الخلق للخالق » ونحو ذلك مما يطول سرده (وكذب بالحسنى) أى كذب بثبوت الفضيلة وبأنها أصل من أصول الانسانية وركن من أركان وجودها فلا يعرف الا ما يلذ له ويمتعه فى حاضره ولا يبالى بما عدا ذلك ضر غيره أو نفعه وهذا التكذيب هو الاصل فى البخل

وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ۞ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى

والاستغناء بمعناهما السابق لان من صدق بالحسنى ذلك الضرب من التصديق الذى سبق بيانه لا يمكن أن يبخل ولا أن يستغنى بالمعنى الذى سبق ذكره، ويدخل فى المكذبين بالحسنى أولئك الذين يتكلمون بها تقليدا لغيرهم ولكن لا يظهر أثرها فى أعمالهم فهم مكذبون رغم أنوفهم والله يعدهم مكذبين مهما لبسوا على أنفسهم وهذا هو السر فى تقديم ذكر البخل والاستغناء على التكذيب بالحسنى لانهما أثرها وثمرتها فاذا ظهرا فى عمل الانسان ثبت تكذيبه بالحسنى ومن كانت حاله هذه فقد مرنت نفسه على الشر وتعودت على الخبث واستشرى فيها الفساد فيسهل الله له على حسب ما جرت به سنته سبحانه تلك الخطة العسرى وهى الخطة التى يحط فيها الانسان من نفسه ويغض من حقها وينزل بها الى حضيض البهيمية ويغمسها فى أوحال الخطيئة وهى أعسر الخطتين على الانسان لانه لا يجد معينا عليها لا من فطرته ولا من الناس ولو اتفق أن جماعة أو قوما فسدت أخلاقهم جميعا ووجد كل منهم فيمن حوله من يعينه على الشر سلط الله عليهم من غيرهم من ينزل العقاب بهم جميعا فيسلبهم ما آتاهم الله من نعمة ويضعهم تحت نير المذلة كما نشاهده ويقع تحت نظرنا كل يوم فلا ريب أن هذه الخطة هى أعسر الخطتين ولكن كاسب الشر معان عليها لتعود نفسه على مقارفة ما هو منها بسبيل (وما يغنى عنه ماله اذا تردى) ما استفهامية أى وماذا يفيده ماله اذا تردى وهلك سواء كان بالموت الذى يدركه عند أجله فهو بقبل على عذاب أليم أو تردى فى مغبات بخله وسيآت أعماله بأن حل الانتقام به فى الحياة الدنيا فانه لا يجد من الناس منجداً ولا من رحمة الله مغيثا فماذا يفيده ماله ولما كان هنا موضع أن يقول قائل كيف يخلق الله الناس ويكلهم الى أهوائهم ثم يعاقبهم على ما تجرهم اليه أو أن يقول اذا كان الله هو واهب تلك القوى والآلات البدنية فكل ما كان من متناولها وانساقت اليه فهى مسيرة اليه بمقتضى غريزتها فكيف يؤاخذ الله على فعل فاعل أطلق الله له الارادة فى عمله وأعطاه القدرة عليه لما كان ذلك مما يقال فى جميع الازمان قال الله (ان علينا للهدى) أى اننا خلقنا الانسان

وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى

وجعلنا من جوهر انسانيته العقل والاختيار وألهمناه التمييز بالعقل بين الحق والباطل وبين الخير والشر ثم بعثنا له من كملة أفراده الانبياء وشرعنا لهم الاحكام، وبينا لهم العقائد تعليما له وارشاداً فهذا هو ما يقتضيه خلق الانسان من حيث هو انسان ثم بعد ذلك هو مختار فاما أن يسلك مسلك الخير فيسلم ويسعد واما أن يذهب مذهب الشر فيعطب ويشقى ومن هذا تفهم معنى علينا فليس فيه أن ذلك واجب عليه كما يظنه بعض السفهاء بل معناه اننا حيث أردنا أن نخلق الانسان نوعا ممتازا عن سائر أنواع الحيوان كان لا بد فى ارادتنا هذه أن نضع فى جوهره مايميزه وهو العقل وأن نضع له شريعة تعليمية حتى يعد بذلك نوعا ممتازا عن غيره من الانواع (وان لنا للآخرة والأولى) أى نحن المالكون للحياة الدنيا وهى الاولى وللحياة الآخرة وانما قدم الآخرة فى الذكر مع أنها الآخرة فى الوجود ليبادر الى تأكيد وجودها واذا كان ملك الحياتين لله كان هديه هو الذى يجب اتباعه فيهما لان المالك لأمر عالم بوجوه التصرف فيه فما مكنك منه بهداه وأرشدك اليه من ذلك فلا تحد عنه ولهذا المعنى تراه رتب على القضيتين « ان علينا للهدى وان لنا للآخرة والأولى » قوله (فأنذرتكم نارا تلظى) أى لرحمتنا بكم وعلمنا الكامل بمصالحكم أسدينا اليكم الهدى فأنذرناكم نارا تلتهب وتلك النار أعدت فى الآخرة لمن سيذكره الله بعد وهى نار يجب علينا الايمان بها ولكن لاينبغى لنا البحث فى حقيقتها لانها من أمور الآخرة التى استأثر الله بعلم حقائقها وانما هى عذاب أليم لمن يصلاها (لا يصلاها الا الاشقى الذى كذب وتولى) يصلاها يعذب فيها والأشقى من هو أشد شقاء من غيره ومن كذب من وقع منه تكذيب ما وتولى أعرض عن وجهة الحق وانصرف ولم يعد اليها بالتوبة والندم (وسيجنبها الاتقى) أى ان أشد الناس تقوى هو الذى لا يدخل هذه النار بالمرة ولا يمسه لهبها * واعلم أن الناس أقسام منهم الابرار الذين منحهم الله من قوة العقل وصفاء اليقين ما بعد

بهم عن الفواحش ظاهرها وباطنها ودفعهم الى محاسن الاعمال جليلها وصغيرها فلم يقارفوا خطيئة ولم يقصروا فى خير ومنهم الذين يلون هؤلاء وهم من تغلبهم الشهوة أحياناً فيقعون فى الذنب أو يقصرون فى الواجب ثم يثوب اليهم رشدهم فيتوبون ويندمون وهذان القسمان يدخلون فى الأتقى وهم الذين ذكرهم الله فى سورة آل عمران فى قوله وسارعوا الى مغفرة الخ ومنهم من يخلط بين الخير والشر فيعتقد بالله مثلا ويقترف بعض السيآت لكنه يصر عليها ولا يتوب عنها فهذا الاصرار منه يدل على أنه غير مصدق حق التصديق بما جاء فيها من الوعيد كما يرشد اليه العقل لأن البديهة تأبى أن يصدق الشخص بسوء عاقبة أمر تمام التصديق ثم يصر على اتيانه بدون أسف ولا ندم وكما تدل عليه السنة فقد ورد فى الصحيح لا يزنى الزانى وهو مؤمن ولا يسرق السارق وهو مؤمن ومعناه أن صورة الوعيد وصورة الامر الالهى تذهب عن ذهن المخالف ويوجد عنده ضروب أخرى من الصور تقاوم أثر هذه فى النفس وتغلب عليها فهذا الفاسق المصر يدخل فى الاشقى وهو صنف من أصنافه لأنه كذب ضربا ما من التكذيب وتولى فلم يرجع بالتوبة ومنهم الكافرون الجاحدون وهم صنف آخر من الاشقى فالنار التى وصفها الله يدخلها الفاسقون من المؤمنين تحت عنوان مكذبين متولين ضربا من التكذيب والتولى تغليظا عليهم ولكنهم لايخلدون فيها ويدخلها الكافرون الجاحدون وهم فيها خالدون وينجو منها الأتقى بصنفيه الابرار والخالطين التائبين وانما صح دخول المصر فى الاشقى لأن الخالط التائب له شقاء وكفى بالندم ومحاسبة النفس شقاء عظيما لمن يعرف قدره وصح دخول الخالطين التائبين فى قسم الأتقى لأنهم أعظم تقوى من المصرين وفى المصرين على بعض السيآت شىء من التقوى يصدهم عن بعضها كما هو ظاهر فالخالط التائب والمؤمن المصر على خطيئة اذا لم تحط به خطيآته كل منهما يشارك صاحبه ويفارقه وبذلك أكسب كل صاحبه وصفه. الخالط التائب له شقاء بالندم والاسف فيشارك المصر فى ضرب من الشقاء ويكون المصر أشقى منه والمصر فيه شىء من التقوى بالايمان فيشارك التائب فى التقوى ولكن التائب أتقى منه وما أجمل ماقاله الامام الغزالى فى مثل هذا وانا نأتى بعبارته قال «كل علم يراد ليكون باعثاً على عمل فلا يقع التفصى عن عهدته مالم يصر باعثاً عليه فالعلم بضرر الذنوب انما أريد ليكون باعثاً على تركها فمن لم يتركها فهو

الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى . وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى . إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ

فاقد لهذا الجزء من الايمان وهو المراد بقوله عليه السلام لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن وما أراد به نفى الايمان الذى يرجع الى علوم المكاشفة كالعلم بالله ووحدانيته وصفاته وكتبه ورسله فان ذلك لا ينافيه الزنا والمعاصي وانما أراد به نفى الايمان بكون الزنا مبعداً عن الله تعالى موجبا للمقت كما اذا قال الطبيب هذا سم فلا تتناوله فاذا تناوله يقال تناوله وهو غير مؤمن لا بمعنى أنه غير مؤمن بوجود الطبيب وكونه طبيباً وغير مصدق به بل المراد أنه غير مصدق بقوله انه سم مهلك فان العالم بالسم لايتناوله أصلا فالعاصي بالضرورة ناقص الايمان وليس الايمان باباً واحداً بل هو نيف وسبعون باباً أعلاها شهادة أن لااله الا الله وأدناها اماطة الاذى عن الطريق ومثاله قول القائل الانسان ليس موجوداً واحداً بل هو نيف وسبعون موجوداً أعلاها القلب والروح وأدناها اماطة الأذى عن البشرة بأن يكون مقصوص الشارب مقلوم الاظفار نقى البشرة عن الخبث حتى يتميز عن البهائم المرسلة الملوثة بأرواثها المستكرهة الصور بطول مخالبها وأظلافها وهذا مثال مطابق فالايمان كالانسان وفقد شهادة التوحيد يوجب البطلان بالكلية كفقد الروح والذى ليس له الا شهادة التوحيد والرسالة هو كانسان مقطوع الاطراف مفقوء العينين فاقد لجميع أعضائه الباطنة والظاهرة لا أصل الروح وكما أن من هذا حاله قريب من أن يموت فتزايله الروح الضعيفة المنفردة التى تخلف عنها الاعضاء التى تمدها وتقويها فكذلك من ليس له الا أصل الايمان وهو مقصر فى الاعمال قريب من أن تقتلع شجرة ايمانه اذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للايمان فى مقدمة قدوم ملك الموت وروده فكل ايمان لم يثبت فى اليقين أصله ولم تنتشر فى الاعمال فروعه لم يثبت على عواصف الاهوال عند ظهور ناصية ملك الموت وخيف عليه سوء الخاتمة » اه أفلا يجدر بمثل هذا أن يدخل فى الاشقى الذى كذب وتولى هذا النوع من التكذيب والتولى ثم ذكر الاتقى بأفضل مزاياه فقال (الذى يؤتى ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه

الأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى

الأعلى ولسوف يرضى) الأتقى بقسميه سواء كان محسناً باراً أو كان ظالماً لنفسه تائباً يعطى من ماله فى سبيل الله ومرحمة الفقراء لا لغرض آخر سوى أنه يريد أن يتزكى وأن تنمو نفسه وتتدرج فى قوتها الروحية حتى تبلغ أشدها فى الحياة الروحانية فتستوى على عرش الانسانية تستخدم قواها الجسدانية فيما خلقت لأجله فهو لا ينفق شيئاً من ماله رئاء الناس يطلب به مدحتهم اللهم الا أن تكون هفوة من غير الأبرار وينفق من ماله وليس لأحد عنده يد سابقة يجب أن يجازيه بها أى ينفق من ماله على شخص وليس لذلك الشخص عنده نعمة يريد مكافأته عليها أما اعطاء المال على وجه المكافأة فهو ضرب من المعاملة والتجارة الدنيوية لا يتفاضل به الناس فى الخير وانما يريد المحسن والخالط بما ينفق وجه ربه الأعلى أى يرغب مرضاته والعبارة معروفة فى تخاطب العرب يقال فعلت كذا أبتغى وجه فلان أى لم يحملنى على الفعل الا اجلاله وقصد مرضاته وخيفة الوقوع فيما يغضبه ولذلك أتبع الآية بقوله ولسوف يرضى أى سوف يرضى الله عن ذلك الأتقى الطالب بصنعه رضاه . يجوز للتقى أن يعطى من ماله لمكافأة نعمة عليه لأحد من الناس لكن ذلك لا يكون أثراً من آثار التقوى بل الذى يعد من آثار التقوى هو بذل المال فى سبيل الخير كما قدمنا وقد يعرض لبعض الأفراد من قسم الأتقى أن يرائى فى انفاق ما ينفق من ماله لكنه يرجع فيندم ويتوب والتوبة تعود على العمل بالاخلاص وتبعث على العود الى الانفاق مع خلوص النية فيه لله تعالى فيصدق عليه أنه يؤتى ماله يتزكى الخ والاستثناء فى قوله الا ابتغاء وجه ربه الأعلى منقطع كما ترى والتعبير بسوف لافادة أن الرضا يحتاج الى بذل كثير ولا يكفى القليل من المال لان يبلغ العبد درجة الرضا الالهى .

وبتفسير الأتقى والأشقى على النحو الذى سمعته تبطل تلك الاشكالات التى أوردها المفسرون فى الحصر وما أشكل عليهم الا تقيدهم بالعادة فى استعمال ألفاظ كذب وتولى وتحكيمهم عاداتهم واصطلاحاتهم التى وضعوها من عند أنفسهم لا نفسهم فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله . ثم انهم يوردون ههنا أسباباً للنزول وأن الآيات نزلت فى سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه لأنه اشترى من أرقاء المسمين

سورة الضحى مكية وهي احدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ

ضعفاء وأعتقهم من ماله لا يبتغي في ذلك الا وجه الله ورووا غير ذلك وقالوا ان الأشقى هو أمية بن خلف وقيل غير ذلك ومتى وجد شيء من ذلك في الصحيح لم يمنعنا من التصديق به مانع ولكن معنى الآيات لا يزال عاماً كما رأيت والله أعلم

(والضحى) هو ضوء الشمس في شباب النهار (والليل اذا سجى) أي سكن وسكون الليل هو ما تجده من سكون أهله وانقطاع الأحياء عن الحركة فيه ولما كان السجو أو السجو من لوازم الظلمة جاء فيه بالماضي كالتجلي في النهار بخلاف الغشيان في الليل فانه مما يعرض له في الاوقات القليلة يغشى فيها الضياء كما سبق أما الضياء فيملك أغلب أجزاء الزمن (ما ودعك ربك وما قلى) أي ما تركك ربك وما أبغضك وقرئ ودعك بالتخفيف وهي كذلك بمعنى تركك يقال قلاه يقلاه وقلاه يقليه كرماه يرميه أي كرهه وأبغضه (وللآخرة خير لك من الاولى) أي ولنهاية أمرك خير لك من بدايته (ولسوف يعطيك ربك) من توارد الوحي عليك بما فيه ارشاد لك ولقومك ومن ظهور دينك وعلو كلمتك واسعاد قومك بما تشرع لهم واعلائك واعلائهم على الامم في الدنيا والآخرة (فترضى) بما تراه من تلك النعم التي ليس وراءها مطلب لطالب . اتفقت الروايات على أن سبب نزول هذه السورة هو حصول فترة في توالي الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم فظن أو توهم أو قيل ان الله قد تركه وقلاه ثم اختلفت فيمن ظن أو توهم أو قال ولا حاجة لنا بذكر ما اختلف فيه فان من المحقق وهو الذي يرشد اليه أسلوب السورة

الشريفة أن الله أراد أن يلقى الطمأنينة فى نفسه عليه السلام بتأكيد تلك الأخبار التى ذكرها واحداً بعد الآخر وأن يستدل له على أن هذه الأخبار لا ريب فيها بما سبق من فضل الله عليه فالذى يعطف عليه بعنايته فيما سبق لايزال يؤيده بتلك العناية فيما يلحق ثم أنه رتب على سبوغ تلك النعم أمره لشخصه الكريم بتلك الأوامر التى جاءت فى قوله فأما اليتيم الخ وليس فى نسق السورة ما يشير الى أن المشركين أو غيرهم بغرض من الخطاب ومن أين كان للمشركين أن يعلموا فترة الوحى فيقولوا أو يطعنوا ولكن ذلك كان شوق النبى صلى الله عليه وسلم الى مثل ما رأى وما فهم عن الله وما ذاق من حلاوة الاتصال بوحيه وكل شوق يصحبه قلق وكل قلق يشوبه خوف وهو صلى الله عليه وسلم بشر يعلو به عن البشر الوحى وحده كما ذكره الله تعالى فى مواضع كثيرة من الكتاب نحو قوله قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى الخ وقد جاء فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم حزن لفترة الوحى حزناً غدا منه مراراً كى يتردى من رؤوس شواهق الجبال ولكن كان يمنعه تمثل الملك له واخباره بأنه رسول الله حقاً كما يأتى ذكره فى سورة اقرأ باسم ربك فذلك هو القلق والفزع الذى يحتاج الى ما به تكون الطمأنينة فآتاه الله ما كان فى شوق اليه وثبته بالوحى وبشره أن تلك الفترة لم تكن عن ترك ولا عن قلى وأقسم له على ذلك وأشار فى القسم الى أن ما كان من سطوع الوحى على قلبه أول مرة بمنزلة الضحى تقوى به الحياة وتنمو به الناميات وما عرض بعد ذلك فهو بمنزلة الليل اذا سكن لتستريح فيه القوى وتستعد فيه النفوس لما يستقبلها من العمل ومن المعلوم أن النبى صلى الله عليه وسلم لاقى من الوحى شدة فى أول أمره حتى جاء الى خديجة رضى الله عنها ترجف بوادره كما هو معروف فى حديث الصحيحين وغيره فكانت فترة الوحى لتثبيته عليه السلام وتقوية نفسه على احتمال ما يتوالى منه حتى تتم به حكمة الله تعالى فى ارساله الى الخلق ولهذا قال له وللآخرة خير لك من الأولى أى أن كرة الوحى ثانياً سيكمل بها الدين وتتم بها نعمة الله على أهله وأين بداية الوحى من نهايته وأين الاجمال الذى جاء فى قوله اقرأ باسم ربك الذى خلق الخ من تفصيل العقائد والاحكام الذى جاء فى مثانى القرآن ثم زاد الامر تأكيدا بقوله ولسوف يعطيك ربك فترضى على ما بيناه كأنه عليه السلام كان يجد فى نفسه أن للامر تتمة لم تأت بعد

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ

وكان فى الفترة ابطاء بتلك التتمة وهو شغف بحصولها فلم تكن نفسه راضية دون أن يبلغ ما أعده له من اكمال دينه فأكد له الوعد بأنه سيعطيه مما تتطلع نفسه اليه ولا يزال يعطيه حتى يرضى ويعلن عباده المؤمنين بقوله تعالى اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا وقد كان ذلك فى أكثر من عشرين سنة فاستعمال حرف التسويف لذلك

وللمفسرين هنا كلام فى الشفاعة وفى تكريم آل بيت النبوة حشروه فى التفسير حشراً وأكثره بعيد عن روح الدين الذى جاء به القرآن والأليق به كتب المذاهب التى ساء بها حال المسلمين وتفرقت بسببها كلمتهم

(ألم يجدك يتيما فآوى) التعبير بلم يجدك ووجدك على متعارف الخطاب فى لسان العرب أى لم تكن كذلك وكنت كذلك وأصل المعنى فى وجدت فلاناً كريماً مثلا أننى لم أكن أعرف منه الكرم فعرفته وذلك لا يكون فى جانب الله تعالى لكنه استعمل فى الاخبار بالكرم ونحوه أو المعنى ألم يعلم يتمك وضلالك الخ والاستفهام على كل حال للتقرير أى انك كنت كذلك وكان صلى الله عليه وسلم يتيما لأن والده توفى فى المدينة وهو حمل فى بطن أمه فلما وضعته عطف الله عليه قلب جده عبد المطلب وقلب مرضعه حليمة على يتمه وكفله جده خير كفالة ثم مات جده وهو فى سن ثمان سنين فكفله عمه أبو طالب بوصية من أبيه عبد المطلب وكان شديد العناية به فى صغره عظيم المحبة له فى كبره وما زال يحميه وينصره بعد أن أكرمه الله بالنبوة حتى قبض وتجرأت قريش على النبى صلى الله عليه وسلم بعد موت عمه حتى اضطرته الى الهجرة الى المدينة فذلك ايواء الله لنبيه وهو يتيم

(ووجدك ضالا فهدى) نشأ صلى الله عليه وسلم موحداً لم يسجد لصنم وطاهر الخلق لم يقترف فاحشة حتى عرف بين قومه بالامين فضلال الشرك وضلال الهوى فى العمل كانا بعيدين عن ذاته الكريمة برهبان الدنو من نفسه القوية نزهه الله عنهما من أول أمره ليعلى منزلته عند من يرسل اليهم فيسمعوا قوله ويهتدوا بهديه ولكن للضلال أنواع أخر منها اشتباه المآخذ على النفس حتى تأخذها الحيرة فيما

ينبغى أن تختار وقدعرف صلى الله عليه وسلم فساد دين قومه من مشركى العرب ولكن كان بين يديه دين النصرانية على ما كان عليه أهله ودين اليهودية وكلاهما دين توحيد وفى كليهماشريعة لنبى فهل فى اختيار أحد الدينين مصلحة له ولقومه وهل فى الدعوة الى ما يختار منهما فلاح لنفسه ولشعبه وهوعليه السلام أمى لا يقرأ الكتب ولا يعرف ماحوته تلك الاديان من الاحكام والشرائع . كيف كان يصلح ذلك وأهل كل من الدينين لم يكونوا فى حالهم أرشد من قومه فكان شئ من الشرك يشوب عقائدهم وكثير من السيآت والجرائم تدنس أعمالهم وحجتهم على الاقامة عليها ما ينسبونه الى دينهم من نص أو تأويل وأعظم أنواع الضلال كانت الحيرة فى أمر العرب أنفسهم يراهم صلى الله عليه وسلم فى سخافة عقائدهم وضعف بصائرهم باستيلاء الاوهام عليهم وفساد أعمالهم وشؤم تلك الاعمال فى أحوالهم وتفرق كلمتهم وتفانيهم بتسافك الدماء واشرافهم على الهلاك باستعباد الغرباء لهم وتحكم الاجانب فيهم الحبشة ثم الفرس من جانب والرومان من جانب آخر ثم هم فى غفلة عن مصيرهم ينفرون من الذل ويعدون أيديهم الى أسبابه ويفرون من الموت وهم يتدافعون على أبوابه فما العمل فى تقويم عقائدهم وتخليصهم من تحكم عاداتهم فيهم وأى طريق ينبغى أن تسلك فى ايقاظهم من سباتهم ومن أى الابواب يمكن أن يدخل الى قلوبهم ما أشدها حيرة على الصديقين وما أعظمها ظلمة تغشى السالكين من أهل الصدق واليقين الى أن يكشفها الله بالنور المبين وهى حيرة لم يكمل الحظ من شرفها الا للنبيين والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين فهذا هو الذى عناه الله بالضلال فى هذه الآية الكريمة وما أعظم الهداية فى ذلك الضلال وما أجدره بالكمل من الرجال وبعد هذا وهذا من اهتدى الى الله وعرف انه خالق الخلق كلهم وأنه وحده المستحق للعبادة دون أحدمنهم هل يدرى بنفسه بغير وحى الهى كيف يعبده وبأى وصف يصفه ويمجده والناس من حوله قد شبهوه بخلقه وقاسوه على مايعرفون من صنعه أفلا يحار الموحد كيف يصف ربه وبأى الوسائل يطلب قربه كل هذه الضروب من الحيرة كانت من حظه عليه الصلاة والسلام قبل أن تطلع عليه شمس النبوة والخلاص منها كان يطلب الخلوة بغار حراء ويتمس هداية ربه فى جوانب قلبه الى أن سطع عليه نور الوحى فانتشله من هذا كله واختار له ديناً قويماً وعلمه كيف يرشد قومه وسن له الطريق

وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ

فى تخليصهم وتخليص العالم مما كان فيه من فساد العقل وسوء العمل وهداه الى وصف ذاته بما يليق بذاته وأى نعمة أكبر وأجل من هذه النعمة هذا هو معنى قوله ووجدك ضالا فهدى وهو معنى قوله فى سورة الشورى « وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم صراط الله الذى له مافى السموات وما فى الارض الا الى الله تصير الامور » وليس فى وصف النبى عليه السلام بالضال على هذا المعنى شين له أو حط من شأنه بل هذا هو فخره عليه السلام وا كليل مجده لم يكن عالما فعلمه الله ولم يكن مطلعا الى الغيب فأطلعه الله وبهذا التفسير تستغنى عن خلط المفسرين فى التأويل (ووجدك عائلا فأغنى) العائل الفقير وقد كان صلى الله عليه وسلم فقيرا لم يترك له والده من الميراث الا ناقة وجارية فأغناه الله بما ربحه فى التجارة وبما وهبته خديجةمن مالها فمن آواك فى يتمك وهداك من ضلالك وأغناك من فقرك لايتركك فى مستقبل أمرك .

من ذاق مرارة الضيق فى نفسه فأجدر به أن يستشعرها فى غيره فيمنحه ما كان هو بصدد أن يستمنحه كان صلى الله عليه وسلم يتيما فباعد الله عنه ذل اليتم وآواه فما أجدره عليه السلام بأن يكرم كل يتيم شكرا لله على نعمته لهذا قال الله (فأما اليتيم فلا تقهر) أى فلا تذله بل ارفع نفسه بالأدب وهذبه بمكارم الاخلاق ليكون عضوا فى جماعتك ينفعها وتنتفع به ولا يفسده التذليل والهوان فيكون جرثومة فساد يتعدى أذاها الى كل من يخالطها من أمتك ولو علم الناس ما فى اهمال تربية الأيتام من الفساد فى الامة لقدروا عناية الله بأمرهم فى كتابه قدرها وليذلوا من سعيهم ومن مالهم فى اصلاح حال الايتام كل ما استطاعوا ولو أحس كل واحد بأن الموت قريب منه وأنه هدف لنبله لايدرى متى يأخذه عن ولده فيتركه اما غنياً يأكل ماله الأوصياء أو فقيراً يستذله الأدنياء لتسابقو الى تقويم أمر اليتيم تسابقهم الى اللذة والنعيم كان صلى الله عليه وسلم حيران

وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ

فأنقذه الله من حيرته فمن حق رعاية هذه النعمة أن يرأف بالحائرين لهذا قال الله له (وأما السائل فلا تنهر) والسائل هو المستفهم عما لا يعلم وليس هو طالب الصدقة فان هذا اللفظ لم يرد فى كتاب الله عنوانا للفقير والمسكين بل جرت سنة الكتاب المبين على ذكرهما بوصفهما ثم انه لا معنى لجعله مقابلا لقوله ووجدك ضالا بل كان من حقه أن يكون مقابلا لقوله ووجدك عائلا على أنه لا يصح أن يكون مقابلا لهذا ايضاً لأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن سائلا قط ومعنى لا تنهر لا تزجر أى لا تزجر سائلا مستفهما مسترشداً وان ضعف عقله وعظم جهله فقد ذقت من ألم الحيرة ما يعطفك على المتحيرين طلاب الارشاد فى العلم والدين وقد اخترعوا أحاديث فى السائل لا أصل لها ويتنزه صلى الله عليه وسلم عن أن تنسب اليه .

من عادة البخلاء أن يكتموا مالهم لتقوم لهم الحجة فى قبض أيديهم عن البذل فلا تجدهم الاشاكين من القل اما الكرماء فلا يزالون يظهرون بالبذل ما آتاهم الله من فضله ويجهرون بالحمد لما أفاض عليهم من رزقه فلهذا صح أن يجعل التحديث بالنعمة كناية عن البذل واطعام الفقراء واعانة المحتاجين فهذا هو قوله (وأما بنعمة ربك فحدث) اى أنك لما عرفت بنفسك ما يكون فيه الفقير فأوسع فى البذل على الفقراء وليس القصد هو مجرد ذكر الثروة فان هذا من الفخفخة التى يتنزه عنها النبى صلى الله عليه وسلم ولم يعرف عنه فى امتثال هذا الأمر أنه كان يذكر ما عنده من نقود وعروض ولكن الذى عرف عنه أنه كان ينفق ما عنده ويبيت طاويا وقد يقال أن المراد من النعمة النبوة ولكن سياق الآيات يدل على أن هذه الآية مقابلة لقوله ووجدك عائلا فتكون النعمة بمعنى الغنى ولو كانت بمعنى النبوة لكانت مقابلة لقوله ووجدك ضالا وقد عست الحق فى مقابله والله أعلم

سورة الانشراح مكية وهى ثمان آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝

(ألم نشرح لك صدرك) الشرح التوسعة والبسط وعظم الصدر من الجسم كان عند العرب دليل القوة وعظم المنـة وكثيراً ما يفتخر مفتخرهم بعظم صدره ولهم الحق لأنه يعطى الاحشاء فسحة للنمو مع الراحة والقوى قاهر لما ينتابه فهو فى مسرة وحضور راى دائما لايضيق ذرعه بأمر ولذلك كنوا بشرح الصدر عن المسرة وانبساط النفس الى الفعل والقول وقد شرح الله صدر نبيه باخراجه من تلك الحيرة التى كان يضيق لها صدره بما كان يلاقيه فى سبيله من جمود قومه وعنادهم فكان يلتمس الطريق لهدايتهم فعلمه الله كيف يسلك الى نفوسهم وهداه بالوحى الى الدين الذى ينقذهم به من الهلكة التى كانوا أشرفوا عليها وقد كان ما يهمه من أمرهم حملا ثقيلا عليه فوضعه الله عنـه وأراحه من ثقله بقيادة الله له فى سبيل نجاتهم وتعهده بالوحى كلما التبس عليه أمر أو ضاق عليـه مذهب فبهذه الهداية التى تكفل له بها قد وضع عنه ذلك العبء الثقيل كما قال (ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك) والوزر هو الحمل وانقاض الظهر أن يحدث فيه صوت الانتقاض والانفكاك ونقيض الظهر الصوت الذى يحدث فيـه لثقل الحمل وهو معروف والكلام على التمثيل فان ما كان يحمله عليه السلام من ثقل الاهتمام بشأن قومه وضيق المذاهب بين يديه قبل تواتر الوحى عليـه بالارشاد لم يكن ثقلا حسيا ينقض منـه الظهر ولكنه كان هماً نفسياً يفوق ألمه ألم ذلك الثقل الحسى الممثل به فعبر عن الهم الذى تبخع به النفوس بالحمل الذى تقصم له الظهور .

وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا

هداه الله الى انقاذ أمة بل أمم كثيرة من رق الاوهام وفساد الاحلام ورجع بهم الى الفطرة السليمة حرية العقل والارادة والاصابة في معرفة الحق ومعرفة من يقصد بالعبادة فاتحدت كلمتهم في الاعتقاد بالاله الواحد فاستخلصوا حياة كانت في مخالب الموت كما قال وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها فمن كان هذا عمله فأي ذكر أرفع من ذكره وأي شأن أعلى من شأنه هذا الى ما فرض الله من الاقرار بنبوته والاعتراف برسالته بعد بلوغ دعوته وجعلها شرطاً في دخول جنته فهذا هو قوله تعالى (ورفعنا لك ذكرك) والاتيان بالجار والمجرور «لك وعنك» وتقديمه على المفعول في الآيات الثلاث لزيادة التقرير والاسراع بالتبشير ·

هذا الذي منحناه من شرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر بعد ضيق الأمر واستحكام حلقات الكرب في أول السير كان على ما جرت به سنتنا في هذا النوع من خليقتنا وهو أن مع العسر يسراً ولهذا وصل العبارة بالفاء التي لبيان السبب في قوله (فان مع العسر يسراً) أل في العسر للاستغراق ولكنه استغراق المعهود عند المخاطبين من أفراده أو أنواعه فهو العسر الذي يعرض من الفقر والضعف وجهل الصديق وقوة العدو وقلة الوسائل الى المطلوب ونحو ذلك مما هو معهود ومعروف فهذه الأنواع من العسر مهما اشتدت وكانت النفس حريصة على الخروج منها طالبة لكشف شدتها واستعملت من وسائل الفكر والنظر والعمل ما من شأنه أن يعد لذلك في معروف العقل واعتصمت بعد ذلك بالتوكل على الله حتى لا تضعفها الخيبة لأول مرة ولا يفسخ عزيمتها ما تلاقيه عند الصدمة الاولى فلا ريب في أن النفس تخرج منها ظافرة وقد كان هذا حال النبي صلى الله عليه وسلم فان ضيق الامر عليه كان يحمله على الفكر والنظر حتى آتاه الله ما هو أكبر من ذلك وهو الوحي والنبوة ثم لم تكسر مقاومات قومه شيئاً من عزمه بل مازال يلتمس الغنى في الفقر والقوة في الضعف حتى أوتي من ذلك ما زعزع أركان الاكاسرة والقياصرة وترك منه لامته ما تمتعت به أعصاراً طوالا وما كان أحقها بأن تتمتع بهذا الميراث الكريم لو بقيت أمة له حقيقة كما هي أمة له أسما ولكنها قطعت النسب

إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا

بينها وبين مورثها فسلبها الله ما ترك لها من ميراث وأعطاه أعداءها شأن الله مع من لا يشعر بشرف بيته ومكانه من حسبه وانما بقيت لها ألقاب وأسماء كما يبقى للسفهاء من آبائهم الاغنياء وكان فى هذه الآية عبرة لهذه الأمة وكان عليها أن تعرف أن مع العسر يسراً وأن وعد الله فى ذلك حق وأن تقتدى بنبيها فى طلب الوسائل للخلاص مما هى فيه وعندها كتاب الله وحده هداية للمهتدى وقدوة للمقتدى .

ولما كانت القضية موضعاً للريب خصوصاً عند من أخذ الضيق بخناقه أكدت بأن ولما كان الشك يزداد بل قد ينتهى الى الانكار فى بعض أنواع العسر استأنف القضية نفسها وأعادها بلفظها فقال (ان مع العسر يسراً) ولكن على أن يكون معناها أعم من معنى سابقتها .

قد تقع أمم أو أشخاص فى ضرب من ضروب العسر من نوع ما سبق ثم يجدون الضعف من هممهم عن الخلاص مما أطبق عليهم منه فيدوم لهم العسر وقد يموتون وتنشأ فيه أعقابهم فأين اليسر الذى يصحب العسر عند هؤلاء ومن ضروب العسر ما يختلف نوعه عن المعهود كالمرض الطويل المفضى الى الموت وكالزمانة التى تصحب الزمن من أول حياته الى مماته فأى يسر جاء مع عسرها فجاءت هذه الآية المستأنفة لرفع هذا الاشتباه فى عموم السنة الالهية وذلك أن أولئك الذين استعملوا ما وهبهم الله من القوى للخلاص مما ينزل بهم اذا كان مما يمكن كشفه لا ريب فى كشف العسر عنهم بنوع من أنواع اليسر كما وقع للنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه أما الآخرون الذين لا بصيرة عندهم فى تصريف تلك المواهب الالهية بل يطلبون أن ينتهوا الى الغايات بغير بدايات وأن يصلوا الى المقصد بغير وسيلة فلا يستعملون عقولهم ولا عزائمهم فى دفع ما يحل بهم وليس لهم ثقة بربهم فيعملوا معتمدين عليه هؤلاء يحسون بالالم حيناً ثم تخنس نفوسهم وتقبع فى حجر من الاستكانة وتستقر فيها طمأنينة الرضى بما غمرها من الضر فتسلب الاحساس به ثم اذا طال بها الزمن فيه تحول الالم الى لذة بالمعتاد ولا عجب من تحول الالم الى لذة فانك ترى فى شارب الدخان مثلا يألم لأول مرة بل قد يأخذه الدوار وأشد آلام الصداع ثم لا يلبث أن يكون

فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ

عادة مرغوبة يألم أشد الألم لتركها ومن هذا تجد الأمم التى تعودت على عسر الاستبداد والظلم قد ألفت ذلك حتى صار يصعب عليها أن تحتمل غيره ولا تزال تحن اليه وكلما طلب ابعادها عنه اندفعت بالاقبال عليه فهذا نوع من اليسر وان كان أشأم من العسر ولكن أليست النفس راضية به مطمئنة اليه أما المرض الطويل الممتد الى الموت والزمانة مما لا يمكن كشفه فلك أن تقول أنه لا يدخل فى أنواع العسر التى شملها استغراق العهد فان الاستغراق للعسر والضيق المعهودين وهما ما يمر بالخاطر اذا وقع الحديث على العسر أو الضيق وذلك هو الأنواع التى ذكرناها فى تفسير الآية السابقة « فان مع العسر يسراً » وبالجملة فالعسر الداخل فى الاستغراق هو كل ماتجد النفس ألم الوقوع فيه وتنزع الى طلب الخلاص منه بالوسائل التى سنها الله لذلك الخلاص ولاريب فى أن كل عسر من هذا القبيل فمعه يسر يسوقه الله الى العامل الآمل العاقل جزاء عمله لتحقيق أمله واستعماله لموهبة عقله أما مثل الزمانة والمرض الطويل فيدخلان فى نحو قوله فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون وكذلك يقال فى عارض يعرض للأمة اذا حم هلاكها كزلزال ونحوه والله أعلم وتنكير اليسر لأن الذى يأتى بعد العسر أى نوع من أنواعه لا يختص بيسر معين والتعبير بالمعية لتوثيق الأمل بأنه لا بدمنه كأنه معه اذا علمت أن مع العسر يسراً فاعلم أن مع التعب فى العمل النافع راحة (فاذا فرغت) من عمل من أعمالك النافعة لك ولأمتك (فانصب) أى خذ فى عمل آخر واتعب فيه فانك تجد لذة الراحة عقب النصب بما تجنيه من ثمرة العمل (والى ربك فارغب) أى لا ترغب الى أحد فى استثمار أعمالك الا الى الله وحده والسورة مكية عند الجمهور بل زعم بعضهم أنها تتمة لسورة الضحى وعلى هذا تكون المنة بشرح الصدر مبنية على عود الوحى والتبشير بما جاء فى سورة الضحى وقال البقاعى انها مدنية بناء على ما يفهم من التقرير بشرح الصدر وما بعده وهذا انما كان بعد ظهور القوة وبعد أن فتح الله على المسلمين مافتح عليهم وأكمل لهم النعمة بغلبة حقهم على باطل عدوهم والله أعلم

سورة التين مكية وهي ثمان آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ

(هذا البلد الأمين) هو مكة المشرفة ولقبه بالأمين لأن الله حرم فيه القتل والاعدام حتى للاشجار والنبات ما عدا بعض أنواع منه استثنيت لحاجة الناس اليها فهو بلد مأمون الغائلة لايخافه من يحله والقسم به للتنويه بقدره خصوصاً وهو مبعث نور الاسلام (وطور سينين) هو الجبل الذى كلم الله موسى صلى الله عليه وسلم عليه ويقال طور سيناء بفتح السين وكسرها وقرئ سينين بفتح السين وهي لغة بكر وتميم ويقال ان سينين والياسين والغسلين وأمثال هذا الوزن من لغة أهل اليمن وعرب الجنوب وسينين قيل اسم للبقعة التى بجوار الجبل وقال الاخفش سينين جمع بمعنى شجر واحدته سينة وقيل غير ذلك والقسم به لرفع ذكره والتذكير بما كان عند ذلك الجبل من الآيات الباهرات التى ظهرت لموسى ولقومه وما كان بعد ذلك من سن الشريعة الموسوية وانزال التوراة (والتين) قيل جبل فى دمشق ويسمي طورتينا لأنه منبت التين وقيل أن التين هو مسجد دمشق وقيل هو مسجد نوح عليه السلام الذى بناه على الجودى وقيل موضع الكوفة لأنه كان منزلا لنوح عليه السلام وقيل جبل ما بين حلوان وهمذان والقسم به للتذكير بأمر نوح وما أهلك الله به أهل الفجور والفساد وأنجى الله المؤمنين الصالحين وأما على أنه جبل فى دمشق أو مسجدها فلا تفهم للاقسام به حكمة بل يكون مما لا يعلمه الا الله (والزيتون) قيل هو طور زيتا وهو جبل ببيت المقدس وقيل هو بيت المقدس نفسه وسماه بالزيتون لكثرة شجر الزيتون فيما حوله وبالجملة فعلى هذه الاقوال يكون التين والزيتون كنايتين عن مواضع وليس المقصود هو الاقسام بالأشجار نفسها وانما كنى بها عن مغارسها وقال قليل

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ

من المفسرين ان الاقسام هو بالنوعين لذاتهما التين والزيتون قالوالكثرة فوائدهما ولكن تبقى المناسبة بينهما وبين طورسينين والبلد الأمين وحكمة جمعهما معهما فى نسق واحد غير مفهومة ولهذا رجح أنهما موضعان وقد يرجح أنهما النوعان من الشجر ولكن لا لفوائدهما كما ذكروا بل لما يذكران به من الحوادث العظيمة التى لها الآثار الباقية فى أحوال البشر قال صاحب هذا القول ان الله تعالى أراد أن يذكرنا بأربعة فصول من كتاب الانسان الطويل من أول نشأته الى يوم بعثة النبى صلى الله عليه وسلم فالتين اشارة الى عهد الانسان الاول فانه كان يستظل فى تلك الجنة التى كان فيها بورق التين وعند مابدت له ولزوجته سوآتهما طفقا يخصفان عليهما من ورق التين . والزيتون اشارة الى عهد نوح عليه السلام وذريته وذلك لأنه بعد أن فسد البشر وأهلك الله من أهلك منه بالطوفان ونجى نوحا فى سفينته واستقرت السفينة نظر نوح الى ماحوله فرأى المياه لاتزال تغطى وجه الارض فأرسل بعض الطيور لعله يأتى اليه بخبر انكشاف الماء عن بعض الارض فغاب ولم يأت بخبر فأرسل طيراً آخر فرجع اليه يحمل ورقة من شجر الزيتون فاستبشر وسر وعرف أن غضب الله قد سكن وقد أذن للأرض أن تعمر ثم كان منه ومن أولاده تجديد القبائل البشرية العظيمة فى الارض التى محى عمرانها بالطوفان فعبر عن ذلك الزمن بزمن الزيتون والاقسام هنا بالزيتون للتذكير بتلك الحادثة وهى من أكبر مايذكر به من الحوادث . وطور سينين اشارة الى عهد الشريعة الموسوية وظهور نور التوحيد فى العالم بعد ما تدنست جوانب الأرض بالوثنية وقد استمر الأنبياء بعد موسى يدعون قومهم الى التمسك بتلك الشريعة الى ان كان آخرهم عيسى صلى الله عليه وسلم جاء مخلصاً لروحها مما عرض عليه من البدع ثم طال الأمد على قومه فأصابهم ما أصاب من قبلهم من الاختلاف فى الدين وحجب نوره بالبدع واخفاء معناه بالتأويل واحداث ماليس منه بسبيل فمن الله على البشر ببداية تاريخ ينسخ جميع تلك التواريخ ويفصل بين ماسبق من اطوار الانسانية وبين مايلحق وهو عهد ظهور النور المحمدى من مكة المكرمة واليه أشار بذكر البلد الامين وعلى هذا القول الذى فصلنا بيانه يتناسب القسم والمقسم عليه كما سترى (لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم) التقويم

ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ

التعديل وكثيراً مايطلق المصدر ويراد منه أثره أى فى أحسن اعتدال وأفضل قوام فيقسم جل شأنه انه قوم الانسان أفضل تقويم وركبه أحسن تركيب وأكد ذلك لأن الناس بغفلتهم عما كرمهم الله به من العقل كأنهم ظنوا أنفسهم كسائر أنواع العجماوات يفعلون كما تفعل لايمنعهم حياء ولا تردهم حشمة خصوصاً وقدقال بعضهم أن الانسان خلق ميالاً الى الشر فيقول الله سبحانه تبيينالفسادهذه المزاعم أنه فطر الانسان أحسن فطرة نفساً وبدنا وكرمه بالعقل الذى ساد به على العوالم الارضية واطلع به على ماشاء الله من العوالم السماوية وقد كان الانسان فى سذاجته بعيداً عن الأثرة حى القلب بالتراحم كما تراه فى حال الاطفال فعاش سعيداً وعاش أفراده فى نعيم الطمأنينة كان ذلك زمناما وهوالعهدالاول وماشبهه بثمرة التين تؤكل كلها ولا يرمى منها شىء والانسان كان صلاحا كله لم يشذ عن الجماعة منه فرد تلك كانت أيام القناعة بما تيسر من العيش وشدة الاحساس بحاجة كل فرد الى الآخر فى تحصيله وفى دفع العوادى عن النفس. تنبهت الشهوات بعد ذلك وتخالفت الرغبات فنبت الحسد والحقد وتبعه التقاطع والتقاتل واستشرى الفساد بالانفس حتى صارت الامانة عند بعض الحيوان أفضل منها عند الانسان فانحطت بذلك نفسه عن مقامها الذى كان لها بمقتضى الفطرة وقد كان ذلك ولا يزال حال أكثر الناس فهذا قوله (ثم رددناه أسفل سافلين) أى صيرناه أسفل من كثير من الحيوانات التى كانت أسفل منه لأن الحيوان المفترس مثلا انما يصدر فى عمله عن فطرته التى فطر عليها لم ينزل عن مقامه ولم ينحط عن منزلته فى الوجود أما الانسان فأنه باهماله عقله وجهله بما ينبغى أن يعمل لتوفير سعادته وسعادة اخوانه ينقلب أرذل من سائر أنواع الحى ولكثر ماقلت « اذا فسد الانسان فلا تسل عما يصدر عنه من هذيان أو عدوان » ثم ان الذين ارتدوا الى أسفل سافلين منهم من هلك فى زمن نوح أو فى أزمان أخر ومنهم من سيهلك وهم فى تلك المنزلة من الخسة فتدوم لهم كذلك فى الحياة الأخرى وللسافلين فيها منازل العذاب والخزى والهون

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ

(الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجرغير ممنون) استثنى الله المؤمنين الذين يؤمنون بموجد الكائنات وبأن الله قد وضع شريعة للخير والشر وميز بينهما وأنه يجزى القائم على الشريعة باتيان الخير وتجنب الشر بالسعادة فلذلك يدلون على ايمانهم بالأعمال الصالحة وهى معروفة عند عامة البشر وجماعها العدل والاحسان فهؤلاء قد حفظوا منزلتهم من الانسانية واستبقوا لأنفسهم ذلك الاعتدال الفطرى فلهم اجر الكرامة فى الدنيا فاذا جاءهم الموت امتد بهم النعيم الى الآخرة فأجرهم غير ممنون أى غير مقطوع هؤلاء المؤمنون هم الانبياء وأتباع الانبياء ومن هداهم الله الى دين الحق من كل أمة وهم الذين أكرم الله بهم النوع البشرى واستبقى بهم منزلته السامية فى عالمه وما تراه فى الأمم من آثار باقية فانما هو من آثار هممهم فاذا كنت ترى ذلك أيها الانسان (فما يكذبك بعد بالدين) الدين ههنا هو خلوص السريرة للحق وقيام النفس بصالح العمل وهو ما كان يدعو اليه صلى الله عليه وسلم وسائر اخوانه الانبياء وهو استفهام انكارى أى لا يوجد سبب يحملك على التكذيب بالدين بعد أن عرفت أن الانسان قد خلق كريماً وان الذى يحفظ كرامته انما هم المؤمنون الصالحون وهم أهل الدين الصحيح (أليس الله بأحكم الحاكمين) أى هل تنكر أن الله أحكم من حكم ودبر وهو استفهام انكارى مآله أن الله أعلى المدبرين حكمة ولهذا وضع الدين لهذا النوع الانسانى ليحفظ له منزلته من الكرامة التى أعدها الله له بأصل خلقته ثم هو ينحدر عنها الى المنازل السفلى بجهله وسوء تصريفه لهواه لذلك أرسل الأنبياء عليهم السلام من نوح ومن بعده الى محمد صلى الله عليه وسلم وبهذا يكون التفريع بالفاء ظاهراً وقد فسر الدين بالجزاء يوم القيامة وبينوا معنى الفاء بأنه اذا كان الله خلق الانسان وابتدأ خلقه بلا مثال أفلا يقدر على اعادته وأنت تراه بعيداً من المعنى بعداً سحيقاً واسلوب السورة ظاهر فى المعنى الذى بيناه والله أعلم

سورة العلق مكية وهي تسع عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝

صح فى الأخبار أن النبي صلى الله عليه وسلم أول ما تمثل له الملك الذى يتلقى عنه الوحى قال له الملك اقرأ قال رسول الله فقلت ما أنا بقارىء قال فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال اقرأ فقلت ما أنابقارئ فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال اقرأ فقلت ماأنا بقارئ فغطنى الثالثةحتى بلغ منى الجهد فقال اقرأ باسم ربك الذى خلق حتى بلغ « مالم يعلم » قال الراوى فرجع بها ترجف بوادره حتى دخل على خديجة والحديث طويل وفيه أن الوحى قد فتر فترة بعد ذلك حزن لها النبى صلى الله عليه وسلم حزناً غدا منه مراراً كى يتردى من رؤوس شواهق الجبال ولكن كان عندمه تمثل الملك له واخباره بأنه رسول الله حقاً وفى هذا دلالة على أن (اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم) هو أول خطاب الهى وجه الى النبي صلى الله عليه وسلم أما بقية السورة فهو متأخر النزول قطعاً وما فيه من ذكر أحوال المكذبين يدل على أنه انما نزل بعد شيوع خبر البعثة وظهور أمر النبوة وتحرش قريش لايذائه عليه السلام ثم هذا لا ينافى أن اول سورة نزلت كاملة بعد ذلك هى أم الكتاب كما بيناه فى تفسيرها

ترى من سياق القصة التى قدمناها أن المتبادر من معنى الآية الأولى كن قارئاً باسم الله من قبيل الأمر التكوينى فان النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن قارئاً ولا كاتبا ولذلك كرر القول مراراً « ماأنا بقارئ » وبعد ذلك جاء الأمر الالهى بأن يكون قارئاً وان لم يكن كاتباً فانه سينزل عليه كتاب يقرؤه وان كان لا يكتبه ولذلك وصف الرب بالذى خلق أى الذى أوجد الكائنات فالمتصف بالصفات التى يظهر أثر المتصف بها فى ابداع الكائنات التى لايحيط بها الوصف قادر أن يوجد فيك القراءة وان لم يسبق لك تعلمها لأنك لم تكن تدرى ماالكتاب فكأن الذى

اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ

يقول كن قارئاً بقدرتى وبارادتى وانما عبر بالاسم لأنه كما سبق فى سورة سبح دال على ماتعرف به الذات وخلق القرءة يلفتك الى الذات وصفاتها جميعا لأن القراءة علم فى نفس حية فهى تخطر ببالك من الله وجوده وعلمه وقدرته وارادته أما اذا حملنا الأمر على التكليف وقلنا ان المعنى أنك مأمور اذا قرأت أن تقرأ باسم الله وهو خلاف المتبادر فيكون معنى ذلك هو مابيناه فى معنى باسم الله الرحمن الرحيم فى تفسير الفاتحة أى اذا قرأت فاقرأ دائماً على أن تكون قراءتك عملا تنفذه لله لا لغيره فلو فرض أنه قرأ وجعل قراءته لله لا لأحد سواه ولم يذكر الاسم فهو قارئ باسم الله وانما طلبت التسمية باللسان لتكون منبهة للضمير فى بداية كل عمل الى أن يرجع الى الله فى ذلك العمل ويلاحظ أنه يعمل لاسمه لا لاسم غيره سبحانه والعلق الدم الجامد وهى حالة الجنين فى الأيام الاولى لخلقه ومن كان قادراً على أن يخلق من الدم الجامد انساناً وهو الحى الناطق الذى يسود بعلمه على سائر المخلوقات الأرضية ويسخرها لخدمته يقدر أن يجعل من الانسان الكامل مثل النبى صلى الله عليه وسلم قارئاً وأن لم يسبق له تعلم القراءة . جاء بهذه الآية بعد سابقتها ليزيد المعنى تأكيداً كأنه يقول لمن كرر القول أنه ليس بقارئ أيقن انك قد صرت قارئاً باذن ربك الذى أوجد الكائنات وما القراءة الا واحدة منها (١) والذى أنشأ الانسان خلقاً كاملاً من دم جامد لاشكل فيه ولاصورة وانما القراءة صفة عارضة على ذلك الانسان الكامل فهى أولى بسهولة الايجاد ولما كانت القراءة من الملكات التى لاتكسبها النفس الا بالتكرار والتعود على ماجرت به العادة فى الناس ناب تكرار الأمر الالهى عن تكرار المقروء فى تصييرها ملكة للنبى صلى الله عليه وسلم فلهذا كرر الأمر بقوله (اقرأ وربك الاكرم) وجملة وربك الخ استئنافية لبيان أن الله أكرم من كل من يرتجى منه الاعطاء فيسير عليه أن يفيض عليك هذه النعمة نعمة القراءة من بحر كرمه ثم أراد أن يزيده اطمئناناً بهذه الموهبة الجديدة فوصف مانحها بأنه (الذى علم بالقلم) أى أفهم الناس بواسطة القلم

(١) والذى انشأ الخ معطوف على الذى أوجد الكائنات اه منه

عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ

كما أفهمهم بواسطة اللسان والقلم آلة جامدة لا حياة فيها ولا من شأنها فى ذاتها الافهام فالذى جعل من الجماد الميت الصامت آلة للفهم والبيان الا يجعل منك قارئاً مبيناً وتالياً معلماً وأنت انسان كامل ثم أراد أن يقطع الشبهة من نفسه ويبعد عنه استغراب أن يقرأ ولم يكن قارئاً فقال (علم الانسان مالم يعلم) أى أن الذى صدر أمره بأن تكون قارئاً وأوجد فيك ملكة القراءة والتلاوة وسيبلغك فيها مبلغاً لم يبلغه سواك هو الذى علم الانسان جميع ما هو متمتع به من العلم وكان فى بدء خلقه لا يعلم شيئاً فهل يستغرب من هذا المعلم الذى ابتدأ العلم للانسان ولم يكن سبق له علم بالمرة أن يعلمك القراءة وعندك كثير من العلوم سواها ونفسك مستعدة بها لقبول غيرها . ثم أنه لايوجد بيان أبرع ولا دليل أقطع على فضل القراءة والكتابة والعلم بجميع أنواعه من افتتاح الله كتابه وابتدائه الوحى بهذه الآيات الباهرات فان لم يهتد المسلمون بهذا الهدى ولم ينبههم النظر فيه الى النهوض الى تمزيق تلك الحجب التى حجبت عن أبصارهم نور العلم وكسر تلك الابواب التى غلقها عليهم رؤساؤهم وحبسوهم بها فى ظلمات من الجهل وان لم يسترشدوا بفاتحة هذا الكتاب المبين ولم يستضيئوا بهذا الضياء الساطع فلا أرشدهم الله أبدا

هذه الآيات دلت على ان الله خالق العالم وعلى أن لاينسب الخلق الى غيره كما ترشد اليه الآية الاولى وأنه خلق الانسان الحى الناطق مما لا حياة فيه ولا نطق ولا شكل ولا صورة وعلمه أفضل علم وهو الكتابة ووهبه العلم ولم يكن يعلم شيأ فكل شىء للانسان فهو منه ومن هباته فما أعجب ما يكون من الانسان بعد ذلك من غفلته عن ذلك كله لمجرد أن يحس من نفسه الغنى عن غيره ولهذا ناسب أن يؤتى بعد تلك الآيات المتقدمات بما نزل بعدها بسنين كثيرة من قوله (كلا ان الانسان ليطغى) كلا كلمة زجر تفيد فى الاغلب أن ما بعدها مخالف لأثر ماقبلها أى ما أسخف عقل الانسان فانه مع ظهور أمره وشدة فقره فى نفسه وظهور أن الله مالك كل شىء عنده يطغى ويخرج عن الحد الذى يجب عليه أن يقف عنده فيستكبر عن الخشوع لربه ويتطاول بالاذى على خلقه وذلك (أن رآه استغنى)

إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ۝ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ۝ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ۝ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ۝

أى متى أحس من نفسه قدرة وثروة يعد نفسه بهما فوق من دونه من الناس فلا يرى أنه معهم أعضاء جماعة واحدة يحتاج كل الى الآخر فى استدامة الأمن واستكمال السعادة . والاستغناء بهذا المعنى هو الرذيلة وهو المذكور فى قوله وأما من بخل واستغنى فى سورة الليل . أما الغنى والقوة فى أيدى الاتقياء فهما أعظم وسائل الخير وأفضل أسباب السعادة الدنيوية والاخروية ولكن الاتقياء يرشدهم فى تصريف ثروتهم وقوتهم العلم والدين الصحيحان والأغلب من عامة الناس يصرفهم الهوى والشهوة لهذا أطلق الانسان باعتبار الاغلب من أفراده وهم الذين يستغنون بالمعنى السابق . ولما كان المغرور يظن أنه فى سوء عمله انما يصنع ما هو من حقه ضاعف له التأكيد فقال انه ليطغى أى أنه باستغنائه يخرج عن حده قطعا ثم بين أنه واهم فى طغيانه كاذب فى زعمه أنه ملك ناصية القوة والقدرة لان ما فى يده عارية وليست نفسه بباقية ولا لها من الله واقية فقال (ان الى ربك الرجعى) أى المرجع أى أن المرجع الى الله وحده دون غيره فهو مالكك ومالك ما تملكه وهو الذى ينتزع روحك فتخرج من هذه الحياة الدنيا الى حياة ينكشف عنك فيها غطاء الغرور وتظهر فى مظهر ذلك وتحاسب على ما أتيته أيام عزك بعد ذلك جاء الله لنا بمثل من أمثلة الطغيان وذكره على طريقة الاستغراب والتبشيع ثم أعقب ذكره بالوعيد والتهديد فقال (أرأيت الذى ينهى عبداً اذا صلى) كلمة أرأيت صارت تستعمل فى معنى أخبرنى على أنها لا يقصد بها فى مثل هذه الآية الاستخبار الحقيقى ولكن يقصد بها انكار الحالة المستخبر عنها وتقبيحها كما فى قوله أرأيت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع اليتيم الخ فكأنه يقول ما أسخف عقل هذا الذى يطغى به الكبر فينهى عبداً من عبيد الله عن صلاته خصوصاً وهو فى حالة أدائها أما قوله (أرأيت ان كان على الهدى أو أمر بالتقوى) فمعناه أخبرنى عن حاله ان كان ذلك الطاغى على الهدى وعلى صراط الحق أو أمر بالتقوى مكان نهيه عن الصلاة أفما كان ذلك خيراً له وأفضل

أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۝ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ۝ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۝ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ

وقوله (أرأيت ان كذب وتولى) أى نبئنى عن حاله ان كذب وتولى أى كذب بما جاء به النبيون أو كذب بثبوت الفضيلة وأصل الفرق بين الخير والشر والصالح والطالح وتولى أى أعرض عن العمل الطيب أفلا يخشى أن تحل به قارعة ويصيبه من عذاب الله ما لا قبل له باحتماله فجواب كل من الشرطين محذوف كما رأيت فى تفسير المعنى وهو من الايجاز المحمود بعد ما دل على المحذوف بقوله (ألم يعلم بأن الله يرى) أى أجهل أن الله يطلع على أمره فان كان تقياً على الهدى أحسن جزاءه وان كذب وتولى لم يفلت من عقوبته ثم أن ما يطيل به المفسرون فى المفعول الثانى لفعل أرأيت الأولى ومفعوليها فى الثانية والثالثة فهو مما لا معنى له لأن القرآن قدوة فى التعبير وقد استعملها بمفعول واحد وبلا مفعول أصلا بمعنى أخبرنى والجملة المستخبر عن مضمونها تسد مسد المفاعيل (كلا لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية) كلمة كلا ردع بالزجر جديد أى لا يستمر به غروره وجهله وطغيانه فانى أقسم لئن لم ينته عن هذا الطغيان وان لم يكف عن نهى المصلى عن صلاته لنسفعاً بناصيته أى لنأخذن بها والناصية شعر الجبهة او الجبهة نفسها قال المبرد السفع الجذب بشدة وسفع بناصية فرسه جذبه قال عمرو بن معدى كرب

قوم اذا كثر الصياح رأيتهم * ما بين ملجم مهره أو سافع

والأخذ بالناصية هنا مثل فى القهر والاذلال والتعذيب والنكول (ناصية كاذبة خاطئة) أعاد الناصية على طريق البدل مع وصفها بالوصفين التابعين لها لزيادة التشنيع بها وهى كاذبة لغرورها بقوتها مع أنها فى قبضة خالقها فهى تزعم مالا حقيقة له وخاطئة لأنها طغت عن حدها وعتت عن أمر ربها وأساءت الى الصالحين من قومها ونسبة الكذب والخطيئة الى الناصية مع أن الكاذب والمخطىء صاحبها لأن الناصية مظهر الغرور والكبرياء كما هو معروف. (فليدع ناديه) النادى المجلس الذى يجتمع فيه القوم ويطلق على القوم أنفسهم أى فليجمع أمثاله ممن ينتدى معهم ليمنع المصلين المخلصين ويؤذى أهل الحق الصادقين فان فعل فقد

سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ

تعرض لقهرنا وتنكيلنا (سندع الزبانية) الزبانية فى أصل اللغة الشرط وأعوان الولاة قيل أنه جمع لا واحد له وقال أبو عبيدة واحده زبنية بكسر فسكون كعفرية وقال الكسائى واحده زبنى بالكسر كانسى وقال عيسى بن عمر واحده زابن وقد تطلق العرب هذا الاسم على من اشتد بطشه وان لم يكن من أعوان الولاة قال

مطاعيم فى القصوى مطاعين فى الوغى * زبانية غلب عظام حلومها

أى سندعو له من جنودنا القوى المتين الذى لاقبل له بمغالبته فيهلكه فى الدنيا أو يرديه فى النار فى الآخرة وهو صاغر (كلا لاتطعه واسجد واقترب) كلا زجر عن الاصغاء لقول الطاغى فلا تطع الطاغى اذا نهاك عن عبادة ربك واسجد له واقترب أى تقرب اليه بالعبادة ولا تبعد عنه بتركها .

ذكر الصلاة فى السورة لايدل على أن بقيتها نزل بعد فرض الصلاة فقد كان للنبى وأصحابه صلاة قبل أن تفرض الصلوات الخمس المعروفة . جاء فى الخبر أن أبا جهل قال لئن رأيت محمداً يصلى عند الكعبة لأطأن على عنقه فبلغ النبى صلى الله عليه وسلم فقال لو فعل لأخذته الملائكة وفيه نزلت الآيات ولا مانع من أن يكون فى الآيات اشارة اليه ولكنها عامة فى كل وقت وزمن كما ترى والخطاب فيها موجه الى من يخاطب لا الى شخص النبى صلى الله عليه وسلم والله أعلم

سورة القدر مكية وهي خمس آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ

(انا أنزلناه فى ليلة القدر) قال الله تعالى فى مفتتح سورة الدخان وهى سورة قصد فى مفتتحها الى ذكر الزمن الذى نزل فيه القرآن كهذه السورة « حم والكتاب المبين انا أنزلناه فى ليلة مباركة انا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم أمراً من عندنا انا كنا مرسلين رحمة من ربك انه هو السميع العليم الخ » وقال فى سورة البقرة « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » هذه هى المواضع من ذكر تنزيل القرآن التى جيء فيها بالاشارة الى زمن نزوله قال الشعبى المراد من نحو أنزلناه وأنزل فيه القرآن الابتداء بانزاله خصوصاً والقرآن كله والجملة منه وان قصرت كل ذلك يسمى قرآناً ويسمى كتاباً فالضمير فى أنزلناه فى هذه السورة عائد الى القرآن كالضمير فى أنزلناه العائد الى الكتاب المبين فى آية الدخان المتقدمة والمراد بانزاله الابتداء بانزال شيء منه وهو المعنى من قوله « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » أى ابتدىء فيه انزاله أى ان أول مانزل منه نزل فى شهر رمضان وقد جاء فى آية الدخان وفى هذه السورة « سورة القدر » أن الله نزل القرآن ليلا لانهاراً وأنه سمى ههنا الليلة التى نزل فيها ليلة القدر ووصفها فى آية الدخان بالمباركة وقد بين سبب الانزال فى آية الدخان بقوله انا كنا منذرين أى اننا اذ خلقنا الانسان نوعا ممتازا بطبيعته يفارق سائر الحيوان بفطرته محتاجا الى التعليم والارشاد بغريزته قد كتبنا على أنفسنا ان نتعهده بالانذار على السنة الرسل فأنزلنا القرآن لانذار الناس بما سيلاقون جزاء لأعمالهم ولما تعقد عليه قلوبهم ثوابا أو عقاباً فى حياة أخرى بعد هذه الحياة ثم بين بركة الليلة بقوله « فيها يفرق كل أمر حكيم » أى يفصل فيها كل حكم من أحكام الدين ولا يقرر فيها من الأحكام الا ما كان حكيما يقف بك

عند الحق ويبعد بك عن الباطل وينصرف بك عما فيه شقاؤك وفناؤك الى مافيه سعادتك وبقاؤك ثم حقق له الصفة بقوله أمراً من عندنا انا كنا مرسلين رحمة من ربك انه هو السميع العليم . اذا كان الأمر من عند الحكيم العليم الذى من شأنه ارسال الرسل رحمة بعباده وقد سمع توسل نبيه اليه فى هدايتهم فلا ريب تكون الحكمة أوله وآخره وباطنه وظاهره ولا شك أن ابتداء نزول القرآن كان فرقا بين الحق والباطل وكل ماجاء منه كان كذلك ثم توالى النزول بعد الليلة الأولى بما هو من نوع مانزل فيها كما قال انا كنا مرسلين رحمة من ربك فصح أن ينسب اليها أنه يفرق فيها كل أمر حكيم لأن كل ماجاء فيها كان أمراً حكيما فرق به بين الحق والباطل وبداية لما يكون بعده من مثله كما صدق قوله « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » مع أنه لايكون بينة وفارقا بين الحق والباطل الا ماظهر للناس منه وهو مانزل وبلغ اليهم بالفعل أو كان بسبيل أن يبلغ فليس الأمر الحكيم الذى يفرق فى الليلة المباركة الا أمر الدين والاحكام الذى سماه فى البقرة هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان . وهذه الليلة المباركة هى بعينها ليلة القدر فهى ليلة من شهر رمضان بلا شك كما يصرح به نص آية البقرة مع ماينضم اليه من هذه الآيات وكل تأويل يخرج عن ذلك فهو بعيد عن معنى النص بل لايقبله الا من يقول ان الألفاظ العربية لاتدل على معانيها ثم الأخبار الصحيحة متضافرة على أنها فى شهر رمضان ولا نعينها من بين لياليه فقد اختلفت فيها الروايات اختلافا عظيما وكتاب الله لم يعينها وما ورد فى الأحاديث من ذكرها انما قصد به حث المؤمنين على احيائها بالعبادة شكراً لله تعالى على ماهداهم بهذا الدين الذى ابتدأ الله افاضته فيهم فى أثنائها ولهم أن يعبدوا الله فيها أفراداً وجماعات فمن رجح عنده خبر فى ليلة أحياها ومن أراد أن يوافقها على التحقيق فعليه أن يشكر الله بالفراغ اليه بالعبدة فى الشهر كله وهذا هو السر فى عدم تعيينها وتشير اليه آية البقرة فانها تجعل الشهر كله ظرفا لنزول القرآن ليذكر المؤمنون نعمة الله عليهم فيه فهى ليلة عبادة وخشوع وتذكر لنعمة الحق والدين فلا تكون ليلة زهو ولهو تتخذفيها مساجد الله مضامير للرياء يتسابق اليها المنافقون ويحدث أنفسهم بالبعد عنها المخلصون كما جرى عليه عمل المسلمين فى هذه الأيام فان كل ماحفظوه من ليلة القدر هو أن تكون لهم

وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ

فيها ساعة سمر يتحدثون فيها بما لاينظر الله اليه ويسمعون شيأ من كتاب الله لاينظرون فيه ولا يعتبرون بمعانيه بل ان أصغوا اليه فانما يصغون لنغمة تاليه ثم يسمعون من الأقوال مالم يصح خبره ولم يحمد فى الآخرين ولا الأولين أثره ولهم خيالات فى ليلة القدر لاتليق بعقول الأطفال فضلا عن الراشدين من الرجال .

ثم سميت ليلة القدر اما بمعنى ليلة التقدير لأن الله ابتدأ فيها تقدير دينه وتحديد الخطة لنبيه فى دعوة الناس الى ماينقذهم مما كانوا فيه أو بمعنى العظمة والشرف من قولهم فلان له قدر أى له شرف وعظمة لان الله قد أعلى فيها منزلة نبيه وشرفه وعظمه بالرسالة وقد جاء بما فيه الاشارة بل التصريح بأنها ليلة جليلة بجلالة ماوقع فيها من انزال القرآن فقال (وما أدراك ماليلة القدر) أى وما الذى يعلمك مبلغ شأنها ونباهة أمرها (ليلة القدر خير من ألف شهر) فكرر ذكرها ثلاث مرات ثم أتى بالاستفهام الدال على أن شرفها ليس مما تسهل احاطة العلم به ثم قال انها خير من ألف شهر لأنه قد مضى على الأمم الاف من الشهور وهم يختبطون فى ظلمات الضلال فليلة يسطع فيها نور الهدى خير من ألف شهر من شهورهم الاولى ولك أن تقف فى التفضيل عند النص وتفوض الامر فى تحديد مافضلت عليه الليلة بألف شهر الى الله تعالى فهو الذى يعلم سبب ذلك ولم يبينه لنا ولك أن تجرى الكلام على عادتهم فى التخاطب وذلك فى الكتاب كثير ومنه الاستفهام الواقع فى هذه السورة وما أدراك ماليلة القدر فانه جار على عادتهم فى الخطاب والا فالعليم الخبير لايقع منه أن يستفهم عن شىء فيكون التحديد بالالف لامفهوم له بل الغرض منه التكثير وان أقل عدد تفضله هو ألف شهر ثم ان درجات فضلها على هذا العدد غير محصورة فاذا قلت اخفاء الصدقة خير من اظهارها لم تعين درجة الافضلية وهى درجات فوق درجات وقد جاء فى الكتاب فى واقعة واحدة هى واقعة بدر أن الله أمد المؤمنين بألف من الملائكة أو بثلاثة آلاف أو بخمسة الاف كما تراه فى الانفال وآل عمران فالعدد هناك لامفهوم له كما هو ظاهر فهى ليلة خير من الدهر ان شاء الله . ثم استأنف لبيان بعض مزاياها

تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ

فقال (تنزل الملائكة والروح فيها) يخبر جل شأنه أن أول عهد للنبي صلى الله عليه وسلم بشهود الملائكة كان فى تلك الليلة تنزلت من عالمها الروحانى الذى لايحده حد ولا يحيط به مقدار حتى تمثلت لبصره صلى الله عليه وسلم والروح هو الذى يتمثل له مبلغاً للوحى وهو الذى سمى فى القرآن بجبريل وانما تظهر الملائكة والروح (باذن ربهم) أى انما تتجلى الملائكة على تلك النفس الكاملة بعد أن هيأها الله لقبول تجليها وليست تتجلى الملائكة لجميع النفوس كما هو معلوم فذلك فضل الله يختص به من يشاء واختصاصه هو اذنه ومشيئته ثم ان هذا الاذن مبدؤه الاوامر والاحكام لان الله يجلى الملائكة على النفوس لايحاء مايريده منها ولهذا قال (من كل أمر) أى ان الله يظهر الملائكة والروح لرسله عند كل أمر يريد ابلاغه الى عباده فيكون الاذن مبتدئاً من الامر على هذا المعنى والامر ههنا هو الامر فى قوله فيها يفرق كل أمر حكيم أمراً من عندنا انا كنا مرسلين فالكلام فى الرسالة والاوامر والاحكام لافى شىء آخر سواها ولهذا قال بعضهم ان من ههنا بمعنى الباء أى بكل أمر ولا حاجة اليه لما قلنا وانما عبر بالمضارع فى قوله تنزل الملائكة وقوله فيها يفرق كل أمر حكيم مع أن المعنى ماض « لان الحديث عن مبدأ نزول القرآن » لوجهين الاول لاستحضار الماضى لعظمته على نحو مافى قوله وزلزلوا حتى يقول الرسول فان المضارع بعد الماضى يزيد الامر تصويراً قال تأبط شرا

ألا من مبلغ فتيان فهم * بمالاقيت عند رحى بطان(١)
وأنى قد لقيت الغول تهوى * بسهب كالصحيفة صحصحان
فقلت لها كلانا نضوأين * أخو سفر فخلى لى مكانى
فشدت شدة نحوى فأهوى * لها كفى بمصقول يمانى
فأضربها بلا دهش فخرت * صريعا لليدين وللجران

والشاهد فى قوله فأهوى وقوله فأضربها فى حكاية الماضى والثانى لان مبدأ

(١) رحى بطان محل بالبدية والسهب الفلاة والصحصحان المستوى من الارض ونضوأين أى مهزول من الاعياء والتعب والابيات من أكاذيب العرب المعروفة فى الحكاية عن الغول ووصف ما يكون منها اه منه

سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ

النزول كان فيها ولكن بقية الكتاب وما فيه من تفصيل الاوامر والاحكام كان فيما بعد فكأنه يشير الى أن ما ابتدأ فيها يستمر فى مستقبل الزمان حتى يكمل الدين (سلام هى حتى مطلع الفجر) أى انها كانت ليلة سالمة من كل شر وأذى والاخبار عنها بالسلام نفسه وهو الامن والسلامة للمبالغة فى أنه لم يشبها كدر بل فرج الله فيها عن نبيه كل كربة وفتح له فيها سبل الهداية والارشاد فاناله بذلك ماكان يتطلع اليه الايام والشهور الطوال .

اماما يقوله الكثير من الناس من أن الليلة المباركة التى يفرق فيها كل أمر حكيم هى ليلة النصف من شعبان وان الامور التى تفرق فيها هى الارزاق والاعمار وكذلك ما يقولونه من مثل ذلك فى ليلة القدر فهو من الجراءة على الكلام فى الغيب بغير حجة قاطعة وليس من الجائز لنا أن نعتقد بشىء من ذلك مالم يرد به خبر متواتر عن المعصوم صلى الله عليه وسلم ومثل ذلك لم يرد لاضطراب الروايات وضعف أغلبها وكذب الكثير منها ومثلها لا يصح الاخذ به فى باب العقائد ومثل ذلك يقال فى بيت العزة ونزول القرآن فيه جملة واحدة فى تلك الليلة فانه لا يجوز أن يدخل فى عقائد الدين لعدم تواتر خبره عن النبى صلى الله عليه وسلم ولا يجوز لنا الاخذ بالظن فى عقيدة مثل هذه والا كنا من الذين ان يتبعون الا الظن نعوذ بالله وقد وقع المسلمون فى هذه المصيبة مصيبة الخلط بين مايصح الاعتقاد به من غيب الله ويعد من عقائد الدين وبين ما يظن به للعمل على فضيلة من الفضائل فأحذر أن تقع فيها مثلهم والله أعلم

سورة البينة مدنية وهي ثمان آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا

هذه السورة مدنية على أرجح الاقوال كان الكثير الاغلب من أهل الكتاب من اليهود والنصارى والمشركين من العرب فى ظلام من الجهل بما يجب الاعتقاد به والعمل عليه من شرائع أنبيائهم وسلفهم وذلك لاعتمادهم فيما يعتقدون وما يعملون على تقليد آبائهم وقد كان فيمن تقدم منهم من أدخل على الشرائع كثيراً مما ليس منها اما بسوء الفهم واما للعناد لافحام الخصم واما باستحسان عقولهم ضروبا من البدع يتوهمونها مؤيدة للدين مفخمة لأمره وهى من أشد الاشياء ضرراً بالدين ثم جاء من بعدهم يزيد على ما وضعوه الى أن خفى الحق فى ظلام الباطل ولم يزالوا كذلك الى أن جاء النبى صلى الله عليه وسلم فأخذت صيحته تشق تلك القبور ويده الكريمة ترفع تلك الستور فيسرى شعاع من ضوء الحق الذى جاء به من خلال تلك الحجب الى ما وراءها من أعماق الضمائر فاذا أحسوا ببصيصه فرح به طلاب الحقائق فى تلك الظلم وأزاحوا عن أبصارهم غطاء الشبهة ومثلوا بين يدى الداعى صلى الله عليه وسلم ملبين دعوته طالبين هدايته أما أهل العناد منهم فيقع الزلزال فى اعتقادهم ويضعف حبل تقليدهم ولكنهم يثبتون فى ضلالهم ويقولون لأنفسهم ولاخوانهم هذا الذى يقوله الداعى ليس بالشىء الجديد ولم يترك الأول شيأ للآخر وجميع مايدعونا اليه كان معروفالنا مذكورا فى كتبنا وارداً فى قول أسلافنا ولو لم يأت به لعرفناه واهتدينا اليه مما عندنا ولكن ما نحن فيه خير مما يدعو اليه وينسجون من اوهامهم مايبيعونه على الجهال كما هى عادة أمثالهم فى كل زمان ففى الرد على مزاعم هؤلاء الكافرين الجاحدين الذين يجدون لامع الحق فيعرفونه ثم يغمضون عيونهم عن النظر اليه نزلت هذه السورة فيقول الله (لم يكن الذين كفروا) وجحدوا نبوتك بعنادهم

مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ

بعد ما تبينوا الحق منها (من أهل الكتاب) اليهود والنصارى والصابئين الذين عرفوك وسمعوا أدلتك وشهدوا آياتك لم يكونوا هم (والمشركين)أى وثنيي العرب (منفكين) عن غفلتهم وجهلهم بالحق ووقوفهم عند ما قلدوا فيه آباءهم لايعرفون من الحق شيأ (حتى تأتيهم البينة) اى الحجة القاطعة المثبتة للمدعى وهى هنا النبي صلى الله عليه وسلم فجيئه هو الذى أحدث هذه الرجة فيمارسخ من عقائدهم وتمكن من عوائدهم حتى أخذوا يحتجون لمنادهم ومناكرتهم بأنه كان شيأ معروفا لهم يصلون اليه بما كان لديهم ولكنه ليس بمستحق أن يتبع فان ماهم فيه أجمل وابدع ومتابعة الآباء فيه أشهى الى النفوس وأمتع . تلك البينة التى تعرفهم وجه الحق هى (رسول من الله) محمد صلى الله عليه وسلم (يتلو صحفا مطهرة) هى صحف القرآن وهى مطهرة من الخلط وحشو المدلسين فلهذا تنبعث منها أشعة الحق حتى يعرفه طالبوه ومنكروه معا وتلاوتها تلاوة ما فيها نقول حفظت الصحيفة أو حفظت المصحف والمعنى حفظت مافيه والنبي صلى الله عليه وسلم وان كان أميا فقد كان يتلو الكلام المكتوب فى تلك الصحف هذه الصحف (فيها كتب قيمة)القيمة المستقيمة التى لاعوج فيها واستقامة الكتب اشتمالها على الحق الذى لايميل الى باطل «لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه تنزيل من حكيم حميد »والكتب التى فى صحف القرآن ومصاحفه اما أن تكون هى ماصح من كتب الاولين كموسى وعيسى وغيرهما مما حكاه الله فى كتابه عنهم فانه لم يأت منها الا بما هو قويم سليم وقد ترك حكاية ما لبس فيه الملبسون الا أن يكون ذكره لبيان بطلانه ولهذا لم يجد الجاحدون لرسالته عليه السلام من أهل الكتاب سبيلا الى انكار الحق وانما فضلوا عليه سواه . او هى سور القرآن فان كل سورة من سوره كتاب قويم فصحف القرآن أو صحائفه وأوراق مصحفه تحتوى على سور من القرآن هى كتب قيمة . ولما كان لسائل أن يسأل اذا كان هؤلاء

وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ

الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين قد انفكوا عن ذلك الظلام المطبق وبدا لهم من الحق ما عرفوه كما يعرفون أبناءهم فما بالهم لم يؤمنوا بهذا الحق الذي جاءهم أجاب الحق بأن أهل الكتاب قد جاءتهم البينة والحجة القاطعة على الحق الذي لا يختلف وجهه بما أوحى الله به الى أنبيائهم وكان من حقهم أن يسترشدوا بكتبهم في معرفة سبيله حتى لا يحرفوا عنه فاذا عرض لأحدهم شبهة رجع في كشفها الى العارف بمعاني الكتب ثم كان عليهم أن يحرصوا على تعلم معانيها [illegible] وأن يتفقوا عليها حتى لا يبقى لهم فيها مجال لكن هذه البينة لم تفد شيأ منهم فاختلفوا [illegible] في المذاهب حتى صار أهل كل مذهب يجهل ما عند أهل المذهب الآخر وكذلك [illegible] واستمروا في المراء وأصرارا على ما ذهب اليه الهوى [illegible] (وما تفرق الذين أوتوا الكتب الا من بعد ما جاءتهم البينة) [illegible] أنبيائهم فكذا كان شأنهم في النبي صلى الله عليه وسلم جحدوا بينته كما جحدوا بينة أنبيائهم بتفرقهم وبعدهم بالتفرق عن حقيقتها وان كان هذا شأن أهل الكتاب [illegible] فما ظنك بالمشركين وهم أعرق في الجهالة وأبلس فبدا [illegible] الكتاب (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) الواو في قوله [illegible] أوامر ووضعت [illegible] وأحكامه [illegible] الخضوع له وامتثال أوامره [illegible] من أن يشركه فيه شيء لا [illegible] جمع حنيف وهو من يتبع ابراهيم عليه السلام [illegible] يكون [illegible] في معنى الحنيف [illegible]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي

المنحرف ولما كان الناس فى زمن ابراهيم على وثنية واحدة وفارقهم ابراهيم الى التوحيد وحده قيل فيه حنيف أى مائل عن الناس كافة ولما كان العرب قبل النبوة يزعمون أنهم عل دين ابراهيم لقبوا بالحنفاء مع ماخلطوا فى دينهم وأدخلوا عليه من عقائد الوثنية وعوائدها وخفى هذا على كثير من الناس فظنوا أن الحنيف معناه الوثنى وليس الامر كما يظنون واقامة الصلاة الاتيان بها لاحضار القلب هيبة المعبود وترويضه بالخشوع لا أن تكون مجرد حركات ظاهرة فان ذلك ليس من الصلاة فى شىء البتة وايتاء الزكاة صرفها فى مصارفها التى عينها الله وهذا هو دين الكتب القيمة أو دين الامة القيمة المستقيمة ومعنى الآية أن أهل الكتاب قد افترقوا ولعنت كل فرقة أختها وكان افتراقهم فى العقائد والاحكام وفروع الشريعة مع أنهم لم يؤمروا ولم توضع لهم تلك الاحكام الا لأجل أن يعبدوا الله ويخلصوا له عقائدهم وأعمالهم فلا يأخذونها الاعنه مباشرة لا يقلدون فيها أبا ولا رئيساً وانما يحصلون من العلم ما يؤهلهم لفهمها مائلين فى ذلك عما عليه أهل الضلال من الامم الاخرى وأن يخشعوا لله فى صلاتهم وأن يصلوا عباد الله بزكاتهم فاذا كان هذا هو الاصل الذى يرجع اليه فى الاوامر فما كان عليهم الا أن يجعلوه نصب أعينهم فيردوا اليه كل مايعرض لهم من المسائل ويحلوا به كل ما يعترض أمامهم من المشاكل ومتى تحكم الاخلاص فى الانفس تسلط الانصاف عليها فسادت فيها الوحدة ولم تطرق طرقها الفرقة

هذا ما نعاه الله من حال أهل الكتاب فما نقول فى حالنا أفاينعاه كتابنا الشاهد علينا بسوء أعمالنا فى افتراقنا فى الدين وان صرنا فيه شيعا وملأناه محدثات وبدعا بهذا الذى تقدم عرفت أن الذين كفروا هم الذين أنكروا رسالة النبى صلى الله عليه وسلم عند دعوتهم الى قبول ماجاء به وأن من فى قوله من أهل الكتاب للتبعيض وان معنى لم يكونوا منفكين أى لم يكن وجه الحق لينكشف لهم فيقع الزلزال فى عقائدهم فينفكوا عن الغفلة المحضة التى كانوا فيها حتى تأتيهم البينة

ويجوز أن يكون المراد من الذين كفروا والله أعلم أولئك الذين جحدوا شيأ من دين الله

نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ

تعالى عند ما جاءهم ولم ينظروا فى دليله أو أعرضوا عنه بعد ما عرفوا دليله سواء كانوا من مشركى العرب أو من أهل الكتاب وان آمنوا بعد ذلك وصدقوا فأراد الله أن يذكر منته على من آمن من هؤلاء فبين أن الذين كفروا أى جحدوا ما أوجب الله على عباده أن يعتقدوه عنه من صفاته وشرائعه من أهل الكتاب ومشركى العرب لم يكونوا براجعين عن كفرهم وجحودهم هذا حتى يأتيهم الرسول فيبين لهم بطلان ما كانوا عليه من الكفر فيؤمنوا فما أعظم فضل الله عليهم فى ارسال رسوله اليهم وهذا وجه آخر غير الذى قدمناه فى معنى الذين كفروا وانفكاكهم وبذلك أو هذا ظهر معنى حتى وبطل جميع ما يهذى به كثير من المفسرين الذين أضلهم التقليد عن الرأى السديد فصعبوا من القرآن سهله وحرموا من فهمه أهله

نار جهنم هى دار العذاب فى الآخرة وهى نار يجب علينا الايمان بها والتصديق بأن العذاب فيها أشد من العذاب فى نار الدنيا كما يجب علينا أن لا نبحث فى حقيقتها ولا بما تتقد ولا أين يكون موضعها فذلك مما لا يمكن لعقولنا أن تصل اليه وليس بمحال عقلى حتى تحتاج فيه الى تأويل (خالدين فيها) أى لا يخرجون منها أبداً (أولئك) هؤلاء الذين كفروا وجحدوا الحق بعدما عرضت عليهم حجته وظهرت لهم حقيقته (هم شر البرية) أى شر الخليقة أى هم أقبح وأسوأ ما خلق الله حالاً لأن منكر الحق بعد معرفته وقيام الدليل عليه منكر فى الحقيقة لعقل نفسه مهلك لروحه جالب الهلاك الى غيره (الذين آمنوا) هم الذين سطع لهم نور الدليل فاهتدوا به وأذعنوا لما دل عليه فصدقوا من جاء به وهو النبى صلى الله عليه وسلم (وعملوا الصالحات) لان اذعانهم الصحيح ووجدانهم لذة معرفة الحق ملكت الحق قيادهم فعملوا الاعمال الصالحة من بذل النفس فى سبيل الجهاد للحق وبذل المال فى أعمال البر مع القيام بفرائض العبادات والاخلاص فى سائر ضروب المعاملات (أولئك هم خير البرية) أى هؤلاء المؤمنون الصالحون المحسنون هم

جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ

أفضل الخليقة لانهم بمتابعة الحق عند معرفته بالدليل القائم عليه قد حققوا لانفسهم معنى الانسانية التى شرفهم الله بها وبالعمل الصالح قد حفظوا نظام الفضيلة الذى جعله الله قوام الوجود الانسانى وهدوا غيرهم بحسن الاسوة الى مثل ما هدوا اليه من الخير والسعادة فمن يكون أفضل منهم

(جنات عدن تجرى من تحتها الانهار) الجنات هى مغارس الاشجار النضرة والعدن الاقامة والانهار جمع نهر وهو جدول الماء العظيم والمراد منها هينا دار النعيم فى الحياة الآخرة وهى كذلك مما يجب علينا الاعتقاد به وان النعيم واللذة فيها أكمل وأوفر من جميع لذائذ الدنيا وأنها دار خلد أى ان من دخلها من أهلها لايخرج منها أبداً وهو معنى (خالدين فيها أبداً) ولا يجوز لنا البحث فى حقيقتها ولا أين موضعها ولا كيفية التمتع فيها فان ذلك لا يعلمه الا الله (رضى الله عنهم) لانهم لم يخرجوا عن حدود شريعته ولم يهملوا العمل بسنته ورضا الله تفضله واحسانه (ورضوا عنه) لانهم يحمدون صنيعه فيهم واحسانه اليهم بسعادة الدارين فانهم بحسن يقينهم يرتاحون الى امتثال ما يأمر به فى الدنيا فهم راضون عنه ثم اذا ذهبوا الى نعيم الآخرة وجدوا من فضل الله ما لا محل للسخط معه فهم راضون عن الله فى كل حال (ذلك لمن خشى ربه) أى هذا الجزاء الحسن وهذا الرضا انما هو لمن كان قلبه بيتاً لخشية ربه والخوف منه أراد بهذه الكلمة الرفيعة الاحتياط لدفع سوء الفهم الذى وقع ولا يزال يقع فيه العامة من الناس بل الخاصة كذلك وهو أن مجرد الاعتقاد بالوراثة وتقليد الابوين ومعرفة ظواهر بعض الاحكام وأداء بعض العبادات كحركات الصلاة وامساك الصوم مجرد هذا يكفى فى نيل ما أعد الله من الجزاء للذين آمنوا وعملوا الصالحات وان كانت قلوبهم حشوها الحسد والحقد والكبرياء والرياء وأفواههم ملؤها الكذب والنميمة والافتراء وهز أعطافهم ريح العجب والخيلاء وسرائرهم مسكن العبودية والرق للامراء بل ولمن دون الامراء

سورة الزلزال مدنية وهي ثمان آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا

خالية من أقل مراتب الخشوع والاخلاص لرب الارض والسماء كلا لا ينالون حسن الجزاء فان خشية ربهم لم تحل قلوبهم ولهذا لم تهذب من نفوسهم ولا يكون ذلك الجزاء الا لمن خشى ربه وأشعر خوفه قلبه والله أعلم

(سورة الزلزلة) من السور المدنية وهى سورة ارهاب وترغيب قيل انها نزلت لازالة ما وقع فى نفوس كثير من المؤمنين من أن الخير القليل لا ينظر الله اليه ولا يجازى عليه وكذلك الصغائر من الذنوب ليست بشىء يلام عليه كالكذبة والنظرة ونحو ذلك فأزال شبهتهم وكشف عنهم وهمهم وعرفهم أن لا شىء من عمل الانسان يفوته فالخير يجازى بالخير مهما صغر والشر يلقى جزاءه من الشر مهما نظر . (اذا زلزلت الارض زلزالها) أى أصاب الارض ذلك الزلزال الشديد والاهتزاز الرائع المدهش وهو كقوله « يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شىء عظيم » (وأخرجت الارض أثقالها) أى أنها لشدة الزلزال والاضطراب تشققت وثار باطنها فقذفت بما فى جوفها من الاثقال من كنوز ودفائن وأموات وغير ذلك مما يكون فى باطن الارض ومثاله المشهور ما يرى الآن فى الاراضى التى فيها البراكين « جبال النار » فان الزلزال يحدث والارض تنشق وتقذف بما فيها من نيران ومعادن ومياه ونحو ذلك وهو كقوله تعالى « واذا الارض مدت وألقت ما فيها وتخلت » (وقال الانسان مالها) من يكون من الانسان شاهداً لهذا الزلزال يجده مخالفاً فى الشدة لجميع ما سبقه من أمثاله ولا يجد من عقله ما يهديه الى معرفة

يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ

سببه ويصيبه الدهش فيقول ما لهذه الارض وما الذى وقع لها فوق ما جرت به العادة (يومئذ تحدث أخبارها) يومئذ بدل من اذا أى فى ذلك الوقت وقت الزلزال تحدثك الارض أحاديثها وتحديث الارض تمثيل كما قال الطبرى وجماعة غيره أى أن حالها وما يقع فيها من الانقلاب ومالم يعهد من الخراب يعلم السائل ويفهمه الخبر وأن ما يراه لم يكن لسبب من الاسباب التى وضعتها السنة الالهية حال استقرار نظام الكون بل ذلك (بـ) سبب (أن ربك أوحى لها) يقال أوحى له واليه ووحى له واليه والمعنى واحد أى أن ما يكون للارض يومئذ انما هو بأمر الهى خاص قال لها كونى خرابا كما قال لها عند ايجادها كونى أرضا فهذا أمر من الاوامر التكوينية التى هى كن فيكون ماصدر به أمر كن والاوامر التكوينية عبارة عن تعلق القدرة الالهية بما هو أثر لها وكثيرا ما تكون الاوامر الالهية التكوينية بأسباب كتكوين الانسان والحيوان والنبات فان كل كائن منها انما كان بتكوين الله وقوله له كن فيكون ولكنه وضع لذلك أسبابا من التناسل والتوالد ولا مانع من أن يكون خراب الارض فى آخر عمرها بسبب من الاسباب التى تهدم بناءها وتجعلها هباء منثورا ومعنى اختصاصه هذه الحالة باسم الوحى لانها تأتى على خلاف ما عهد من أول نشأة الارض (يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم) يوم يقع ذلك الخراب العظيم لهذا العالم الارضى وتبدل الارض غير الارض كما جاء فى الآية الاخرى يظهر ذلك الكون الجديد كون ذلك اليوم الآخر والحياة الاخرى فيصدر الناس بعد بعثهم أشتاتا متفرقين مختلفين يقال صدر عن المدينة أى سافر منها أى يذهب الناس على اختلافهم شقيهم وسعيدهم محسنهم ومسيئهم ليروا أعمالهم يروا بضم الياء أى ليريهم الله جزاء أعمالهم يقال عاش فلان حتى رأى عمله اى جنى ثمرة ما قدم وفى قراءة ليروا بفتح الياء أى ليبصروا بأنفسهم أعمالهم اى ما أعد لهم جزاء عليها (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره) الذرة النملة الصغيرة وهى مثل فى الصغر وقيل الذر هو الهباء الذى

وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ

يرى فى ضوء الشمس اذا دخلت من نافذة ومثقال الذرة وزنها أى من يعمل من الخير أدنى عمل وأصغره فانه يراه ويجد جزاءه لافرق فى ذلك بين المؤمن والكافر غاية الأمر أن حسنات الكفار الجاحدين لا تصل بهم الى أن تخلصهم من عذاب الكفر فهم به خالدون فى الشقاء والآيات التى تنطق بحبوط أعمال الكفار وانها لاتنفعهم معناها هو ماذكرنا أى أن عملا من أعمالهم لاينجيهم من عذاب الكفر وان خفف عنهم بعض العذاب الذى كان يرتقبهم على بقية السيآت الاخرى اما عذاب الكفر نفسه فلا يخفف عنهم منه شىء كيف لا والله جل شأنه يقول ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيأ وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين فقوله فلا تظلم نفس شيأ أصرح قول فى أن الكافر والمؤمن فى ذلك سواء وأن كلاً يوفى يوم القيامة جزاءه وقد ورد أن حاتما يخفف عنه لكرمه وأن أبا لهب يخفف عنه لسروره بولادة النبى صلى الله عليه وسلم وما نقله بعضهم من الاجماع على أن الكافر لاتنفعه فى الآخرة حسنة ولا يخفف عنه عذاب سيئة ما لا أصل له فقد قال بما قلناه كثير من أئمة السلف رضى الله عنهم على أن كلمة الاجماع كثيراً ما يتخذها الجهلاء السفهاء آلة لقتل روح الدين وحجراً يلقمونه أفواه المتكلمين وهم لايعرفون للاجماع الذى تقوم به الحجة معنى فبئس ما يصنعون (ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) لافرق فى ذلك بين المؤمن والكافر فالمؤمنون يرون جزاء ماعملوا من شر اذا لم يكونوا تابوا عنه وليس الجزاء منحصراً فى العقاب فى دار العذاب فمنه مايكون كذلك وهو الجزاء على الكبائر وترك الفرائض اذا لم تمحها التوبة الصحيحة ومنه مايكون بنقص فى درجة الكرامة كجزاء الصغائر فانها وان لم تدخلك النار ولكنها تريك منزلتك أحط من منزلة من تنزه عنها وهذا شر تراه يقابل الشر الذى صنعته والله أعلم

سورة العاديات مكية وهي احدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا

(والعاديات ضبحاً) العاديات جمع عادية من العـدو وهو الجرى والضبح صوت أنفاس الخيل عنـد جريها يقسم جل شأنه بالخيل التى تعـدوا وتجرى وهى من شدة الجرى تضبح ضبحاً ويسمع لها زفير شديد (فالموريات قدحاً) الموريات جمع مورية من الايراء وهو اخراج النار بنحو الزناد والقدح هو الضرب لاخراج النار كضرب الزناد بالحجر يذكر سبحانه وصفاً من أوصاف الخيل العاديات يحصل لها عند العدو ولذلك رتبه بالفاء وهو مايكون من اخراجها النار بحوافرها أثناء الجرى أى يقسم بالعاديات التى يتطاير الشرر من حوافرها عند عدوها وهى تقدح بحوافرها الارض قدحاً (فالمغيرات صبحاً) المغيرات جمع مغـيرة من أغار على العدو اذا هجم عليه ليقتله أو يأسره أو يستلب ماله وهو وصف عرض للخيل من الغاية التى أجريت لها أى أنهـا تعدو ويشتد عدوها حتى يخرج الشرر من حوافرها لتهجم على عدو وقت الصباح وهو وقت المفاجأة لأخذ العـدو وهو على غير أهبـة (فأثرن به نقعاً) الاثارة التهييج وتحريك الغبار والنقع الغبار والفعل معطوف على وصف المغـيرات لانه فى معنى الفـعل كأنه قال فاللاتى أغرن صبـحاً فأثرن فى وقت الصبح غباراً لشدة عدوهن (فوسطن به جمعاً) أى فتوسطن ودخلن فى وسط جمع من الأعداء ففرقنه وشتتنه أقسم بالخيل متصفة بصفاتها التى ذكرها آتية بالاعمال التى سردها لينوه بشأنها ويعلى من قدرها فى نفوس المؤمنين أهل العمل والجد ليعنوا بقنيتها وتدريبها على الكر والفر وليحملهم أنفسهم على العناية بالفروسية والتدرب على ركوب الخيل والاغارة بها ليكون كل واحد منهم مستعداً

إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ

فى أى وقت كان لان يكون جزأ من قوة الأمة اذا اضطرت الى صد عدو أو بعثها باعث على كسر شوكته . وكان فى هذه الآيات القارعات وفى تخصيص الخيل بالذكر فى قوله « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » وفيما ورد من الاحاديث التى لا تكاد تحصر مايحمل كل فرد من رجال المسلمين على أن يكون فى مقدمة فرسان الارض مهارة فى ركوب الخيل ويبعث القادرين منهم على قنية الخيل على التنافس فى عقائلها وأن يكون فن السباق عندهم يسبق بقية الفنون اتقانا أليس من أعجب العجب أن ترى أمماً هذا كتابها قد أهملت شأن الخيل والفروسية الى أن صار يشار الى راكبها بينهم بالهزؤ والسخرية وأخذت كرام الخيل تهجر بلادهم الى بلاد أخرى أليس من أغرب مايستغرب أن أناساً يزعمون أن هذا الكتاب كتابهم يكون طلاب العلوم الدينية منهم أشد الناس رهبة من ركوب الخيل وأبعدهم عن صفات الرجولية حتى وقع من أحد أساتذتهم المشار اليهم بالبنان عندما كنت أكلمه فى منافع بعض العلوم وفوائدها فى علم الدين أن قال : اذا كان كل مايفيد فى الدين نعده لطلبة العلم كان علينا اذن أن نعلمهم ركوب الخيل . يقول ذلك ليفحمنى وتقوم له الحجة على أن تعليم ركوب الخيل مما لايليق ولا ينبغى لطلبة العلم وهم يقولون أن العلماء ورثة الانبياء فهل هذه الاعمال وهذه العقائد تتفق مع الايمان بهذا الكتاب أنصف ثم احكم .

يقسم الله بالخيل صاحبة تلك الصفات التى ذكرها ليؤكد الخبر الذى جاء فى قوله (ان الانسان لربه لكنود) الكنود هو الكفور يقال كند النعمة كفرها ولم يشكرها وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم « الكنود الذى يأكل وحده ويضرب عبده ويمنع رفده » كأنه بذلك لا يعطى مما أنعم الله به عليه ولا يرأف بعباد الله كما رأف الله به فهو كافر بنعمة ربه . غير أن الآية عامة والمراد منها ذكر حالة من حالات الانسان التى تلازمه فى غالب أفراده الا الذين يروضون أنفسهم على الفضائل وهى حقيقة لاريب فيها فان فى طبع الانسان أن يستغرق فيما حضره فيصعب عليه أن يجعل نصب عينيه شيئا من ماضيه أو مما عساه يستقبله

وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ

فتحيط به الغفلة فهو اذا غمرته من الله نعمة غمرته بها غفلة وأدخلت الى قلبه ضربا من قسوة وأحدثت فى طبعه شوبا من جفوة وأكد الله هذا الخبر لزعم كثير من أهل الكنود أنهم شاكرون فأكد لهم الخبر ليرجعوا الى أنفسهم ويمتحنوا أعمالهم ليتبين لهم أن الغرور هو الذى غشيهم فى معرفة حالهم فيفزعوا الى الله بالشكر ولا يكون الشكر الا بالبذل فى الحق الذى يبقى أثره ويجمل عند العقلاء ذكره ثم يزيد الامر تأكيداً بقوله (وانه على ذلك لشهيد) أى وان الانسان لشهيد على كنوده وكفره لنعمة ربه لانه يفخر بالقسوة على من دونه وبقوة الحيلة على من فوقه وبكثرة مافى يده من المال مع الحذق فى توفيره وقلما يفتخر بالمرحمة وكثرة البذل والحذق فى اختيار المواضع للانفاق اللهم الا أن يريد غشا للسامع وفى ذلك كله شهادة على نفسه بالكنود لان مايفتخر به ليس من حق شكر النعمة بل من آيات كفرها (وانه لحب الخير لشديد) الخير هو المال مثله فى قوله تعالى « كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت أن ترك خيراً الوصية » وزعم عكرمة أن الخير حيث وقع فى القرآن هو المال وليس يصح فى بعض المواضع والشديد القوى ويقال هو شديد لهذا الامر وقوى له اذا كان مطيقا له قادرا على ضبطه قال ذلك الزمخشرى وأطلق الحب وأراد به الكسب لان كسب شىء والسعى فى تحصيله انما يكون كما ينبغى اذا كان منشؤه حبه فقوة الانسان واقتداره على تحصيل المال وتوفيره انما جاءت له من شدة محبته له لهذا جعل الشدة وقوة الاحتمال لحب المال وهى فى الحقيقة لكسبه لكن اذا عرض له سبيل لفعل ماهو خير على الحقيقة والنهوض بأمر مما طلبه الله منه تراه يضعف وتتضاءل قوته حتى لا يستطيع أن يخطو خطوة فى ذلك السبيل الا من رحم ربك وقد فسر الشديد بالبخيل والمعنى على ذلك وانه لبخيل شحيح بسبب حبه للمال (أفلا يعلم اذا بعثر ما فى القبور وحصل مافى الصدور) بعثرة مافى القبور اخراج موتاها منها وتحصيل مافى الصدور اظهاره وابرازه بحيث لايبقى سبيل الى اخفائه ومفعول يعلم محذوف حذف لتجول

إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ

سورة القارعة مكية وهي احدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

الْقَارِعَةُ ۝ مَا الْقَارِعَةُ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ

الفكرة فى استحضاره ولو ذكر فربما مر على اللسان بدون الالتفات اليه أما وقد حذف فلا تجد النفس محيصاً عن البحث عنه حتى يتم الكلام ويفهم وقد دل عليه ببعثرة ما فى القبور وتحصيل ما فى الصدور أى أفلا يعلم الكنود الحريص ما يكون حاله فى الحياة الاخرى يوم تكشف السرائر أفلا يعلم ظهور ما كان يخفى من قسوة وتحيل أفلا يعلم أنه سيحاسب عليه أفلا يعلم أنه سيوفى جزاء ما كفر نعمة ربه (ان ربهم بهم يومئذ لخبير) اذ الله خبير بهم يومئذ وفى هذا اليوم كذلك ولكنه كنى عن مجازاتهم على ما كسبوا بالخبرة بهم كما تقول فى تهديد شخص أو وعيده سأعرف لك عملك هذا مع أنك تعرفه الآن قطعا وانما عرفانه الآتى هو ظهور أثر المعرفة كما قال تعالى « سنكتب ما قالوا » مع أن الكتب حاصل منه الآن والله أعلم

(القارعة) اسم من أسماء القيامة كالحاقة والصاخة والطامة والغاشية وهى قارعة لانها تقرع القلوب بهولها (ما القارعة) استفهام عن حقيقتها قصد به تهويل أمرها كأنها لشدة ما يكون فيها مما تفزع له النفوس وتدهش له العقول يصعب تصورها (وما أدراك ما القارعة) أى أى شىء يعرفك بها زيادة فى تعظيم تلك الحادثة العظيمة كأن لا شىء يحيط بها ويفيدك برسمها ثم أخذ يعرفها بزمانها وما يحدث للناس فيه فقال (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث) الفراش هو ذا ...

وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ۝ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ

الطير الذى تراه يترامى على ضوء السراج ليلا وهو مثل فى الحيرة والجهل بالعاقبة والناس من هول ذلك اليوم يكونون منتشرين حيارى هائمين لا يدرون ماذا يصنعون ولا ما يصنع بهم وقال فى آية أخرى كأنهم جراد منتشر (وتكون الجبال كالعهن المنفوش) العهن هو الصوف والمنفوش الذى تفشته بيدك أوبآلة أخرى ففرقت شعراته بعضها عن بعض فهو على حالة يطير مع أضعف ريح والجبال لتفتتها وتفرق أجزائها لم تبق لها الا صورة الصوف المنفوش لاتلبث أن تتطاير وتذهب ومن المعلوم أن ذلك هواليوم الذى تبتدئ فيه الحياة الآخرة وفيها تعرف مقادير الاعمال وماتستحقه من الجزاء (فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية) ثقل ميزانك أى كانلك قدر وقيمة كأنك اذا وضعت فى كفة ميزان كان لها بك رجحان وانما يكون المقدار والقيمة لاهل الاعمال الصالحة والفضائل الراجحة فهؤلاء يجزون بالنعيم الدائم ولا ريب فى أن معيشتهم فيه تكون معيشة تمتع ولذة وهى التى تسمى العيشة الراضية الهنيئة (وأما من خفت موازينه فأمه هاوية) خف ميزانك سقطت قيمتك فكأنك لست بشىء حتى لووضعت فى كفة ميزان لم ترجح بك عن أختها ومن كان فى هذه الحياة الدنيا كثير الشر قليل الخير لم يبلغ بنفسه منازل الاخلاص لله فى القول والعمل ولم يرتفع بها عن دنايا الامور وسفسافها ولم ينزل عقله عن الاشراك ولم يطهر قلبه عن رذائل الاخلاق فذلك كان فى الناس أخاً للعدم والفناء فماذا يكون فى الآخرة لاريب أنه لايكون شيئاً فلا وزن له ولا ترجح به كفة ميزان لو وضع فيها وهذا المعنى قدصرح به فى القرآن فى قوله تعالى فى سورة الكهف فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً وبهذا صح نسبة الثقل والخفة الى الموازين بأجمعها أما لو كان المعنى على ما قالوه فهو مالا تدل عليه العبارة وكان من حق التعبير من رجحت كفة أعماله وخفت كفة أعماله فاذا ارادوا ارجاع لفظ الآية الى ما فهموه احتاجوا الى تأويل كثير كما هو ظاهر وتقدير الله الاعمال وما تستحقه من الجزاء فى ذلك اليوم انما يكون على

وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ

حسب ما يعلم لا على طريقة ما نعلم فعلينا أن تفوض الامر فيه اليه سبحانه مع الايمان به ومن عجيب ماقال بعض المفسرين « أنه ميزان بلسان وكفتين كأطباق السموات والارض ولا يعلم ماهيته الا الله » فماذا بقي من ما هيته بعد لسانه وكفتيه حتى يفوض العلم فيه الى الله والكلام فيه جراءة على غيب الله بغير نص صريح متواتر عن المعصوم ولم يرد فى الكتاب الا كلمة الميزان وقدعرفت ما يمكننا أن تفهم منها لننتفع بما نعتقد وما عدا ذلك فعلمه الى الله سبحانه وقد قالوا ان منكر الميزان بالمعنى المعروف لا يكفر خصوصاً اذا كان القائل به يحدده لساناً وكفتين مع أن البشر قد اخترعوا من الموازين ماهو أتقن من ذلك وأضبط وأوفى ببيان الموزون أفيأبى الحكيم الخبير الا استعمال ذلك الميزان الخشن الناقص الذى هدى العلم عقول البشر الى ما هو أدق منه أيأبى عالم الغيب والشهادة أن يستعمل فى وزن المعانى والمعقولات الا ذلك الميزان الذى اخترعه بعض البشر قبل أن يبلغ بهم العلم ما بلغ بأهل العصر الحاضر وما سيبلغ بأهل العصور المقبلة على أن جميع ما اخترع البشر وما يخترعون مهما دق ولطف انما هو معيار الاثقال الجسمانية والاوزان المحسوسة وهلا يكون الاليق بالمقام الالهى أن يكون ميزان المعانى المعقولة لديه أسمى وأعلى من أن يكون على نمط ما يستعمله البشر مهما ارتقت المعارف وسمت بهم العلوم وهل يليق بمن يخاف مقام ربه أن يجرأ على القول بوجوب الاعتقاد بأن الميزان الذى يزن الله به الاعمال يوم القيامة هو الميزان الذى تستعمله القبائل التى لم تزل فى مهد الانسانية الاولى ميزان ضعفاء العقول قصار الانظار الذين لا يعرفون قيمة للايمان بالغيب ولا لحياء العقل من الله واطراقه عن ان ينظر الى ما تشامخ من غيوب الله تعالى علمه وتعاظمت قدرته عليك أيها المؤمن المطمئن الى ما يخبر الله به أن توقن أن الله يزن الاعمال ويميز لكل عمل مقداره ولا تسل كيف يزن ولا كيف يقدر فهو أعلم بغيبه والله يعلم وأنتم لا تعلمون (فأمه هاوية) أى مرجعه الذى يأوى اليه كما يأوى الولد الى أمه هاوية أى مهواة سحيقة يهوى فيها وسميت هاوية مع أنها يهوى فيها كما سميت العيشة راضية مع أنها يرضى بها (وما أدراك ماهية) أى ما الذى يخبرك بما هى تلك الهاوية

نارٌ حامية

سورة التكاثر مكية وهي ثمان آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ

وأى شيء تكون (نار حامية) هى نار ملتهبة يهوى فيها ليلقى جزاء ماقدم من عمل والله أعلم

(ألهاكم التكاثر) ألهاه يلهيه أى شغله حتى صرف ذهنه عن سوى ما التهى به واذا ألهيت بشيء فأنت به غافل عما سواه والتكاثر هو التباهى بالكثرة يقول كل للآخر أنا أكثر منك ولداً أنا أكثر منك مالا أنا أكثر منك رجال حرب وضرب وما يشبه ذلك من ضروب التفاخر يقول قد شغلكم التفاخر والتباهى بكثرة الانصار أو الاشياع وصرفكم ذلك عن الجد فى العمل فكنتم فى لهو بالقول عن الفعل وفى غفلة بالغرور والاعجاب بالآباء والاعوان عن صرف القوى فى القيام بما فرض عليكم من الاعمال لانفسكم وأهلكم ودينكم واستمر بكم ذلك (حتى زرتم المقابر) أى حتى هلكتم وصرتم من أهل القبور انتهيتم الى هذه الغاية وأنتم تظنون أنكم فائزون (كلا) ارتدعوا عن مثل هذا الظن الباطل فانه لا فوز بالتكاثر وانما الفوز بحقيقة التناصر والتضافر على الحق و (سوف تعلمون) مصيركم اذا استمر بكم هذا التفاخر بالباطل بدون عمل صحيح ينفعكم فيما يطالبكم به المجد الصادق والاوامر الالهية ولما كانت عواقب اللهو انما تأتى بعد امهال من الله وطول مدة فى الاغلب عبر بسوف ولما كانت الغفلة شديدة وتمكن اللهو فى النفوس قد وضع على القلوب

ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ

حجاباً كثيفاً يحول دون البصائر والمصاير أعاد الخبر للتأكيد بقوله (ثم كلا سوف تعلمون) وأتى بحرف العطف « ثم » مع أن الجمل المؤكدة لا توصل بحروف العطف ليفيدك أنه خبر جديد بمعناه جيء به بعد الخبر الاول لا مجرد اعادة لفظ . وقد يكون معنى التكاثر التغالب فى الكثرة أى طلب كل واحد أن يكون أكثر من الآخر مالا أو رجالا والسعي الى ذلك لمجرد المغالبة لا يبغى الساعي فى سعيه الا أن يكون ماله أكثر من مال الآخر وأن يكون عضده أقوى من عضده لينال بذلك لذة التعلى والظهور بالقوة كما هو شأن الجمهور الاغلب من طلاب الثروة والقوة ولا ينظر الدائب منهم فى عمله الى تلك الغاية الرفيعة غاية البذل مما يكسب فى سبل الخير أو النهوض بالقوة الى نصرة الحق وحمل المبطلين على معرفته والتوجه اليه ثم المحافظة بعد ذلك عليه وهو معنى مقبول ذهب اليه بعض المفسرين وهو يتفق كل الاتفاق مع ما يفهم من لفظ الهاكم فان الذى يلهى الناس عن الحق فى كل حال ويصرف وجوههم عنه الى الباطل هو طمع كل واحد منهم فى أن يكون أكثر من الآخر مالا أو عدد رجال ليعلوا عليه ويستخدمه لسلطانه بقدر مايدخل فى امكانه أما التفاخر بالاقوال فانما يلهيهم فى بعض الاحوال . جرت سنة الغافلين اذا نبهوا والذاهلين اذا ذكروا بعواقب ماهم فيه أن يحدثوا أنفسهم بأنهم يعلمون ذلك وأنهم يفعلون ما يفعلون عن يقظة وارشاد بصيرة وأنهم محيطون بما ينشأ عن فعالهم ويسلون أنفسهم بذلك ليستمروا فى لهوهم فحارب الله هذه الهواجس وقاتل هذه الخواطر بقوله (كلا لو تعلمون علم اليقين) أى ارتدعوا عن تغريركم بأنفسكم بدعوى انكم تعلمون عاقبة ما أنتم فيه من اللهو بالتكاثر فان هذا الذى تسمونه علماً ليس على الحقيقة بعلم وانما هو وهم وظن لا يلبث أن يتغير مهما استحكم عقده من قلوبكم لانه لا يطابق واقعاً والجدير بأن يسمى علماً هو علم اليقين أى العلم الذى هو من أفراد اليقين واليقين هو الاعتقاد الذى يطابق الواقع عن عيان أو دليل صحيح مقدماته بديهية أو منتهية الى البديهيات بحيث يستحيل تغيره والنفس اذا ملكت هذا النوع من العلم ملك هو ارادتها وعاد المصرف لها فى شئونها فلو تعلمون هذا

لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ

العلم لرفعكم عن هذا التكاثر ودفعكم الى السعى فيما تصلح به ظواهركم وتخلص به لله سرائركم وتتحد به فى تأييد الحق هممكم لان التحقق من سوء العاقبة ينأى بالنفس عما يفضى اليها ويدفعها الى طلب ماهو أحسن منها والجواب لو محذوف حذف ليطلبه العقل من الشرط وما سبقه ليستحكم فيه فضل استحكام . ثم استأنف القول لذكر بعض ماينتهى اليه هذا اللهو وهو عذاب الآخرة بعد خزى الدنيا ولو كان اليقين به حاصلا ماأقدمت النفس الموقنة به على عمل أوعد الله بذلك العذاب عليه فقال (لترون الجحيم) أى ان دار العذاب التى لايمنعكم الآن تصورها عن اللهو بالباطل مع أنها جزاء من يلهو به عن الحق هى ثابتة لاريب فيها ولترونها بأعينكم فاجعلوا صورة عذابها حاضرة فى أذهانكم فتكون منبهة لكم الى ماهو خير لكم مما تلهون به ولما كان الكثير من الناس يظن أنه يعتقد بالآخرة وما فيها من عذاب ونكال ومع ذلك يرتكب السيآت ويقترف المنكرات وهو فى ذلك يمنى نفسه بأنه ممن يعفو الله عنهم فيزحزحه عن النار بمجرد نسبته الى دين وتجلببه بلقب من ألقابه كأن يسمى نفسه مسلما وهو يخالف أحكام القرآن أو من أمة محمد وهو يعمل أعمال أعداء محمد صلى الله عليه وسلم لما كانت هذه الظنون ممايسرع الى النفوس أبطلها الله بتأكيد الخبر وتكريره فقال (ثم لترونها عين اليقين) أى لترونها رؤية هى اليقين نفسه وعلم العيان والمشاهدة من أفراد اليقين يسمى عين اليقين لانه هو الذى تنتهى اليه جميع العلوم اليقينية لان العلم البرهانى اذلم ينته الى علم عيانى لا يعد يقيناً فالعيانى هو ذات اليقين وبقية العلوم تضاف اليه متى استوفيت شرائطها وكنى برؤية الجحيم عن ذوق العذاب فيها وهى كنايةشائعة فى الكتاب العزيز فاذا كان اللاهون بالتفاخر لابد أن يصلوا نار الجحيم الى أى دين أوالى أى شخص كانت نسبتهم فلم يبق عليهم الا أن يتقوا الله فى أنفسهم وينتهوا عمايقذف بهم فى ذلك العذاب الاليم وينظروا الى ماهم فيه من نعمة فيرعوا حق الله فيها ويستعملوها فيما أمر الله أن تستعمل فيه ولا يكتفوا منها بالتمتع باللذات ثم التفاخر بها ولقد زاد الامر عليهم تشديداً بقوله (ثم لتسئلن يومئذ

عَنِ النَّعِيمِ

عن النعيم) أى أن هذا النعيم الذى تتفاخرون به وتعدونه مما يباهى به بعضكم بعضاً هو مما لا بد أن تسئلوا عنه ماذا صنعتم به هل أديتم حق الله فيه وراعيتم حدود أحكامه فى التمتع به فان لم تكن الحقوق أديت ولم تكن الأحكام روعيت كان هذا النعيم غاية الشقاء فى دار البقاء نسأل الله أن يوفقنا لرعاية أحكامه فيما أنعم به علينا .

بقى أن يقال ان هذا خطاب موجه الى الأحياء ليعتبروا فكيف جيء فيه بصيغة الماضى فى قوله زرتم المقابر مع أن الحى لم يزرها بعد وهو ماحمل أبا مسلم على أن يقول أن هذا خطاب من الله للناس فى الآخرة للتقريع مع أن قوله ثم لتسئلن يومئذ يدافع هذا المعنى وحمل غير أبى مسلم على الرجوع الى أسباب ذكرها المفسرون وقالوا انها نزلت فى قبيلتين من الانصار تفاخروا وتكاثروا بأحيائهم فلما كثرت احدى القبيلتين الاخرى لجأت الاخرى الى الاموات وقالت هلموا بنا الى المقابر لنعد من كان من رجالنا ونشير الى قبورهم ولا يخفى أن التكاثر ليس خاصاً بالرجال بل يشمل المال واللفظ والخطاب عامان ولا بد أن يكون المعنى على العموم وتلك الحيرة التى حاروها لاداعى اليها فقد جرت سنة الكتاب العزيز أن يخاطب الحاضر بما كان من الغائب متى كان الحاضر يحتذى حذو الغائب وكان للجميع جامعة تضمهم والله يخاطب جمهور المترفين أو المنعمين من الناس ويذكر عمل من سلف منهم كما قال لبنى اسرائيل يخاطبهم فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم « واذ انجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب » الى آخر الآيات وفيها ثم اتخذتم العجل الخ مع أن الذى وقع له ومنه ماذكر فى الآيات أسلافهم وذلك كما تقول لأعقاب الظالمين « لازلتم تظلمون الناس حتى أكلكم الظلم وأهلككم ففنيتم وأراح الله الناس منكم » مع أن الذى هلك واستراحت الناس منه أسلافهم وهو ضرب من التعبير يريد الله به أن يحمل تبعة الناس بعضهم على بعض حتى لا يدع أحدهم أخاه يأتى منكراً يفشو فيفسد به أمر جماعتهم والله أعلم

سورة العصر مكية وهي ثلاث آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا

(العصر) هو الزمان الذى تقع فيه حركات الناس وأعمالهم أى الدهر كما قال ابن عباس أو هو الوقت المعروف الذى تجب فيه صلاة العصر وكان من عادة العرب أن يجتمعوا وقت العصر ويتحادثوا ويتذاكروا فى شؤونهم وقد يكون فى حديثهم مالا يليق أو مايؤذى به بعضهم بعضاً فيتوهم الناس أن الوقت مذموم فأقسم الله به لينبهك الى أن الزمان فى نفسه ليس مما يذم و يسب كما اعتاد الناس أن يقولوا زمان مشئوم ووقت نحس ودهر سوء وما يشبه ذلك بل هو عاد للحسنات كما هو عاد للسيآت وهو ظرف لشؤون الله الجليلة من خلق ورزق واعزاز واذلال وخفض ورفع فكيف يذم فى ذاته وانما قد يذم مايقع فيه من الافاعيل الممقوتة يقسم الله بالزمان مطلقاً أو بذلك الوقت المخصوص (ان الانسان لفى خسر) الى آخر السورة ليؤكد بالقسم تلك القضية وهى أن جميع من يطلق عليه اسم الانسان ممن هو معهود للمخاطبين وهو الانسان العاقل البالغ خاسر فى أعماله ضربا من الخسران الا من يستثنيهم فأعمال الانسان هى مصدر شقائه لا الزمان ولا المكان وتصوير الاستغراق بما قدمت لاينافى الشمول والعموم كما رأيت فان هذا هو الفرق بين الاستغراق بكل والاستغراق بأل فالاستغراق بأل انما هو لما عهد عند المخاطبين من الافراد يخطر بالبال عند ذكر الاسم مقروناً بها ولو قيل كل انسان فى خسر الا الذين آمنوا لم يصح لان من الانسان الصبى الذى لايميز وهو لاخسران له ولا ربح و (الذين آمنوا) هم الذين صدقوا بأصل الخير والشر كما قال وصدق بالحسنى واعتقدوا اعتقاداً صحيحاً بالفرق بين الفضيلة والرذيلة وبأن لانفسهم وللعالم حاكما يرضى ويغضب ويثيب ويعاقب وأن لهم جزاء على أعمالهم الخير بالخير والشر بالشر ثم كان تصديقهم هذا بالغاً من أنفسهم حد أن يملك ارادتهم فلا يعملون

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ

الا مايوافق اعتقاداتهم فهم يعملون الصالحات وهي الأعمال التي عددت بالتفصيل في القرآن وجماعها أن تكون نافعا لنفسك ولأهلك ولقومك وللناس أجمعين بعيداً من أن تضر أحداً الا لكف ضرر أعظم منه ومن تلك الأعمال الدعوة الى الحق والوصية بالصبر لكنه أراد تخصيص هذين الامرين بالذكر لأنهما حفاظ كل خير ورأس كل أمر والحق هو ماتقرر من حقيقة ثابتة أو شريعة صحيحة وهو ماأرشد اليه دليل قاطع أو عيان ومشاهدة فشرط النجاة من الخسران أن يعرف الناس الحق ويلزموه أنفسهم ويمكنوه من قلوبهم ثم يحمل الناس بعضهم بعضا عليه بأن يدعو كل صاحبه الى الاعتقاد بالحقائق الثابتة التي لاينازع فيها العقل ولا يختلف فيها النقل وأن يبعدوا بأنفسهم وبغيرهم عن الاوهام والخيالات التي لاقرار للنفوس عليها ولا دليل يهدي اليها ولا يكون ذلك الا باعمال الفكر واجادة النظر في الاكوان حتى تستطيع النفس دفع مايرد عليها من باطل الاوهام وهذا اطلاق للعقل من كل قيد مع اشتراط التدقيق في النظر لا الذهاب مع الطيش والانخداع للعادة والوهم ومن لم يأخذ نفسه بحمل الناس على الحق الصحيح بعد أن يعرفه فهو من الخاسرين كما ترى في الآية بالنص الصريح الذي لايقبل التأويل و (الصبر) قوة النفس على احتمال المشقة في العمل الطيب واحتمال المكروه من الحرمان من اللذة اذ كان في نيلها ما يخالف حقاً أو مالا تأذن به الشريعة الصحيحة التي لااختلاف فيها واحتمال الآلام اذا عرضت المصائب بدون جزع ولاخروج في دفعها عن حدود الحق والشرع فشرط النجاة من الخسران أن تصبر وأن توصي غيرك بالصبر وتحمله على تكميل قواه بهذه الفضيلة الشريفة التي هي أم الفضائل بأسرها ولا يمكنك حمله على ذلك حتى تكون بنفسك متحلياً بها والا دخلت فيمن يقول ولا يفعل كما يقول فلم تكن ممن يعمل الصالحات . ترى السورة قد شملت بحكمها جميع أفراد المكلفين سواء بلغتهم دعوة نبي فآمن بها من آمن وعمل الصالح ووصى بالحق والصبر فنجا وأعرض عنها من أعرض فخسر أم لم تبلغهم دعوة فمنهم من صدق بأصل الخير والشر كما قلنا وآثر الفضيلة على الرذيلة ففاز ومنهم من أساء العمل فخسر الخسران الذي يناسبه . ثم تراها لم تدع

سورة الهمزة مكية وهي تسع آيات

بسم الله الرحمن الرحيم
وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ۝ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ

شيأ الا أحرزته فى عبارتها الموجزة حتى قال الشافعى رحمه الله لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم أو قال لو لم ينزل من القرآن سواها لكفت الناس وللجلالة ماجمعت روى أنه كان الرجلان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة والعصر ثم يسلم أحدهما على الآخر . ذلك ليذكر كل منهما صاحبه بما يجب أن يكون عليه فاذا رأى منه شيأ ينبغى أن ينبه اليه فعليه أن يذكره له (١)

(الهمزة اللمزة) هو الذى يطعن فى أعراض الناس ويغض منهم ويحقر من أعمالهم وصفاتهم وينسب اليهم السيآت تلذذاً بالحط منهم واظهاراً لترفعه عليهم أصله من الهمز واللمز بمعنى الطعن والكسر ثم صار عرفا لغويا فيما ذكرنا ويقال ان الهمز يكون بالعين والشدق واليد حركات تشير الى التحقير والهزء واللمز يكون باللسان وبناء الصفة على فعلة يفيد كثرة وقوع الفعل وجريانه مجرى العادة وذلك هو حال (الذى جمع مالاً وعدده) أى أن الذى يحمله على الحط من أقدار الناس هو جمعه المال وتعديده أى عده مرة بعد أخرى شغفاً به وتلذذاً باحصائه لأنه لا يرى عزاً ولا شرفا ولا مجداً فى سواه فكلما نظر الى كثرة ماعنده منه انتفخ

---

(١) وقد كتبنا تفسيراً لهذه السورة الشريفة نشر وحده بعد ان طبع فى مطبعة جريدة المنار وهو ما كنا ألقيناه درسا فى مدينة الجزائر فى شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٢١ وفيه تفصيل طويل لما اجملناه فى هذا التفسير المختصر فمن اراد بيانا اوسع وتفصيلا أبدع فليطلب ذلك التفسير فهو فيما اعلم غير مسبوق بنظير

يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۝

وظن أنه من رفعة المكانة بحيث يكون كل ذى فضل ومزية دونه فهو يهزأ به ويهمزه ويلمزه ثم لايخشى أن تصيبه عقوبة على الهمز واللمز وتمزيق العرض لان غروره بالمال أنساه الموت وصرف عنه ذكرى المآل فهو (يحسب أن ماله أخلده) أى يظن أن ماعنده من المال قد حفظ له حياته التى هو فيها وأرصدها عليه فهو لايفارقها الى حياة أخرى يعاقب فيها على ما كسب من سيء الاعمال .
يوعد الله من هذه صفاته بالويل والهلاك والنكال فى قوله ويل لكل همزة لمزة الخ ثم يصرح بذلك ويفصله فى دفع وهمه أن المال يغنى عنه من الله شيأ وأنه يحفظ عليه ماهو فيه أبداً حيث يقول (كلا) فليرتدع عن هذا الظن (لينبذن فى الحطمة) أى ليلقين فيها محقراً مصغراً وكلمة النبذ تفيد التحقير والتصغير (وما أدراك ماالحطمة) يستفهم عنها لتعظيم أمرها واكبار هولها كأنها مما لايحيط به العرفان فمن ذا الذى يعلمك بمقدار ما لها الا الذى أوجدها وأعدها لأهلها هى (نار الله الموقدة) أى النار التى لاتنسب الا اليه سبحانه لانه هو منشئها فى عالم لا يعلمه سواه وهى ملتهبة التهاباً لايدرك كنهه غيره سبحانه ولا يمكننا الوقوف على حقيقة تلك النار وانما الذى نعرفه أن للعذاب بها ألماً أشد من ألم الاحراق بنار الدنيا ولذلك وصفها بوصف ليس من أوصاف نيران الدنيا فقال (التى تطلع على الافئدة) ولا يخفى عليك أن الفؤاد انما يطلق على القلب اذا لوحظ أنه بمعنى موضع الوجدان والشعور فكأنه قال التى تعلو مشاعرهم ومداركهم ومواطن الوجدان من نفوسهم أى أن سلطان هذه النار على قوى الوجدان والشعور التى هى مواطن النيات والمقاصد ومساكن الفضائل والرذائل وقد قيل أن معنى الاطلاع ههنا المعرفة والعلم أى أن هذه النار تعرف مافى الافئدة فتأخذ من تعرفهم أهلاً لها من أهل الوجدان الخبيث والنار التى تعرف من يستحق العذاب بها لاتكون من النيران المعروفة لنا فى الدنيا بالضرورة وعلى كل لايخلو

إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ

سورة الفيل مكية وهى خمس آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ

الكلام ى هذا التأويل الثانى من التمثيل والتجوز ثم قال (انها عليهم مؤصدة) أى مطبقة لامخلص لهم منها (فى عمد ممدة) العمد جمع عمود وهو معروف والممددة المطولة أى أن اطباقها عليهم واغلاقها فى عمد طويلة تمد على أبوابها بعد أن تؤصد وهو تصوير لشدة الاطباق واحكامه وتأكيد لليأس من الخلاص أما كون العمد كعمدنا فذلك مما لايمكن معرفته لأن شأن الآخرة غير شأن الدنيا كما هو معلوم فلا وجه للبحث فيه وذلك يكون عند نزول العذاب يجد المعذب أنه لامخلص له مما هو فيه سواء خلص بعد ذلك ان كان من المؤمنين الخاطئين أم لم يخلص ان كان من الذين أحاطت بهم خطيآتهم فكانوا من الهالكين نعوذ بالله من غضبه ونسأله أن يحفظنا من نقمه

(ألم تر) أى ألم تنظر أو ألم تعلم (كيف فعل ربك) أى الحالة التى وقع عليها عمل الله الذى يتولى أمرك (بأصحاب الفيل) وهو الحيوان المعروف وبين تلك الحالة التى وقع عليها الفعل الالهى بقوله (ألم يجعل كيدهم فى تضليل) الكيد هو تدبير السوء والتضليل التضييع والهمزة فى ألم تر وألم يجعل للتقرير أى انك ترى ما كان عليه فعل الله بأولئك القوم وذلك أنه ضيع تدبيرهم وخيب سعيهم (وأرسل عليهم طيراً أبابيل) الابابيل الفرق والجماعات يتبع بعضها بعضاً من طير

تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ

أو خيل مثلا والطير هو مايطير فى الهواء سواء كان صغيراً أو كبيراً وسواء كان مرئياً لك أم غير مرئى (والسجيل) الطين المتحجر وأصل الكلمة فارسية دخلت فى العربية أى حجارة من طين متحجر (والعصف) ورق الزرع (والمأكول) الذى أكله الدود أو السوس أو أكل الدواب بعضه وتناثر من بين أسنانها بعضه .
السورة الكريمة تعلمنا أن الله سبحانه يريد أن يذكر نبيه ومن تبلغه رسالته بعمل عظيم من أعماله الدالة على عظم قدرته وأن كل قدرة دونها فهى خاضعة لسلطانها وأنه القاهر فوق عباده لايمنعهم منه عزة ولا تتعاصى عليه منهم قوة ذلك العمل العظيم هو أن قوماً أرادوا أن يتعززوا بفيلهم ليغلبوا بعض عباده على أمرهم ويصلوا اليهم بشر وأذى فأهلكهم الله ورد كيدهم وأبطل تدبيرهم بعد أن كانوا فى ثقة بعددهم وعددهم فلم يفدهم ذلك شيأ وكان يمكننا أن نكتفى بذلك المعنى من الآيات ولا نزيد عليه أدنى تفصيل وهو كاف فى الاعتبار والعظة كما اكتفينا بذلك فى أصحاب الاخدود لكن فى هذه السورة يجوز لنا التفصيل لان واقعة الفيل فى ذاتها كما وردفى هذه الآيات معروفة متواترة الرواية حتى أنهم جعلوها مبدأ تاريخ يحددون به أوقات الحوادث فيقولون ولد عام الفيل وحدث كذا لسنتين بعد عام الفيل ونحو ذلك وما تواتر من الواقعة هو أن قائداً حبشياً ممن كانوا قد غلبوا على اليمن أراد أن يعتدى على الكعبة المشرفة ويهدمها ليمنع العرب من الحج اليها أو ليقهرهم ويذلهم فتوجه بجيش جرار الى مكة لذلك واستصحب معه فيلا أوفيلة كثيرة زيادة فى الارهاب وحشر الخوف الى القلوب ولم يزل سائراً يغلب من يلاقيه حتى وصل الى المغمس بالقرب من مكة ثم أرسل الى أهل مكة يخبرهم أنه لم يأت لحربهم وانما أتى لهدم البيت ففزعوا منه وانطلقوا الى شعف الجبال ينتظرون ماهو فاعل وفى اليوم الثانى فشا فى جند الحبشى داء الجدرى والحصبة قال عكرمة وهو أول جدرى ظهر ببلاد العرب وقال يعقوب بن عتبة فيما حدث أن أول مارؤيت الحصبة والجدرى ببلاد العرب ذلك العام وقد فعل ذلك الوباء بأجسامهم ماينددر وقوع مثله فكان لحمهم يتناثر ويتساقط فذعر الجيش وصاحبه

وولوا هاربين وأصيب الحبشى ولم يزل يسقط لحمه قطعة قطعة وأنملة أنملة حتى انصدع صدره ومات فى صنعاء هذا ما اتفقت عليه الروايات ويصح الاعتقاد به وقد بينت لنا هذه السورة الكريمة أن ذلك الجدرى أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذى يحمل جراثيم بعض الامراض وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذى تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات فاذا اتصل بجسد دخل فى مسامه فأثار فيه تلك القروح التى تنتهى بافساد الجسم وتساقط لحمه وان كثيراً من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله فى اهلاك من يريد اهلاكه من البشر وأن هذا الحيوان الصغير الذى يسمونه الآن بالمكروب لايخرج عنها وهو فرق وجماعات لايحصى عددها الا بارئها ولا يتوقف ظهور أثر قدرة الله تعالى فى قهر الطاغين على أن يكون الطير فى ضخامة رؤس الجبال ولا على أن يكون من نوع عنقاء مغرب ولا على أن يكون له ألوان خاصة به ولا على معرفة مقادير الحجارة وكيفية تأثيرها فلله جند من كل شيء

وفى كل شيء له آية * تدل على أنه الواحد

وليس فى الكون قوة الا وهى خاضعة لقوته فهذا الطاغية الذى أراد أن يهدم البيت أرسل الله عليه من الطير ما يوصل اليه مادة الجدرى أو الحصبة فأهلكته وأهلكت قومه قبل أن يدخل مكة وهى نعمة من الله غمر بها أهل حرمه على وثنيتهم حفظاً لبيته حتى يرسل من يحميه بقوة دينه صلى الله عليه وسلم واذ كانت نقمة من الله حلت بأعدائه أصحاب الفيل الذين أرادوا الاعتداء على البيت بدون جرم اجترمه ولا ذنب اقترفه . هذا ما يصح الاعتماد عليه فى تفسير السورة وما عدا ذلك فهو مما لا يصح قبوله الا بتأويل ان صحت روايته ومما تعظم به القدرة أن يؤخذ من استعز بالفيل وهو أضخم حيوان من ذوات الاربع جسما ويهلك بحيوان صغير لا يظهر للنظر ولا يدرك بالبصر حيث ساقه القدر . لاريب عند العاقل أن هذا أكبر وأعجب وأبهر .

سورة قريش مكية وهي اربع ايات

بسم الله الرحمن الرحيم

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ

قريش اسم للقبائل العربية من ولد النضر بن كنانة كما قال القرطبي وعليه الفقهاء أو من ولد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة على ماقال الزبير بن بكار انه قول جميع النسابين والايلاف من معنى الألفة والائتلاف وفيه معنى أنس شيء الى آخر وتعلقه به وسلامته عن النفور منه وكانت لقريش رحلتان احداهما الى اليمن زمن الشتاء والاخرى الى الشام فى فصل الصيف يذهب التجار فيهما للكسب واجتلاب الربح والاستكثار من الرزق وكانت قوافل قريش معروفة عند العرب محترمة فى نفوسهم لانهم سكان مكة وجيران بيت الله فكانوا يذهبون آمنين ويعودون سالمين لايمسهم السوء على كثرة ماكان بين العرب من النهب والسلب فكان احترام البيت ضربا من القوة المعنوية التى كانت تحتمى بها قريش فى أسفار أرباب التجارة منها ولهذا ألفت نفوسهم تلك الاسفار وتعلقت بالرحيل لاستدرار مادة الرزق ولو نزلت مكانة البيت من نفوس العرب ونقصت حرمته عندهم واستطالت الايدى بالتعدى على سفارهم لنفروا من تلك الرحلات وكرهتها نفوسهم فقلت وسائل الكسب بينهم لأن أرضهم ليست بذات زرع وماهم بأهل صناعة مشهورة يحتاج الناس اليها فيأتونهم وهم فى عقر ديارهم ليأخذوا منها فكانت تضيق عليهم مسالك الارزاق وتنقطع عنهم ينابيع الخير وهذا الاجلال الذى ملك نفوس العرب من البيت الحرام انما هو من تسخير رب البيت سبحانه وقد حفظ حرمته برد الحبشة الذين أرادوا هدمه واهلاكهم قبل أن ينقضوا منه حجرا بل قبل أن يدنوا منه بل زاد ذلك فى اجلاله لتدوم ألفتهم للاسفار والترحل فى الصيف والشتاء

فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ

فعليهم أن (يعبدوا رب هذا البيت) الذى حماه ومكن منزلته من النفوس وقد (أطعمهم) بذلك وأوسع لهم من الرزق ولولا ذلك لكانوا فى جوع وضنك عيش (وآمنهم) من التعدى وتطاول الايدى الى أموالهم وأرواحهم ولولا ذلك لاخذهم الخوف من كل مكان فاذا كانوا يعرفون أن هذا كله انما هو فضل رب هذا البيت فلم يتوسلون اليه بتعظيم غيره وتوسيط سواه عنده مع أنه لا فضل لاحد ممن يوسطونه فى شيء من النعمة التى هم فيها نعمة الأمن وهى أكبر نعمة ونعمة الرزق وكفاية الحاجة

من الحق أن يفردوه بالتعظيم ويخصوه بالاخلاص لهذا المعنى الذى بيناه ذهب بعض المفسرين الى أن هذه السورة متعلقة بالتى قبلها وأن اللام فى قوله لايلاف قريش متعلقة بقوله فجعلهم كعصف مأكول أى انه أرسل الجماعات من الطير على أصحاب الفيل ترميهم بالحجارة حتى أصيبوا بمرض الجدرى أو الحصبة وهلكوا به فعل ذلك كله لايلاف قريش رحلة الشتاء وهو وجيه ولا ينافيه الفصل بالبسملة وكونها سورة مستقلة لانه لامانع من أن تكون سورة مستقلة متعلقة بأخرى والفصل انما هو لاظهار العناية بما احتوت عليه كل من السورتين حتى أن كل جملة مما حوتا يصح أن تقصد لذاتها وما تضمنته سورة قريش جدير بالعناية لان الخطاب والتذكير كان لهم وهم قومه صلى الله عليه وسلم والسامعون لدعوته فحق أن يفصل مايختص بهم عما قبله بفاصل يلفت الذهن اليه وان كان مرتبطا به وبعضهم يقول أن اللام متعلقة بمحذوف أى أعجبوا لايلاف قريش وما فيه من عظم النعمة وهو من اجلال العرب للبيت وذلك من فضل ربه ومع ذلك يعظمون غيره ويتوسلون اليه بسواه فان لم تكن هناك نعمة سوى هذه النعمة فليعبدوه ويخلصوا له لاجلها وهذا خلاف لايهم طالب العظة والاعتبار فوجه التذكير ظاهر ايلافهم رحلة الشتاء بدل من ايلاف قريش وأفراد الرحلة مع اضافتها الى

سورة الماعون مكية وهي سبع آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ

متعدد مما يعرف مثله فى كلام العرب قال شاعرهم * حمامة بطن الواديين ترنمى *
ولم يقل بطنى الواديين وقال آخر.

كلوا فى بعض بطنكم تعفوا * فان زمانكم زمن خميص

ولم يقل فى أبعاض بطونكم وبقية المعنى ظاهر مما سبق بيانه والله أعلم.

(أرأيت) ههنا بمعنى هل عرفته وعلمت من هو على التحقيق والدين هو ماوراء المحسوس من الشؤون الالهية التى لاتحيط بها النفس الا من وجه معرفة آثارها فى الكون المشهود ومنها ارسال الرسل المؤيدين بالأدلة القاطعة الدالة على أنهم يبلغون عن مدبر الكون ماتصلح به شؤون عباده وانللناس حياة أخرى يجازى فيها كل بعمله وكثير من الناس بل الاغلب فيهم يقولون انهم يعتقدون بالدين ويصدقون بالله وبما جاء به رسله وبالحياة الآخرة وينتحلون لأنفسهم المزايا على غيرهم ويظنون أنهم المصطفون وأن من يخالفهم قد حقت عليه كلمة الشقاء ويكتفون فى الدلالة على هذه الدعوى ببعض أعمال رسمها الدين وان لم يكن لها أثر فى قلوبهم كالصلاة وما يشابهها مما لاينقص مالا ولا يجشم مشقة والجمهور الاعظم من النصارى واليهود والمشركين ممن كان فى زمنه صلى الله عليه وسلم كانوا يظنون أنهم يصدقون بالدين ولا يكذبون به وغرتهم صلاتهم وصيامهم مع أنهم كانوا فى أبعد طريق عن حقيقة دينهم يشهد بذلك ماكان بينهم من التنافس فى الباطل واستعباد قويهم لضعيفهم وبخل غنيهم بالمعروف يفيض به على فقيرهم

فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ

ومع ذلك كان كل فريق منهم يعد نفسه صاحب الحظوة عند الله ويحسب كل من خالفه فى مسقط النقمة فأراد الله جل شأنه أن يعلمنا من هو المكذب بالدين ومن تعريف المكذب به يعرف المصدق به على الحقيقة فبدأ الكلام بقوله (أرأيت الذى يكذب بالدين) على طريقة الاستفهام لينبه السامع الى أن الأمر خفى على المحجوب عن نفسه المغرور بأوهامه والخطاب لكل من يفهم الخطاب أى هل تبينت من هو المكذب بالدين ان لم تكن تبينته (فذلك الذى يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين) هذا هو المكذب بالدين فالفاء واقعة فى جواب الشرط الذى دل عليه الكلام ويدع اليتيم أى يدفعه ويزجره زجراً عنيفاً اذا جاء يطلب منه حاجة احتقاراً له وتكبراً عليه لفقده النصير وخلو ظهره من المجير واليتيم مظهر الضعف وممثل الحاجة فالمستهين به مستهين بكل ضعيف محتقر لكل محتاج فالمعنى أن المكذب بالدين هو الذى يغمط حق غيره تعززاً بقوته فكل ظالم منتهك لحرمات الحقوق مكذب بالدين متى كان ذلك له ديدناً وسواء كان ظلمه لقليل من الناس أو كثير والحض على طعام المسكين الحث عليه ودعوة الناس اليه والذى لايحض على اطعام المساكين لايطعمهم فى العادة فقوله ولا يحض على طعام المسكين كناية عن الذى لايجود بشىء من ماله على الفقير المحتاج الى القوت الذى لا يستطيع له كسباً وليس المسكين هو الذى يطلب منك أن تعطيه وهو قادر على قوت يومه بل هذا هو الملحف الذى يجوز الاعراض عنه وتأديبه بمنعه ما يطلب وانما جاء بالكناية ليفيدك أنه اذا عرضت حاجة المسكين ولم تجد ماتعطيه فعليك أن تطلب من الناس ان يعطوه وفيه حث للمصدقين بالدين على اغاثة الفقراء ولو بجمع المال من غيرهم وهى طريقة الجمعيات الخيرية فأصلها ثابت فى الكتاب بهذه الآية وبنحو قوله فى سورة الفجر كلا بل لاتكرمون اليتيم ولاتحاضون على طعام المسكين ونعمت الطريقة هى لاغاثة الفقراء وسد شىء من حاجات المساكين فالمكذب بالدين هو المحتقر لحقوق الضعفاء كبراً وعتواً والذى يبخل بماله على الفقراء ويبخل بسعيه عند الاغنياء لاغاثة أهل الحاجة ممن تحقق عجزهم عن كسب ماينقذهم

فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ

من الضرورة ويقوم لهم بالكفاف من العيش وسواء كان المحتقر للحقوق البخيل بالمال والسعى مصلياً أم غير مصل فصلاته لاتنفعه ولا تخرجه من صف المكذبين بالدين لأن المصدق بشيء لاتطاوعه نفسه بالخروج عن حد ماصدق به فلو صدق بالدين لعرف أن صلاته انما هى عنوان الخشوع للقاهر الذى لايجوز لأحد أن يشاركه فى عظمته الذى خلق الخلق وحدد حدود الحق وفرض على الاقوياء الرحمة والعدل فى الضعفاء فمن لم تذكره صلاته بهذا الذى فرض عليه فهو كاذب فى قوله مراء فى ظاهر عمله ولهذا جاء سبحانه بالتفريع على تعريف المكذب بالدين فى قوله (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون) أى اذا عرفت أن المكذب هو الذى أقفر قلبه من المرحمة وأجدب من العدل والمكرمة فويل لاولئك الذين يصلون ويؤدون مايسمى صلاة فى عرفهم من الاقوال والافعال وهم مع ذلك ساهون عن صلاتهم أى غافلة قلوبهم عما يقولون وما يفعلون فهو يركع فى ذهول عن ركوعه ويسجد فى لهو عن سجوده وانما هى حركات تشبه الخطوات التى يخطوها فى الطريق ينقل قدمه من خطوة الى أخرى ولا يلاحظ فى كل خطوة ذلك المقصد الذى قصده بمشيه فهو يدخل فى الصلاة بنية أنها مطلوبة منه ثم يمضى فيها بلا شعور بالقصد مما يفعل وانما تجرى الاقوال وتتابع الحركات على حسب العادة بلا استحضار للمعانى فى القلوب ثم هم ساهون عن حقيقة الصلاة و الحكمة التى فرضها الله لها وهو اخضاع القوى لواهب القوى وهل يجتمع الخضوع له والخروج عن أوامره فيما فرض أن يراعى من حقوق عباده ولذلك قال فى وصفهم (الذين هم يراؤون) أى يفعلون مايرى للناس فقط ولا يستشعرون من روح العبادة ماأوجب الله على النفوس أن تستشعره ثم أعاد ذكر الوصف الذى يتحقق به التكذيب بالدين مع الصلاة فقال (ويمنعون الماعون) والماعون كل مايستعان به فأولئك الذين يصلون ولا يأتون من الاعمال الا مايرى للناس مما لايكلفهم بذل شيء من مالهم ولا يخشون منه ضرراً يلحق بأبدانهم أو نقصاً يلم بجاههم ثم يمنعون الناس معونتهم

ولا ينهضون بباعث الرحمة الى سد حاجتهم وتوفير ما يكفل راحتهم وأمنهم وطمأنينتهم أولئك لا تنفعهم صلاتهم ولا تخرجهم من حد المكذبين بالدين لا فرق فى ذلك بين من وسموا أنفسهم بسمة الاسلام أوغيره فان حكم الله واحد لا محاباة فيه للاسماء المنتحلة التى لا قيمة لها الا بمعانيها الصحيحة المنطبقة على مراده تعالى من تحديد الأعمال وتقرير الشرائع فخاصة المصدق بالدين التى تميزه عمن سواه من المكذبين هى العدل والمرحمة وبذل المعروف للناس وخاصة المكذب التى يمتاز بها عن المصدقين هى احتقار حقوق الضعفاء وقلة الاهتمام بمن تلذعهم آلام الحاجة وحب الأثرة بالمال والتعزز بالقوة ومنع المعروف عمن يستحقه من الناس . فهل تجد نصاً أصرح من هذا فى تعريف التصديق بالدين وبيان الصفات التى يعرف بها وفى شرح التكذيب بالدين وتفصيل لوازمه وما يتميز به عن التصديق فهل للمسلمين أى الذين يزعمون أنهم يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به أن يقيسوا أحوالهم وما يجدونه من أنفسهم بما يتلونه فى هذه السورة الشريفة ليعرفوا هل هم من قسم المكذبين او المصدقين وليقلعوا عن الغرور برسم هذه الصلاة الذى لا أثر له الا فى ظواهر أعضائهم وبهذا الجوع الذى يسمونه صياما ولا أثر له الا فى عبوس وجوههم وبذاءة ألسنتهم وضياع أوقاتهم فى اللهو والبطالة وليرجعوا الى الحق من دينهم فيقيموا الصلاة ويحيوا صورتها بالخشوع وتطأمن القوى الانسانية لقوة العلى الأعلى فلا يخرجون من الصلاة الا وهم ذاكرون أنهم عبيد له يلتمسون رضاه فى رعاية حقوق براياه ويجعلوا من الصوم مؤدباً للشهوة ومهذباً للرغبة ورادعاً للنفس عن الأثرة فلا يكون فى صومهم الاخير لأنفسهم ولقومهم ثم يؤدوا الزكاة المفروضة ولا يبخلوا بالمعونة فيما ينفع الخاصة والعامة أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها أفلا ينظرون الى ما نزل بهم من الضعف والذلة وتسلط الامم عليهم وانتقاصها ارضهم من كل جانب فيعلموا أن هذا هو عقاب الله للمكذبين فيطلبوا النجاة من هذا كله بأخذ سبيل المصدقين وينزعوا عن الانخداع بما سولته لهم أوهام بعض من يدعى العلم منهم فان العيان قد كذبهم وأظهر ان سنة الله فى الخلق لا تتبدل وأن صورة الانتساب الى دين لا تغنى عن اتباع هديه الصحيح الذى يدل عليه النص بعد التواتر فى النقل واجادة التدبر من العقل

سورة الكوثر مكية وهي ثلاث آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ

كان المستهزئون من قريش كالعاص بن وائل وعقبة بن أبي معيط وأبي لهب وأمثالهم اذا رأوا ابناء النبي صلى الله عليه وسلم يموتون يقولون بتر محمد أي لم يبق له ذكر في أولاده من بعده ويعدون ذلك عيباً يلمزونه به وينفرون به الناس من أتباعه وكانوا اذا رأوا ضعف المسلمين وفقرهم وقلتهم يستخفون بهم ويهونون أمرهم ويعدون ذلك مغمزاً في الدين ويأخذون القلة والضعف دليلا على أن الدين ليس بحق ولو كان حقاً لنشأ مع الغنى والقوة شأن السفهاء مع الحق في كل زمان أو مكان غلب فيه الجهل وكان المنافقون اذا رأوا ما فيه المؤمنون من الشدة والبأساء يمنون أنفسهم بغلبة اخوانهم القدماء من الجاحدين وينتظرون السوء بالمسلمين لقلة عددهم وخلو أيديهم من المال وكان الضعفاء من حديثي العهد بالاسلام من المؤمنين تمر بنفوسهم خواطر السوء عندما تشتد عليهم حلقات الضيق فأراد الله سبحانه أن يمحص من نفوس هؤلاء ويكبت الآخرين فأكد الخبر لنبيه أن ما يخيله النظر القصير قليلا هو الكثير البالغ الغاية في الكثرة ليؤكد له الوعد بأنه هو الفائز وأن متبعه هو الظافر وأن عدوه هو الخائب الابتر الذي يمحى ذكره ويعفى أثره فقال (انا أعطيناك الكوثر) الكوثر صيغة مبالغة من الكثرة ومعناه الشيء البالغ من الكثرة حد الافراط قيل لاعرابية رجع ابنها من السفر بم رجع ابنك قالت بكوثر وقال الكميت

وأنت كثير يا ابن مروان طيب * وكان أبوك ابن العقائل كوثراً

وقد اختلف في معنى الكوثر اختلافاً كثيراً ولكن تعريف اللفظ يدل على أن المقصود به كان امراً معهوداً للسامعين تذهب أذهانهم اليه عند سماعه وان كانوا لم يعهدوا وصفه بانه أكثر الكثير وهو الذي كان يستقله أعداؤه والذي أعطيه

النبى صلى الله عليه وسلم وكان معروفاً لسامعى الكتاب هو النبوة والدين الحق والهدى وما فيه سعادة الدارين الدنيا والآخرة ولهذا فانى أذكر لك ماقاله جمع من الأئمة فقال أبو بكر بن عياش ويمان بن وثاب الكوثر هم أصحابه وأشياعه صلى الله عليه وسلم الى يوم القيامة وقال الحسين بن الفضل هو تيسير القرآن وتخفيف الشرائع وقيل هو الاسلام وقال هلال هو التوحيد وقال عكرمة هو النبوة وقال جعفر الصادق هو نور قلبه صلى الله عليه وسلم وقيل هو العلم والحكمة وقال ابن كيسان هو الايثار « أى ايثاره عليه السلام غيره بالمنفعة على نفسه » وقيل هو الفضائل الكثيرة التى وهبه الله اياها وذهب جماعة من الأئمة الى أنه الخير الكثير والنعم الدنيوية والاخروية من فضائل وفواضل وهو ما رواه ابن جرير وابن عساكر عن مجاهد وهو المشهور عن ابن عباس وأخرج البخارى وابن جرير والحاكم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال الكوثر الخير الذى أعطاه الله تعالى اياه قال ابو بشر قلت لسعيد فان ناساً يزعمون أنه نهر فى الجنة قال النهر الذى فى الجنة من الخير الذى أعطاه الله عز وجل اياه عليه الصلاة والسلام ويروى هذا الجواب عن ابن عباس نفسه أيضاً فاذا جرينا على أن الكوثر هو النبوة أو العلم والحكمة أو نور القلب وهو الهدى والرشاد كان المعنى أن الذى أعطيناك من هذه المواهب هو الكثير الذى لايكثره شىء وان استقله الضعفاء أو استخف به الاعداء وأى كثير يعد كثيراً بالنسبة الى الهدى والرشاد ومعرفة طريق السعادة أليس الهدى منبع القوة والعزة وهو الذى يحفظهما بعد حصولهما اذ القوة والمال اذا لم تكن معهما الهداية التى تقيم صاحبها على الطريق المستقيم لابقاء لهما ومصيرهما الى الزوال ومصير كثرتهما الى قلة كما قال سيدنا على رضى الله عنه العلم يحفظك وأنت تحفظ المال ولا سبيل الى حفظ المال الا بالعلم والجهل والضلال مضيعة كل شىء من جاه أو مال . وعلى أن الكوثر هو الخير الدنيوى والاخروى يكون المراد أن هؤلاء المستعجلين بالسيئة يظنون أنك فى قل وضعف وأن أغنياءهم وأقوياءهم فى عز ونعمة ولا يعلمون أننا قد أعطيناك من الخير الذى يعظم فى نفوسهم مما يعرفون ومن الخير المدخر لك فى الغيب مما لايدركون شيأ كثيرا لاتحد كثرته . وأما أن هناك نهراً فى الجنة اسمه الكوثر وأن الله أعطاه نبيه فلا يفهم من معنى الآية بل الذى يدل عليه

فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ

سياق السورة وموضع نزولها هو الذى بيناه من أحد القولين والاول ـ هو النبوة وما فى معناها أرجح أما الاعتقاد بوجود هذا النهر فى الجنة فموقوف على تواتر الاخبار التى وردت به وقد ذهب جماعة الى انها متواترة المعنى فيجب الاعتقاد بوجود النهر على وجه عام بدون تفصيل أوصافه لكثرة الخلاف فيها ولكن التواتر لا يصح أن يكون برأى جماعة أو برأى آخرين لحد التواتر هو ماتراه فى القرآن تعرفه طبقة عن طبقة يؤمن تواطؤ كل منها على الكذب الى أن وصل اليك لا تنكره فرقة من فرق المسلمين قاطبة فهذا التواتر هو الذى يوجب اليقين وليس الامر كذلك فى أحاديث النهر فانها وان كثرت طرقها لم تبلغ هذا المبلغ فلا يصدق عليها اسم المتواتر خصوصاً وانه يظن بالرواة سهولة التصديق فى مثل هذا الخبر لما فيه من غرابة الكرامة وجمال الوصف فيسهل على كل راو الميل الى تصديق مايقال له وهذا يخل بشرط التواتر لان أول شرط فيه أن لا يكون فى الطبقات رائحة التشيع للمروى وبالجملة فخبر وجود النهر من الاخبار الغيبية لايجوز الاعتقاد به الا بعد التيقن أنه ورد عن المعصوم صلى الله عليه وسلم فاذا وصلت فيه الى اليقين الذى لا يجوز عندك تبدله وكان علمك بصدوره عنه عليه السلام كعلمك بوجود مكة أو المدينة قبل أن تراهما فاعتقد به والا ففوض الامر الى الله وقل لا أعلم والله أعلم . بعد أن أكد الله لنبيه الخبر بان الذى أعطاه هو الكوثر الذى لا يستقل عدده ولا ينتقص قدره وان ما يعدونه كثيراً وعظيما فهو بالنسبة اليه قليل وحقير طالبه بالشكر على ذلك وأفضل الشكر الاخلاص لله فى العبادة لا يشرك فى التوسل اليه ولا فى الخشوع القلبى له أحداً سواه ثم بذل المال للفقراء والمساكين ولهذا فرع على الخبر قوله (فصل لربك وانحر) أى فاجعل صلاتك لربك وحده وانحر ذبيحتك مما هو نسك لك لله وحده فانه هو مربيك ومسبغ النعم عليك دون سواه كما قال تعالى « قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » نوه الله بقدر ما أعطاه ثم أمره بالشكر عليه وبعد ذلك استأنف الكلمة لذكر حال أعدائه ومبغضيه

إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ

ووعيدهم بما سيصيبهم فى أنفسهم وأموالهم فقال (ان شانئك هو الأبتر) الشانئ معناه المبغض والابتر هو المقطوع الذى لا يبقى أثره ولا يحسن من بعده ذكره. شبه بقاء الذكر الحسن واستمرار الأثر الجميل بذنب الحيوان لانه يتبعه وهو زينة له وشبه الحرمان من ذلك ببتر الذنب وقطعه لأن البتر شاع فى هذا المعنى وان كان أصله القطع مطلقاً وشانئه صلى الله عليه وسلم لم يكن يشنؤه لشخصه لان شخصه كان محبباً الى النفوس كما يدل عليه تاريخه قبل ادعاء النبوة وانما كان الشانئون يشنئون ويمقتون ماجاء به من الهدى فهؤلاء هم الغارقون فى الضلال الخابطون فى ظلام الجهل فلا ريب فى فساد أمرهم وانقطاع أثرهم وقد حقق الله هذا الوعيد فى شانئيه فى زمنه صلى الله عليه وسلم من العرب وغيرهم فقد جرهم الخذلان الى غاية الخسران ولم يبق لهم الا سوء الذكر لبعضهم والنسيان التام لبقيتهم بخلاف النبي صلى الله عليه وسلم ومن اهتدى بهديه فان ذكرهم لا يزال رفيعاً وأثرهم لا يزال باقياً فى نفوس الصالحين

وممن يشنأ ما جاء به صلى الله عليه وسلم ويدخل فيما يضمه معنى الابتر أولئك الذين يتركون كتاب الله الذى جاء به ويتمسكون بالظنون وأقوال غير المعصومين بدون نظر الى ما تجر اليه من الانحراف عن سبيل جملة الدين القويم ويجعلون الدين شيعاً وفرقاً بعد أن صرح الكتاب بقوله ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شيء ثم يعملون على ترويج ما ألصقوا أو الصق أسلافهم بالدين من البدع وبيع العبادات واتخاذ الوسائط والشفعاء مما رمى بهم الى ما وراء الصراط المستقيم فاذا ذكروا بالقرآن أودعوا اليه لووا رؤوسهم وذكروا لك من قول القائلين ما يصادمون به كتاب الله ويظنون أنهم به يؤمنون فلا عجب أن ترى الغضب الالهى يتبعهم فى كل مكان ويقذفهم من ذلة الى مسكنة ومن متلفة الى مهلكة وهم لا يشعرون بل ينظرون الى مايحل بهم وهم ضاحكون لاهون ساخرون نعوذ بالله من الخذلان ونستعين به على تقرير الايمان

سورة الكافرون مكية وهي ست آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ

الكافر هو المعاند الجاحد الذى اذا رأى ضياء الحق أغمض عينيه واذا سمع الحرف من كلمته سد اذنيه ذلك الذى لا يبحث فى دليل بعد عرضه عليه ولا يذعن لحجة اذا اخترقت فؤاده بل يدفع جميع ذلك حباً فيما وجد نفسه فيه مع الكثير ممن حوله واستند فى التمسك به الى تقليد من سلفه فهذا الصنف هو الذى قال الله فيه ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون . بعض هذا الصنف بل الغالب من أفراده يقول للداعى الى الحق أو يحدث نفسه ليلهيها عن فهمه الام يدعونا ألى الله فنحن نعتقد به ألى توحيده فنحن نوحده وغاية ماقى الأمر نتخذ شفعاء اليه نسأله بحقهم عنده أو بمكانتهم لديه ألى عبادته فنحن نركع ونسجد له وغاية ما عندنا زيادة على ذلك أننا نعظم أولياءه وأهل الشفاعة عنده ونتوسل اليهم ليتوسلوا اليه . هذه وساوسهم وهذه أمانيهم فأراد الله سبحانه أن يقطع العلاقة بينهم وبين ما عليه الداعى الى الحق صلى الله عليه وسلم بأصرح ما يمكن أن يصرح به فقال له (قل ياأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) أى ان الاله الذى تزعمون أنكم تعبدونه ليس هو الذى أعبده لانكم انما تعبدون ذلك الذى يتخذ الشفعاء أو الولد أو الذى يظهر فى شخص أو يتجلى فى صورة معينة أو نحو ذلك مما تزعمون وانما أعبد الهاً منزهاً عن جميع ما تصفون به الهكم (ولا أنتم عابدون ما أعبد) اى أنكم لستم بعابدين الهى الذى أدعو اليه كما تزعمون فانكم زعمتم أن الذى تعبدونه يتقرب اليه بتعظيم الوسائط لديه فتوسلتم بها اليه وتعتقدون أنه يقبل

وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۝ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ

توسطها عنده فهذا الذى تعبدونه ليس الذى أعبد فلهذا لا تعبدون ما أعبد بل تعصونه وتخالفون أمره ثم لما كانوا يظنون أن عبادتهم التى يؤدونها أمام شفعائهم أو فى المعابد التى أقاموها لهم وبأسمائهم أو يؤدونها لله فى المعابد الخاصة به أو فى خلواتهم وهم على اعتقادهم بالشفعاء عبادة لله خالصة وأن النبى صلى الله عليه وسلم لا يفضلهم فى شىء نفى أن تكون عبادته مماثلة لعبادتهم وأن تكون عبادتهم مماثلة لعبادته فقال (ولا أنا عابد ما عبدتم) فما هذه مصدرية وليست بالموصولة مثل التى تقدمت أى ولا أنا بعابد عبادتكم (ولا انتم عابدون ما أعبد) أى ولا أنتم عابدون عبادتى فمفاد الجملتين الاوليين الاختلاف التام فى المعبود ومفاد الجملتين الاخريين تمام الاختلاف فى العبادة فلا معبودنا واحدولاعبادتنا واحدة لانمعبودىذلك الاله الواحد المنزه عنالند والشفيع المتعالى عن الظهور فى شخص معين أو المحاباة لشعب أو واحدبعينه الباسط فضله لكل من أخلصله الآخذقهره بناصية كل من نابذ المبلغين الصادقين عنه والذى تعبدونه علىخلاف ذلك وعبادتى مخلصة لله وحده وعبادتكم مشوبة بالشرك مصحوبة بالغفلة عنالله تعالى فلا تسمى على الحقيقة عبادة فأينهى من عبادتى (لكم دينكم) دينكم مختص بكم لا يتعداكم الى فلا تظنوا أنى عليه أو على شىء منه (ولى دين) أى دينى هو دين خاص بى وهو الذى ادعوا اليه ولامشاركة بينه وبين ماأنتم عليهولا يخفى أن هذا المعنى الذى بيناه هو ما يهدى اليه أسلوب السورة الشريفةخصوصاً هذه الآية الاخيرة «لكم دينكم ولى دين» فانها صريحة فى أن المراد نفى الخلط المزعوم ومادلت عليه السورة هومادلتعليه آيةانالذينفرقوا دينهم وكانوا شيعاً لستمنهم فى شىء أى لا علاقة بينك وبينهم لافى المعبودولافى العبادةوأما ما قيل من غير ذلك فان صح شىء مما ورد فيه فاحمله على معناه مستقلا عن معنى السورة ولا تغتر بكل ما يقال فأفضل ما تفهم هو أقرب ما يفهم واللهأعلم

سورة النصر مدنية وهي ثلاث آيات

الخطاب الذي يرد في كتاب الله مفرداً تارة يكون للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة كقوله « يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات ازواجك » وقد يكون لكل من يفهم الخطاب كقوله « أرأيت الذي ينهى عبداً اذا صلى أرأيت ان كان على الهدى أو أمر بالتقوى » وكقوله « أرأيت الذي يكذب بالدين » وقد يكون خطاباً له عليه السلام مقصوداً به نفسه الشريفة مع من معه من أصحابه والمخلصين من أمته ومن هذا الاخير ماجاء من الخطاب في سورة النصر . كان المؤمنون أيام قلتهم وفقرهم وكثرة عدد عدوهم وقوته واشتداده عليهم ومضايقته لهم يمر الضجر بنفوسهم ويأخذ الحزن منها مأخذه وكان صلى الله عليه وسلم يحزن ويضيق صدره لما يكذبه قومه والحق يسطع نوره وهم يعمون عنه حتى قال الله له « فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك انما أنت نذير والله على كل شيء وكيل (سورة هود) وقال له قد نعلم انه ليحزنك الذي يقولون فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » وقال بعد ذلك « وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت أن تبتغي نفقاً في الارض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين » وجاء في غير ذلك من آيات الكتاب ما يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا يضجرون ويقلقون لشدة ما كانوا يلقون ولا يخفى مافي القلق والضجر من استبطاء نصر الله للحق الذي بعث به نبيه بل فيه شيء من السهو عن وعد الله بتأييد دينه وليس ذلك من النقص الذي يعاب به صلى الله عليه وسلم فان كل مخلوق لا يعلم من غيب الله ما يعلم الله لا بد أن يمسه هذا الضجر ويصيبه هذا القلق وتأخذه الشدة بهذا النسيان حتى يكون الكمال لله وحده قال « وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله » ولكن الله جل شأنه قد يعده على أقرب المقربين اليه كما قالوا حسنات الابرار سيئات المقربين وقد يراه النبي صلى الله عليه وسلم اذا رجع الى نفسه وخرج من غمرة الشدة ذنباً يتوب الى الله ويستغفره منه ولهذا ورد له الامر الالهي بالاستغفار مما كان منه من حزن وضجر في اوقات الشدة ورد له ذلك الامر في صورة البشارة بقرب

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا

مجىء الفتح والنصر حيث قال (اذا جاء نصر الله والفتح) فعبر باذا المفيدة لتحقق وقوع ما يضاف اليه أى عند ماترى نصر الله لدينه الحق على الباطل ويفتح الله بينك وبين قومك فيجعل لك الغلبة عليهم ويضعف أمرهم فى التمسك بعقائدهم الباطلة (ورأيت الناس) عند ذلك (يدخلون فى دين الله) وهو دينك الذى جئتهم به لزوال ذلك الغطاء الذى كان يحول بينهم وبينه وهو غطاء قوة الباطل فيقبلون عليه (أفواجا) أى طوائف وجماعات لا آحادا كما كان ذلك فى بدء الامر أيام الشدة اذا حصل ذلك كله وهو لاريب حاصل (فسبح بحمد ربك) أى فنزه ربك عن أن يهمل الحق ويدعه للباطل يأكله وعن أن يخلف وعده فى تأييده وليكن هذا التنزيه بواسطة حمده والثناء عليه بأنه القادر الذى لا يغلبه غالب والحكيم الذى اذا أمهل الكافرين ليمتحن قلوب المؤمنين فلن يضيع أجر العاملين ولا يصلح عمل المفسدين والبصير بما فى قلوب المخلصين والمنافقين فلا يذهب عليه رياء المرائين (واستغفره) أى اسأله أن يغفر لك ولاصحابك ما كان من القلق والضجر والحزن لتأخر زمن النصر والفتح والاستغفار انما يكون بالتوبة الخالصة والتوبة من القلق انما تكون بتكميل الثقة بوعد الله وتغليب هذه الثقة على خواطر النفس التى تحدثها الشدائد وهو وان كان مما يشق على نفوس البشر ولكن الله علم ان نفس نبيه صلى الله عليه وسلم قد تبلغ ذلك الكمال فلذلك أمره به وكذلك تقاربه قلوب الكمل من أصحابه وأتباعه عليه السلام والله يتقبل ذلك منهم (انه كان توابا) أى انه سبحانه لا يزال يوصف بأنه كثير القبول للتوبة لانه رب يربى النفوس بالمحن فاذا وجدت الضعف أنهضها الى طلب القوة وشدد هممها بحسن الوعد ولا يزال بها

سورة أبي لهب مكية وهي خمس آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ

حتى تبلغ الكمال وهي في كل منزلة تتوب عن التي قبلها وهو سبحانه يقبل توبتها فهو التواب الرحيم وكأن الله يقول اذا حصل الفتح وتحقق النصر وأقبل الناس على الدين الحق فقد ارتفع الخوف وزال موجب الحزن فلم يبق الا تسبيح الله وشكره والنزوع اليه عما كان من خواطر النفس فلن تعود الشدة تأخذ نفوس المخلصين ماداموا على تلك الكثرة في ذلك الاخلاص ومن هذا أخذ النبي صلى الله عليه وسلم أن الامر قد تم ولم يبق له الا ان يسير الى ربه فقال فيما روى عنه انه قد نعيت اليه نفسه والله أعلم

(أبو لهب) هو عبد العزى بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم كان من أشد الناس عداوة له وصح في الخبر انه لما نزل قوله تعالى وأنذر عشيرتك الاقربين صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا ونادى بطون قريش فاجتمع من جميع القبائل خلق كثير حتى جعل الرجل اذا لم يذهب يرسل رسولا لينظر ما الخبر وكان في المجتمعين أبو لهب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي قالوا نعم ما جربنا عليك الا صدقا قال فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبو لهب « تبا لك سائر الايام ألهذا جمعتنا » وكان أبو لهب يتبع النبي صلى الله عليه وسلم في بعض غدواته الى القبائل يدعوها الى الله فاذا قال رسول الله « انى رسول الله اليكم » يكذبه عمه وينهى الناس عن تصديقه وكانت امرأته أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان وعمة معوية رضى الله عنه تسعى عند القوم بالنميمة على رسول الله صلى الله عليه وسلم لتفسد عليه قلوب القوم والعشيرة والساعي بالنميمة يلقب بحامل الحطب كما قال الراجز

مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ

ان بنى الادرم حمالو الحطب * هم الوشاة فى الرضاء والغضب

وفى كلامهم كثير من الشواهد على ذلك ولقب عبد العزى بأبى لهب لتلهب وجنتيه واشراقهما كما زعموا وقد أنزل الله فيه وفى زوجته هذه السورة ليكون مثلا يعتبر به من يعادى ما أنزل الله على نبيه مطاوعة لهواه وايثاراً لما ألفه من العقائد والعوائد والاعمال واغتراراً بما عنده من الاموال وبماله من الصولة أو من المنزلة فى قلوب الرجال قال تعالى (تبت يدا أبى لهب وتب) تبت يدا فلان أى خسر أو هلك والجملة الاولى « تبت يدا أبى لهب » دعاء عليه بأن يخسر أو يهلك ولما كانت اليد هى آلة العمل والبطش فاذا هلكت وانقطعت أو خسرت كان الشخص كأنه معدوم هالك عد العرب خسرانها كناية عن خسران الشخص نفسه وهلاكها كناية عن هلاكه فاذا دعى عليه بخسران يديه فقد دعى عليه بخسرانه ولذلك قال بعد الجملة الدعائية « وتب » أى وهلك أو خسر هو أى أبو لهب أى أن مادعى به عليه لم يكن لمجرد نكايته واظهار مقته وشدة الغضب عليه كما جرت به سنة العرب فى كلامهم بل هذا دعاء فيه ما تعرفه العرب وفيه مع ذلك أنه بامر واقع فان أبا لهب قد هلك أو خسر بالفعل والواو فى قوله وتب للاستئناف أى وهو قد تب

ثم استأنف الكلام بغير حرف لبيان أن ما كان يتعزز به من المال والجاه لم يكن مما يفديه ويخلصه من الخسران فقال (ما أغنى عنه ماله وما كسب) أى لم يفده ماله ولا عمله الذى كان يأتيه فى معاداة النبى صلى الله عليه وسلم طلباً للعلو والظهور (سيصلى ناراً ذات لهب) لهب النار هو مايسطع منها عند اشتعالها وتوقدها أراد بوصفها هذا أنها نار شديدة الحرارة والمراد من هذه النار نار الآخرة التى لا يعلم حقيقتها الا الله وسيعذب فيها أبو لهب جزاء ما كان يأتيه من العناد والمجاحدة وسيصلاها معه امرأته أم جميل كما قال الله (وامرأته حمالة الحطب) فامرأته معطوفة على ضمير أبى لهب وحمالة الحطب نصب على فعل محذوف قصد به التخصيص بالذم أى وامرأته تلك النمامة الواشية التى تؤجج النار بين الناس بنميمتها

فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ

كأنها تحمل الحطب لتحرق ما بينهم من الصلات ولزيادة التبشيع فى التصوير قال (فى جيدها حبل من مسد) أى فى عنقها حبل من الليف أى أنها فى تكليف نفسها المشقة الفادحة للافساد بين الناس وتأريث نيران العداوة بينهم بمنزلة حامل الحطب الذى فى عنقه حبل خشن يشد به ما حمله الى عنقه حتى يستقل به وهذه أشنع صورة تظهر امراة تحمل الحطب وفى عنقها حبل من الليف تشد به الحطب الى كاهلها حتى تكاد تختنق به . وقد علمت مما اشرنا اليه سابقا أن الله لم يعن بسب أبى لهب بلقبه المعروف به عند قومه لمجرد عداوته للنبى صلى الله عليه وسلم ولو كان كذلك لذكر الكتاب مثل عقبة بن أبى معيط والعاص بن وائل وغيرهم من أكابر أعدائه ممن كنى عنهم أحيانا بأوصافهم ولم يذكرهم وانما خص أبا لهب بالذكر لانه قد اشتهر بالتكذيب وتأثر النبى فى حركاته ليحبط مساعيه ويصد الناس عن الاقبال عليه فكانه بذلك صار ممثلا للصاد عن الحق المنفر للناس من فهم ما أنزل الله على نبيه المحول لهم عن الاصغاء الى الكلم الطيب وتناول ما ضمنته من الهدى والدلالة على نهج النجاة

فما تضمنه الدعاء من النكاية وما جاء به الوعيد من سوء العاقبة يلاقى كل محول للناس عن تدبر كتاب الله وفهم ماجاء فيه من عبر واحكام لجميع أولئك الذين يقولون لك أنك مهما بلغت من العلم لا يمكنك أن تعرف عن الله من كتابه ولا من كلام نبيه شيأ من الاحكام والعقائد ولا يجوز لك أن تستند فى تقرير حكم الى آيات الكتاب ولا الى الصحيح من السنة وانما الواجب عليك أن ترجع الى قول فلان ورأى فلان وان وصلت من معرفة لغة الكتاب والسنة الى أعلى غاية أولئك هم آباء لهب لا تغنى عنهم أموالهم ولا أعمالهم شيأ وسيصلون ما يصلى وكل امرأة تنم بين الناس لتفرق كلمتهم وتذهب بهم مذاهب السوء فهى ممثلة فى هذا المثال نازل بها ذلك النكال نسأل الله العافية ونحمده على هدايته الواقية

سورة التوحيد مكية وهي خمس آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ

(سورة الاخلاص) وهي سورة قل هو الله أحد تشتمل على أهم الاركان التي قامت عليها رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وهي ثلاثة الاول توحيد الله وتنزيهه والثاني تقرير الحدود العامة للاعمال ببيان الصالحات ومايقابلها وذلك هو الشريعة والثالث أحوال النفس بعد الموت من البعث وملاقاة الجزاء من ثواب وعقاب وأول هذه الاركان هو التوحيد والتنزيه لاخراج العرب وغيرهم من الشرك والتشبيه وهو ركن الاركان وأول مأمور به من أصول الايمان فيصح أن يكون الامر بتبليغ مافي هذه السورة صادراً من الحق جل شأنه تحقيقاً لامر رسالته صلى الله عليه وسلم ولارشاد الناس الى مايجب أن يعتقدوه في جانب الله ولا حاجة الى أن يسأل بعض العرب النبي صلى الله عليه وسلم ماهو نسب الله حتى تنزل السورة جواباً لهذا السؤال وانما حاجة القوم بل العالم الانساني كانت ماسة الى بعثة النبي صلى الله عليه وسلم لدعوة المشركين من العرب وأهل الكتاب في سورة واحدة وتعريفهم بالله في أوجز عبارة وأجزلها ولما بينا لا يستغرب ماورد في الخبر من أنها تعدل ثلث القرآن لان من عرف معناها حق المعرفة وأدرك ماأشارت اليه ادراك صاحب البصيرة المستنيرة لم يكن بقية ماجاء في التوحيد والتنزيه عنده الا تفصيلا لما علم وشرحا لما حصل (قل هو) أى الخبر الحق المؤيد بالبرهان الذى لا ارتاب فيه وهو مايعبر عنه النحويون بالقصة أو الحديث (الله أحد) الاحد هو الواحد الذى لا كثرة في ذاته فهو ليس بمركب من جواهر مختلفة فليس بمادى ولا هو من أصول متعددة غير مادية كما يزعم بعض أرباب الاديان من انه أصلان فاعلان أو أنه ثلاثة أصول تعتبر واحداً وهي متعددة سواء عقل ذلك أم لم يعقل فان الله برىء منه لان العقلاء أجمعت على أن موجد العالم وهو الله واجب الوجود ووجوب الوجود يستلزم بداهة

اللَّهُ الصَّمَدُ

العقل وحدة الذات لان التعدد فى الذات مستلزم لافتقار المجموع الى الاجزاء فلا يكون المجموع المسمى بالله أو موجد العالم واجب الوجود وكذلك الافراد نفسها لايكون كل واحد واجب الوجود لانه يختلف عن الآخر بمميزه وذلك المميز غير مايشتركان فيه من الوجود فيكون كل منهما مركبا والمركب غير واجب كما ذكرنا فلم يبق الا أن يكون واجب الوجود واحدا فالله أحد ثم ان جميع مايصل اليه عقلنا وحواسنا من هذا العالم يدخل فى نظام واحد يرتبط بعضه ببعض تمام الارتباط وهو يدل على أن موجده واحد وتعدد الاصول فيه من مخترعات الاوهام فيجب أن يخلص العقل منها. ونكر الخبر لان المقصود أن يخبر عن الله بانه واحد لابانه لا واحد سواه فان الوحدة تكون لكل واحد تقول لا أحد فى الدار بمعنى لا واحد من الناس فيها والذى كان يزعمه المخاطبون هو التعدد فى ذاته فاراد نفى ذلك بانه أحد وهو تقرير لخلاف مايعتقد به أهل الاصلين من المجوس وما يعتقده القائلون بالثلاثة منهم ومن غيرهم (الله الصمد) الصمد هو السيد الذى يصمد اليه ويقصد فى الحوائج قال الشاعر

لقد بكر الناعى بخير بنى أسد بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

وهذه القضية « اللهالصمد » من الكلمات الجامعة التى تملأ النفس مما قصد بها بدون جهد ولا تعب لان تعريف الصمد مع العلم بان لفظ الجلالة معرفة صير الجملة معرفة الطرفين وهى تفيد الحصر كما تقول زيد العالم اذا كان مخاطبك يعتقد أن غيره يشاركه فى العلم فتدفع ظنه بذلك تريد أنه لاعالم سواه فهذه الآية تقول لك ان حاجة ما فى الوجود لاتتوجه الى غيره وان محتاجا لايجوز له أن يتوجه فى طلب حاجته الى سواه فقد أفادتنا أن جميع المسببات تنتهى اليه وجميع مايسرى فيها من الوجود فهو من ايجاده وان صاحب الاختيار كالانسان اذا أراد أن يحصل مسببا من سبب فعليه أن يبحث عن طريقة ارتباطه به على حسب ما أمره الله بالبحث والنظر والتدبر فى مخلوقاته ليعلم كيف يسرى الوجود الموهوب من واجب الوجود من الاسباب الى المسببات ثم يذهب بها حتى يسندها الى مبدئها وهو الامر الالهى هذا فيما يظهر فيه السبب والمسبب ويظهر فيه أثر الكسب وعمل

لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ

الارادة والقوى الممنوحة البشرية أماماهو وراء ذلك مما لادخل للارادة فيه فعلى صاحب الحاجة أن لا يتوجه فى المعونة عليها بعد الأخذ بالاسباب الا الى الله وحده فهو المستأثر بالعمل فيما وراء ماجعل لك فيه عملا وقوله الصمد يشعر بانه الذى ينتهى اليه الطلب مباشرة بدون واسطة ولا شفيع وهو فى ذلك يدعو الى مايخالف عقيدة مشركى العرب الذين يعتقدون بالوسائط والشفعاء وكثير من أهل الاديان الأخر يعتقدون بان لرؤسائهم منزلة عند الله ينالون بها التوسط لغيرهم فى نيل مبتغياتهم فيلجؤن اليهم أحياء أو أمواتا ويقومون بين أيديهم أوعند قبورهم خاشعين خاضعين كما يخشعون لله بل أشد خشية ثم هو الصمد فى تحديد الحدود العامة للاعمال ووضع أصول الشرائع فلا بد أن يرد الى ما أنزل جميع ما يقع الاختلاف فيه وليس من المباح أن يرجع الى قول غيره متى نطق صريح كتابه بخلافه وعلى الناس كافة أن يرجعوا الى الكتاب فاذا لم يكونوا عارفين به رجعوا الى العارف وطالبوه بالدليل منه وعليهم أن يهتموا بان يعرفوا منه أصول ما يعتقدون وما يعملون فان لم يفعلوا اختلفت الآراء وحجبت المذاهب كتاب الله فدرس معناه وذهبت الحكمة من انزاله عبثا لتعلق الناس بقول غير المعصوم وعماهم عن هدى المعصوم فكانوا بمنزلة من لم تأتهم رسالة وانما يعملون بما يقول لهم زعماؤهم الذين لايجدون دليلا على امتيازهم بالزعامة فيكونون مستمسكين بما لم ينزل به الله سلطانا فيسقطون فى مهاوى الشقاء الدنيوى والاخروى (لم يلد ولم يولد) ينزه الله عن أن يلد أحداً ويشير الى فساد رأى القائلين بأن له ابنا أو بنات وهم مشركو العرب والهند والنصارى وغيرهم ويبين لهم أن الأبنية تستلزم الولادة والتعبير بالانبثاق ونحوه لايغير المعنى والولادة انما تكون من الحى الذى له مزاج وماله مزاج فهو مركب ونهايته الى انحلال وفناء وهو جل شأنه منزه عن ذلك وقوله لم يولد يصرح ببطلان مايزعمه بعض أرباب الاديان من أن ابنا لله يكون الها ويعبد عبادة الاله ويقصد فيما يقصد فيه الاله بل لايستحى الغالون منهم أن يعبروا عن والدته « بام الله القادرة » فان المولود حادث ولا يكون الا بمزاج وهو لا يسلم من عاقبة الفناء ودعوى انه أزلى مع أبيه مما لايمكن تعقله ولاتغير من حقيقة الامر شيأ فاذا أراد أحد من

وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ

سورة الفلق مكية وهى خمس آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ

هؤلاء أن يدعى التنزيه فما عليه الا أن يقلع عن هذه الالفاظ والنسب ويقول كما تقول الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد (ولم يكن له كفوا أحد) الكفؤ معناه المكافىء والمماثل فى العمل والقدرة وهو نفى لما يعتقده بعض المبطلين من أن لله نداً فى أفعاله يعاكسه فى أعماله على نحو ما يعتقد بعض الوثنيين فى الشيطان مثلا فقد نفى بهذه السورة جميع أنواع الاشراك وقرر جميع اصول التوحيد والتنزيه وأصل تركيب الآية ولم يكن أحد كفؤا له ولكن قدم المجرور لان الحديث عن الله وأشد الاهتمام انما هو بتنزيهه فقدم ضميره مع الجار فى حيز الكون المنفى ثم قدم المنفى نفسه وهو الكفؤ لان العناية موجهة الى نفيه وأخر من سلبت عنه المكافأة لانه لم يؤت به فى الكلام الا لقصد تعميم النفى فقطوالا فقد كان يكفى أن يقال وليس له كفؤ لكن العبارة على ما فى الآية أبين وأجمل والله أعلم وقد قال الله فى تفصيل ما أجملته هذه السورة « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيأ ادا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا وماينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ان كل من فى السموات والارض الا آت الرحمن عبدا لقد احصاهم وعدهم عدا وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً » وقال « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » وقال «وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون سبحان الله عما يصفون »

(الفلق) قيل هو الصبح وربه هو الله الذى وضع نظام الكواكب على أن يكون فى الارض ليل يغمر الارض بظلمته ثم يكون صبح فيفلق هذا الظلام ويفرج

مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ

كربه عن الانام وقال جمع من المفسرين ان الفلق هو الموجود الممكن كله وربه هو خالقه الذى شق ظلمة العدم عنه ومن كان رب الوجود كله أو رب الصبح ولا يمكن أن يأتى بالصبح سواه فهو جدير أن يتعوذ به ويلجأ اليه وحده دون سواه (من شر ماخلق) أى من كل شر وأذى يصيبك من أى شيء خلقه . ان الله خلق الخلق لما لا نعلمه من الحكمة وقد يقفنا على حكمته فى بعض خلقه وقد خلق كل مخلوق ليصيب من الوجود الحظ الذى قدره له ووهبه كل مايتم به ذلك الحظ المقدر فكل مخلوق فهو خير فى نفسه لانه أخذ مكانه من الوجود وهو الحق الذى لا يمكن أن يزحزح عنه وانما الشرور التى تعرض أمور نسبية فما هو شر بالنسبة اليك خير لكائن آخر كالسبع فتألم وتموت ويحزن لك الاقارب والاصدقاء ويحرم سعيك الاولاد والفقراء فكل ذلك أذى وشر بالنسبة اليك واليهم ولكنه خير بالنسبة الى السبع وتكميل لحظه ولهذا أضاف الشر الى ماخلق لان الشر انما يأتى بمراعاة تلك الاضافة أما أفعال الله فى نفسها فكل منها خير فى نفسه كما بينا وهذا هو الذى يصح الاستعاذة بالله منه والاستعانة به على أن يخلصك من أذاه فأنت تلجأ الى الله أن يقيك الوقوع فى نسبة مع مخلوق آخر يصيبك أذى فى تلك النسبة كأن لا يخلى بينك وبين الاسد أولا يدعه ينتبه اليك أو يقدرك على دفعه وهكذا ثم خصص بعض ماخلق لكثرة مايقع الشر فيه مع غلبة الضعف عن دفعه فقال (ومن شر غاسق اذا وقب) أصل المعنى فى مادة غسق السيلان والانصباب وأصل الوقب النقرة فى الجبل ونحوه ووقب بمعنى دخل دخولا لم يترك شيئاً الا مربه والمراد من الغاسق هنا الليل ووقب أى دخل وغمر كل شيء كأنما انصب عليه واشتدت ظلمته فانه فى هذه الحالة مخوف موضع لان يدهمك وأنت لا تدرى كيف تخلص منه فان كنت بصدد سفر ضللت الطريق ولا تدرى كيف تهتدى وان كنت فى خصام مع عدو فقد يكون الظلام أشد أعوانه عليك ولا حاجة لتعديد مافى الظلام من أطوار الشر فذلك مما لا يكاد يخفى على أحد من البشر فكان جديراً أن يخص بالاستعاذة من شره بربه سبحانه فهو القادر على الكفاية منه ثم خص مخلوقات أخر

وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ

لظهور ضررها وعسر الاحتياط منه فلا بد من الفزع الى الله والاستنجاد بقدرته الشاملة على دفع شرها فقال (ومن شر النفاثات فى العقد) العقد ماتعرفه فى الخيط والحبل جمع عقدة ثم تستعمل العقدة فى كل ماربط وأحكم ربطه ولذلك سمى الله الارتباط الشرعى بين الزوجين عقدة النكاح وسمى الايجاب والقبول فى البيع ونحوه عقداً ونسميه عقدة أيضاً . والنفث النفخ الخفيف أو النفخ مع شىء من الريق والنفاثة من صيغ المبالغة كالعلامة والفهامة يستعمل كذلك للذكر والانثى والنفاثات جمعه والمراد بهم هنا النمامون المقطعون لروابط الالفة المحرقون لها بما يلقون عليها من ضرام نمائمهم وانما جاءت العبارة كما فى الآية لان الله جل شأنه أراد أن يشبههم بأولئك السحرة المشعوذين الذين اذا أرادوا أن يحلوا عقدة المحبة بين المرء وزوجه مثلا فيما يوهمون به العامة عقدوا عقدة ثم نفثوا فيها وحلوها ليكون ذلك حلا للعقدة التى بين الزوجين والنميمة تشبه أن تكون ضرباً من السحر لانها تحول مابين الصديقين من محبة الى عداوة بوسيلة خفية كاذبة والنميمة تضلل وجدان الصديقين كما يضلل الليل من يسير فيه بظلمته ولهذا ذكرها عقب ذكر الغاسق اذا وقب ولا يسهل على أحد أن يحتاط للتحفظ من النمام فانه يذكر عنك مايذكر لصاحبك وأنت لا تعلم ماذا يقول ولاما يمكن أن يقول واذا جاءك فربما دخل عليك بما يشبه الصدق حتى لايكاد يمكنك تكذيبه فلا بد لك من قوة أعظم من قوتك تستعين بها عليه وهى قوة الله . وقد رووا ههنا أحاديث فى أن النبى صلى الله عليه وسلم سحره لبيد بن الاعصم وأثر سحره فيه حتى كان يخيل له أنه يفعل الشىء وهو لا يفعله أو يأتى شيأ وهو لايأتيه وان الله أنبأه بذلك وأخرجت مواد السحر من بئر وعوفى صلى الله عليه وسلم مما كان نزل به من ذلك ونزلت هذه السورة

ولا يخفى أن تأثير السحر فى نفسه عليه السلام حتى يصل به الامر الى أن يظن أنه يفعل شيأ وهو لا يفعله ليس من قبيل تأثير الامراض فى الابدان ولا من قبيل عروض السهو والنسيان فى بعض الامور العادية بل هو ماس بالعقل آخذ بالروح

وهو مما يصدق قول المشركين فيه (ان تتبعون الا رجلا مسحورا) وليس المسحور عندهم الا من خولط فى عقله وخيل له أن شيأ يقع وهو لا يقع فيخيل اليه أنه يوحى اليه ولا يوحى اليه وقد قال كثير من المقلدين الذين لا يعقلون ماهى النبوة ولا ما يجب لها أن الخبر بتأثير السحر فى النفس الشريفه قد صح فيلزم الاعتقاد به وعدم التصديق به من بدع المبتدعين لانه ضرب من انكار السحر وقد جاء القرآن بصحة السحر . فانظر كيف ينقلب الدين الصحيح والحق الصريح فى نظر المقلد بدعة نعوذ بالله يحتج بالقرآن على ثبوت السحر ويعرض عن القرآن فى نفيه السحر عنه صلى الله عليه وسلم وعده من افتراء المشركين عليه ويؤول فى هذه ولا يؤول فى تلك مع أن الذى قصده المشركون ظاهر لانهم كانوا يقولون ان الشيطان يلابسه عليه السلام وملابسة الشيطان تعرف بالسحر عندهم وضرب من ضروبه وهو بعينه أثر السحر الذى نسب الى لبيد فانه قد خالط عقله وادراكه فى زعمهم .

والذى يجب اعتقاده أن القرآن مقطوع به وأنه كتاب الله بالتواتر عن المعصوم صلى الله عليه وسلم فهو الذى يجب الاعتقاد بما يثبته وعدم الاعتقاد بما ينفيه وقد جاء بنفى السحر عنه عليه السلام حيث نسب القول باثبات حصول السحر له الى المشركين أعدائه ووبخهم على زعمهم هذا فاذن هو ليس بمسحور قطعاً وأما الحديث فعلى فرض صحته هو آحاد والآحاد لا يؤخذ بها فى باب العقائد وعصمة النبى من تأثير السحر فى عقله عقيدة من العقائد لا يؤخذ فى نفيها عنه الا باليقين ولا يجوز أن يؤخذ فيها بالظن والمظنون على أن الحديث الذى يصل الينا من طريق الآحاد انما يحصل الظن عند من صح عنده أما من قامت له الادلة على انه غير صحيح فلا تقوم به عليه حجة وعلى أى حال فلنا بل علينا أن نفوض الامر فى الحديث ولا نحكمه فى عقيدتنا ونأخذ بنص الكتاب وبدليل العقل فانه اذا خولط النبى فى عقله كما زعموا جاز عليه أن يظن أنه بلغ شيأ وهو لم يبلغه أو أن شيأ نزل عليه وهو لم ينزل عليه والامر ظاهر لا يحتاج الى بيان ثم ان نفى السحر عنه لا يستلزم نفى السحر مطلقاً فربما جاز أن يصيب السحر غيره بالجنون نفسه ولكن من المحال أن يصيبه لان الله عصمه منه ما أضر المحب الجاهل وما أشد خطره على من يظن أنه يحبه نعوذ بالله من الخذلان على أن نافى السحر بالمرة لا يجوز أن يعد مبتدعاً لان الله تعالى ذكر ما يعتقد به المؤمنون فى قوله آمن الرسول الآية وفى غيرها من الآيات

وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ

ووردت الأوامر بما يجب على المسلم أن يؤمن به حتى يكون مسلماً ولم يأت فى شىء
من ذلك ذكر السحر على أنه مما يجب الايمان بثبوته أو وقوعه على الوجه الذى
يعتقد به الوثنيون فى كل ملة بل الذى ورد فى الصحيح هو أن تعلم السحر كفر فقد
طلب منا أن لا ننظر بالمرة فيما يعرف عند الناس بالسحر ويسمى باسمه وجاء ذكر
السحر فى القرآن فى مواضع مختلفة وليس من الواجب أن تفهم منه مايفهم
هؤلاء العميان فان السحر فى اللغة معناه صرف الشىء عن حقيقته قال الفراء فى
قوله تعالى « فأنى تسحرون » أى أنى تؤفكون وتصرفون سحره وافكه بمعنى واحد
وما ذا علينا لو فهمنا من السحر الذى يفرق بين المرء وزوجه تلك الطرق الخبيثة
الدقيقة التى تصرف الزوج عن زوجته والزوجة عن زوجها وهل يبعد أن يكون
مثل هذه الطرق مما يتعلم وتطلب له الاساتذة ونحن نرى أن كتباً ألفت ودروساً
تلقى لتعليم أساليب التفريق بين الناس لمن يريد أن يكون من عمال السياسة
فى بعض الحكومات وقد يكون ذكر المرء وزوجه من قبيل التمثيل واظهار الامر
فى أقبح صورة أى بلغ من أمر مايتعلمونه من ضروب الحيل وطرق الافساد أن
يتمكنوا به من التفريق بين المرء وزوجه وسياق الآية لايأباه وذكر الشياطين
لايمنعنا من ذلك بعد أن سمى الله خبثاء الانس المنافقين بالشياطين قال «واذا خلوا الى
شياطينهم» وقال « شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض » وسحر
سحرة فرعون كان ضربا من الحيلة ولذلك قال «يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى»
وما قال أنها تسعى بسحرهم قال يونس تقول العرب ماسحرك عن وجه كذا أى
ماصرفك عنه ولو كان هؤلاء يقدرون الكتاب قدره ويعرفون من اللغة مايكفى
لعاقل أن يتكلم ماهذروا هذا الهذر ولا وصموا الاسلام بهذه الوصمة وكيف يصح
أن تكون هذه السورة نزلت فى سحر النبى صلى الله عليه وسلم مع أنها مكية فى قول
عطاء والحسن وجابر وفى رواية ابن كريب عن ابن عباس وما يزعمونه من السحر
انما وقع فى المدينة لكن من تعود القول بالمحال لايمكن الكلام معه بحال نعوذ
بالله من الخبال (ومن شر حاسد اذا حسد) الحاسد الذى يتمنى زوال نعمة محسوده
ولا يرضى أن تتجدد له نعمة وهو اذا حسد أى أنفذ حسده وحققه بالسعى والجد

سورة الناس مكية وهى ست آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ مَلِكِ النَّاسِ ۝ إِلَٰهِ النَّاسِ

فى ازالة نعمة من يحسده من أشد خلق الله أذى ومن أخفاهم حيلة وأدقهم وسيلة وليس فى طاقة محسوده ارضاؤه بوجه من الوجوه ولا فى استطاعته الوقوف على مايدبره من المكايد فلا ملجأ منه الا الى الله وحده فهو القادر على كف أذاه واحباط سعيه وقانا الله شر الحاسدين وكف عنا كيد الكائدين والله أعلم

هذه السورة مكية كالسورة التى قبلها فى قول من ذكرنا ولا علاقة لها بسحر ولا بما هو من ناحيته وانما هى أمر الهى بالاستعاذة بالله والالتجاء اليه والاستعانة به على دفع شر عظيم يشبه الشرور التى ذكرت فى الآية المتقدمة ولكنه شر قد يسهو عنه الناس فلا يبالون به لأنه يأتيهم من ناحية شهواتهم وتلتبس به قواهم من حيث لايشعرون فيقعون به فى سيئات الاعمال وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ولما كان من الخفاء بحيث تضعف قوة الانسان عن دفعه بسهولة احتاج الى الاستعانة عليه بالله واللياذ بجواره منه وذلك الشر هو شر الوسواس قال (قل أعوذ برب الناس) أى ألجأ اليه وأستعين به ورب الناس الذى يربيهم بالنعم ويؤدبهم بالنقم (ملك الناس) الذى يحكمهم ويضبط أعمالهم ويدبر قواهم ويضع لهم الشرائع ويحدد لهم الحدود العامة التى لايباح لهم الخروج عنها (اله الناس) المستولى على قلوبهم بعظمته فلا يحيطون بكنه سلطته وانما يخشعون لما يحيط بنواحى قلوبهم ولا يدرون من أى جانب يأتيهم فهو معبودهم الحق وملاذهم اذا ضاق بهم الامر وانما خص هذه الصفات صفات الالوهية بالاضافة الى الناس مع أن الله رب كل شىء وملك كل شىء واله كل شىء لان الناس هم الذين وهموا فى صفاته وضلوا فيها عن حقيقة معانيها فجعلوا لهم أربابا ينسبون اليهم بعض النعم أو كلها ويلجؤن اليهم فى استدرارها ولقبوهم بالشفعاء وهم الذين تخيلوا لهم ملوكا روحانيين

مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ

يظنون أنهم هم الذين يدبرون حركاتهم وهم الذين يرسمون لهم حدود أعمالهم بما يؤثرون عنهم من أقوالهم فيعرضون عن كتاب الله الى كتبهم وربما ضيعوا الكتب الالهية فمحى أثرها اكتفاء بما يبقى فى أيديهم من مبتدعات اولئك الرؤساء ثم أنهم لذلك يجدون فى أنفسهم خشية لرؤسائهم هؤلاء ويخيلون لهم منها سلطة روحية فيخنعون لهم خنوعهم للسلطان الالهي ولذلك عدوا آلهة لهم سواء لقبوهم بهذا اللقب أم لم يلقبوهم به فالناس هم الذين اخترعوا بأوهامهم هؤلاء الارباب والملوك والالهة فلذلك خصهم بالذكر أما مايقال عن الجن من أنهم فعلوا مثل الناس فذلك مما لايظهر للناس ولهذا لم يعتبرهم وانما كرر ذكر الناس باللفظ الظاهر دون الضمير لتقرير الامر فضل تقرير لشدة تعلق الجمهور الاعظم من الناس بخيالاتهم وتمسكهم بأوهامهم وظنهم أنهم لكونهم ناساً اى بشراً عقلاء متفكرين قد وصلوا فيما تعلقوا به الى ماهو الصحيح المنطبق على الواقع فأراد أن ينبه بذكر اللفظ الدال عليهم بجانب كل صفة الى أن الله هو ربهم وهم أناس متفكرون وملكهم وهم كذلك والههم وهم كذلك وباطل ما اخترعوا لانفسهم بعقولهم من حيث هم بشر فاذا لم يكن للانسان رب ولا ملك ولا اله الا الله فاستعذ به وحده (من شر الوسواس) أصل الوسوسة الصوت الخفى وقد قيل لاصوات الحلى عند الحركة وسوسة والوسواس ههنا صفة كالثرثار أو اسم مصدر استعمل استعمال الصفة والمراد منه الذى يلقى الحديث فى النفس حديث السوء (الخناس) من خنس اذا رجع وهذه الاحاديث النفسية اذا سلط عليها نظر العقل فى العواقب خفيت واضمحلت وسكن الموسوس عن القائها وحديث النفس بالفواحش وضروب الاذى بالناس اذا ذكر دين الله وأحضرت النفس مثال شرعه ذهب ذلك الحديث هباء وخنس الموسوس وكذلك اذا وسوس لك أحد من الناس وبعثك على فعل سوء وذكرت ذلك وذكرته به رأيته يخنس ويمسك عن القول الى أن يجد فرصة أخرى فالموسوس بالشر كثير الخنوس لانه من ناحية الباطل لامكنة له على مقاومة الحق اذا صدمه ولكنه يذهب بالنفس الى أسوأ المصاير اذا انجرت مع الوسوسة وانساقت بها الى تحقيق الخاطر بالفعل وانما ذكر الله لنا هذا الوصف (الخناس) لينبهنا الى

الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝

مكان الموسوس من الضعف لنلتمس السبيل الى دفعه مع الاستعانة بالله عليه وليدلنا على أن ما أصاب الناس من قبله انما كان من ضعف عزائمهم وعشا بصائرهم ولو استعملوا قواهم فيما جعلها الله له مانجح الوسواس فى نفوسهم ولاجرهم الى سوء مصيرهم وقد وصف الله الوسواس الخناس بقوله (الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس) من الجنة والناس بيان للذى يوسوس أو بيان للوسواس الخناس فالموسوسون قسمان قسم الجنة وهم الخلق المستترون الذين لا نعرفهم وانما نجد فى أنفسنا أثرا ينسب اليهم ولكل واحد من الناس شيطان وهى قوة نازعة الى الشر يحدث منها فى نفسه خواطر السوء وانما جعل الوسوسة فى الصدور على ماعهد فى كلام العرب من أن الخواطر فى القلب والقلب مما حواه الصدر عندهم وكثيراً مايقال أن الشك يحوك فى صدره وما الشك الا فى نفسه وعقله وأفاعيل العقل فى المخ وان كان يظهر لها أثر فى حركات الدم وضربات القلب وضيق الصدر أو انبساطه وكل ما أوردوه فى خرطوم الشيطان وخطمه ومنقاره وجثومه على الصدر أو القلب ونحو ذلك فهو من التمثيل والتصوير والا فليجعلوا مثل ذلك للقسم الثانى من الوسواس أو الموسوسين وهم الناس فان الله نسب الوسوسة اليهم على السواء فقال من الجنة والناس فليكن للناس الذين يوسوسون فى صدور الناس خرطوم وخطم ومنقار يدخل فى الصدور ويوضع على أذن القلب فاذا ذكر الله خنس الخرطوم كما ذكروه فى الجنة ولكنهم يكثرون الوصف ويخترعون ما يشاؤن بأوهامهم فيما لا يراه الناس وان كانوا لا يعقلونه ويجترئون على الغيب فيذكرون من شؤنه مااستأثر الله بعلمه ثم لا يكفيهم ذلك حتى يخترعوا من الاحاديث ما يسند أوهامهم وينسبون الى السلف ما يظنون أنه يقوى مزاعمهم والله يشهد أن النبى صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح برآء مما ينسب اليهم من ذلك كله وانما هو من اختراع من لم يرض لنفسه أن يقترف جريمة واحدة جريمة الجرأة على الغيب بوهمه حتى يضم الى ذلك جريمة الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلف الامة أولئك الذين اذا انجر القول بهم الى مايعرفه الناس ويمكنهم أن يكذبوهم

فيه سكتوا سكوت البكم ولجؤا الى سلاحهم الذى يشرعونه فى وجوه الجبناء وقالوا هكذا مذهب أهل السنة كأن السنة عندهم مذهب جسمانى محض لاشائبة من الروحانية فيه وافتروا على أهل السنة وهم السلف مالا يعرفونه وماذا عليهم لو أخذوا السنة والكتاب ونظروا الى الدين جملة وفسروا بعض نصوصه ببعض كما هو الواجب على المسلم الذى يؤمن بالكتاب كله وليس من الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض نعوذ بالله من الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس والله أعلم

قال مؤلفه الامام حفظه الله فرغ منه منتصف الساعة السادسة بعد الظهر من يوم الاحد ٢٣ اغسطس سنة ١٩٠٣ فى مدينة جنيف من بلاد سويسرا

فهرست تفسير جزء عم

﴿ تمت ﴾